رواية

شاكر الأنباري

# مسامرات جسر بزيبز

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

**e-mail: info@almutawassit.org**

**www.almutawassit.org**

تابعونا على

**Almutawassitit@**

منشورات المتوسط

Almutawassit

# الفصل الأول

أقيم في بيتي وسط مدينة أربيل، ليس بعيداً عن القلعة، مع زوجتي نادية، أرملة المرحوم بشير، وابنها علي ذي العمر خمسة عشر عاماً، وابنتها مريم البالغة من العمر عشرة أعوام، ومدينة أربيل تبعد مئات الكيلومترات عن قريتنا التي هجرناها مُجبرين، ولم يعد أمامي سوى إفراغ غضبي بالكتابة، مستحضراً تجربتنا المريرة التي عشناها. أداوي بها فوران ذاكرتي، ويأسي، فهي النشاط الوحيد الذي بات يُدخل الطمأنينة إلى روحي. أشعر بالزهو، والقوّة، حين أرى الكلمات وهي تتخلق أمامي، وتنهمر مباشرة من رأسي، على صفحة الشاشة البيضاء، وأحياناً على الأوراق، فأشمّ رائحة السعد والطلع واللوبياء والمطر المختلط بالتراب، وأرى أشعّة الشمس، وهي تتسلّل من الغيوم في شتاءات القرية. صباحاً، حكت لي نادية، ونحن نجلس على طاولة الأكل في المطبخ، أنها رأت عمّي رشيد وأخي بشير في مكان غريب. حديقة مضاءة بالمصابيح، فيها ممرّات محاطة بالزهور، وأشجار تنثّ روائح زكية، وهما يجلسان على كرسيين من البلاستيك مثل الكراسي التي كنّا نضعها في حديقتنا، وجنبهما شلال صغير، يسكب المياه على صخور ملوّنة، وكان بشير يرتدي ملابسه التي دأب على ارتدائها: البنطلون البنّي والبلوز نص كم والصندل المخرّم، عمّي رشيد يرتدي دشداشة بيضاء وغترة عليها عقال غليظ، وتنبع من ذلك الشلال أضواء حمراء وصفراء وخضراء، أحالت وجهيهما قناعين غريبين، خاليين من سمات البشر. كانت تقصّ عليّ حلمها، بجدّية كاملة، وعيناها الزرقاوان تعكسان فرحاً سرّياً، تحاول كتمه عنّي. قلتُ لها إنهما في الجنّة، أ ليسا شهيدين؟! عمّي قتلته الوحوش، وأخي بشير قتله الأميركان.

حين غادرنا القرية هاربين، أحسستُ أن حياتي قد انتهت، وأنني لم يعد أمامي سوى الموت، وفي بعض الليالي، وحين كنتُ أتلوّى في فراشي من الأرق، أصل إلى قناعة هي أنه؛ أي الموت، هو الحلّ الوحيد؛ كي أتخلّص من عناء هذه الحياة. عشتُ طويلاً، ورأيتُ الكثير، وعانيتُ، ممّا يجعلني أقتنع بأن الرحلة قد تقتْ، ولم يعد هناك ما يغريني في البقاء هنا، في هذا المكان الأرضي. روحي في تلك البقعة التائهة بين الصحراء والنهر، البقعة

التي شهدت طفولتي وصباي ويفاعتي، ثمّ هجرتُها ذات يوم بعد الأحداث التي عاشها البلد، الأحداث التي عاشها الجميع طوال عشرات السنين، وأصبحت معروفة للقاصي والداني، كما يُقال. قد يكون الدافع وراء كتابتي هذه هو استرجاع ما مات من سنين، وما مات من بشر، أوّلهم عمّي رشيد، الذي جزني مقتله من أطرافي كلها نحو استجلاب تلك السنوات التي عرفتُه فيها، منذ اليوم الأول حين احترقتْ قدماي، وحملني هو إلى المضمّد عبد، ثمّ أرجعني في تلك الظهيرة إلى البيت، وحتّى هذه اللحظة التي أقيم فيها وسط هذا المكان الغريب. مجال حركتي صار محصوراً بين البيت والقلعة، قلعة أربيل، بعض النهارات، أنزل إلى هناك، وأجد لنفسي مكاناً شاغراً قرب النافورة، وأمتّع بصري بالبشر السائرين والجالسين، وهم يدخلون السوق، أو يجلسون مثلي ينظرون دون هدف إلى طابوق القلعة، وشبابيكها، وأبراجها، وتلك السماء العجيبة الصافية، خاصّة وقت الغروب، وهي تنقل المرء إلى الماضي، ماضي حياته، على الدوام. أرقب الحمام يطير فوق أبراج القلعة، أشمّ رائحة المطاعم المجاورة في الشارع الذي يتوغّل في القيصرية القديمة، وأنظر البشر المتلذّذين بأكلة الكباب واللبن والمشاوي والفروج، وأتنسّم أريج الشاي المهيّل في المقاهي السياحية المقامة تحت جدران القلعة السامقة، ويجلس فيها الشيوخ يحدّقون مثلي إلى ظلال حياتهم الهاربة، في أماكن قصية، وتأتيني هبّات الهواء، وهي تضرب وجهي بعد أن تمرّ بتيارات الماء المتطرطشة في النافورة. الناس الموجودون في الساحة غرباء عنّي، وأود أن تقع عيناي على شخص واحد، أعرفه، لكنني كلّما ظننتُ أن وجهاً من الوجوه أعرفه، يخيب ظني بعد التفرّس فيه، رغم أن هناك عشرات العوائل الهاربة من القرية، جاءت إلى المدينة المطوّقة بالجبال، واستقرّوا فيها.

أفكّر بأن تلك الحياة، تلك السنوات، تلك القصص والحكايات أصبحت جزءاً من ماض ذهبي، لن يعود. مضت حياتنا الطينية، وأعقبتْها حياتنا الصخرية، وجاء بعدها حياتنا الإلكترونية، ولم يعد في رأسي سوى رماد الذكريات. حياتنا تلاشت دفعة واحدة بعد هجوم الوحوش، وهذه التسمية؛ أي الوحوش، أطلقها عمّي على تنظيم الدولة الذي طردنا من بيوتنا، وقتل عمّي بقذيفة هاون قرب المستوصف الصحّي. نادية زوجتي كانت زوجة أخي بشير، الذي قُتل في حادث سابق قبل أن نترك القرية. قتله جندي أميركي أسود في شارع من شوارع العاصمة، وتحديداً في منطقة الشعب. لم يكن أمامي من طريق آخر سوى الاقتران بها؛ لأنها ظلّت وحيدة مع مريم وعلي بعد مقتل أخي، وكنتُ أنا عازباً، وأقطن في بيتهم، أمّا لماذا

بقيتُ عازباً كل هذه السنوات من عمري؛ فتلك حكاية أخرى، سأرويها ذات يوم حين يأتي أوانها.

قُتل عمّي رشيد في نهار ربيعي مشرق، وكنتُ أنا في المدينة. المدينة الخائفة. المدينة المشحونة بالإشاعات، وقصص الموت، وظهور الوحوش على أطرافها، والفوضى السابحة فيها. المدينة التي توقّفت فيها الحياة، فلم يعد هناك مجمعات ألعاب وحدائق ومقاهٍ وسينمات، لا يوجد فيها سوى صبّات الكونكريت التي تطوّق المباني الحكومية والمرافق المهمّة، كما أُغلقت شوارعها بالأسلاك الشائكة، ووقف الجنود المدجّجون بالأسلحة، اللابسون للأقنعة في الزوايا، وعند السيطرات، وأيديهم على الزناد. المدينة التي رفضتُ - دائماً - العيش فيها، وفضّلتُ البقاء في القرية؛ كي أبتعد عن الهاجس اليومي بالموت الذي طال قاطنيها جميعهم. ذلك اليوم جئتُ ضيفاً على ابن خالتي ماهر، وكنا نجلس في غرفة الضيوف. الحقيقة هي أنني جئتُ - بالأساس -؛ كي أجري عملية مفراس للقلب في مستشفى الرمادي الكبير، تلك البناية الضخمة الواقعة قريباً من النهر، وكانت مناسبة جيدة لزيارة ابن خالتي، وتناول الغداء في بيته.

في تلك الظهيرة، تحدّثنا أنا وماهر عن المدينة، باعتباره يعيش في حي قريب من مركزها، حي الأندلس، أو حي الروس سابقاً حين قطنه الخبراء الروس قبل أربعين سنة، ثمّ رحلوا في نهاية السبعينيات. كان يحدّثني عمّا يجري وتوقّعاته للمستقبل، وعدنا إلى الأيام البعيدة التي قضاها معي حين كنتُ أقطن في دمشق قبل عودتي إلى القرية، ثمّ بعد ذلك، قفزنا إلى حياته الخاصّة؛ حيث وجدتُه متحمّساً لمشروع، ليس له علاقة بما يدور في الوقت الحاضر. ماهر شُفي من الصرع منذ زمن طويل، لكن آثاره ظلّت تتلبّسه في أثناء الكلام. غزا الشيب رأسه، وتجعّدت بشرته، وصارت عيناه تجمدان بعض الأحيان لحظات، ويصمتُ دون معرفة ما يفكّر فيه، فكان يراودني إحساس أن فكره لا يمتّ إلى الموضوع الذي يتحدّث به، وهي حالة جديدة، لم ألاحظها عليه في أثناء عودته من ليبيا، وزيارته لي في دمشق. كان ماهر يعمل على وضع ديوان شعر للحكمة، يستلّ قصائده من الشعراء القدامى، بيت أو بيتان أو قصيدة كاملة، يعتقد أنها تكثّف الحكمة أو المفارقة أو الصورة اللطيفة، وابتدأ من شعراء المعلّقات، ثمّ مروراً بالشعراء الأمويين، ثمّ العبّاسيين، وحتّى شعراء الفترة المظلمة حين سقطت بغداد على يد هولاكو. هذا الكتاب سمّاه المختارات. لا أعرف إن كان مايزال متابعاً لهذا المشروع أم لا، فهو اليوم يقطن في مدينة

الناصرية، في الشارع نفسه الذي يقطنه أخي مصطفى.

أتذكّره - الآن - بوضوح، كلامه المتقطّع، شارباه الصغيران الشائبان، فمه المزموم، وجلسته على الحشية الصوف الممدودة في مواجهتي على الأرض المفروشة بالسجّاد، في بيته بحي الأندلس، وسط المدينة، وهو يحدّثني عن انغماره بالشعر القديم، وكيف يحسّ بالراحة النفسية عندما يقرأ لعنترة العبسي، وامرئ القيس، ولبيد بن ربيعة، والزبرقان، والحطيئة، والمتنبي (العظيم)، كما دأب على وصفه، كلّما ورد في حديثه، وغيرهم ممّن كانت قصائدهم تُعلّق على أستار الكعبة، أو تُقرأ في مربد البصرة لاحقاً. فيها بُعد روحي، يجلب التناسق والطمأنينة إلى النفس وسط هذه الفوضى، كما كان يردّد بين جملة وأخرى. أُصيب ماهر بالصرع بعد حادثة السيّارة الشهيرة التي كان يقودها عمّي رشيد، وكاد أن يموت قبل أكثر من خمسين سنة، وكانت تلك السيّارة تنقل الصخر من المقالع البعيدة في الغرب إلى البيوت الجديدة التي كنّا نبنيها قرب السدّة، إلى الجنوب من بساتين النخيل، حين تحوّلت بيوت القرية إلى بيوت حجرية، وهُدمت - خلال عقد - بيوتها الطينية كلها.

قبل الغداء بدقائق، جاء ذلك الاتصال من زوجتي نادية، وهي تخبرني برعب: عمّك رشيد قُتل. ثمّ حلّ صمت فاجع، فاعتدلتُ بجلستي، وتدافعتْ أنفاسي، وتعلّقتْ عينا ماهر بفمي، وصمتُّ برهة، لا أعرف كيف أعبّر فيها عن حزني. عمّي ليس مقاتلاً، ولا يتجوّل كثيراً في القرية بعد أن كبر، وشاخ. وبعد دقيقة من الفراغ، والشواش، سألتُها بنبرات متقطّعة: كيف قُتل؟ قالت بصوت جاف وراعش، قُتل بقذيفة هاون، سقطت قرب المستوصف، كان يقيس الضغط هناك. في تلك اللحظة، لم أستوعب الفقدان الضخم لعمّي من حياتي وذكرياتي، وحسبتُ الخبر خبراً عابراً مثل انفجار قنبلة لاصقة، أو تبادل لإطلاق نار في شارع جانبي، أو اغتيال شخص مجهول الانتماء. قلتُ لها سآتي حالاً، وأغلقتُ التلفون. اختلطت الموجودات حولي، وتداخلت، وارتدتْ غلالة من السواد، وكأننا ننطق بصوت خافت، لم نعد نحتمل مزيداً من الويلات. جاءت خولة زوجة ماهر من المطبخ، ووقفتْ في المدخل، ثمّ جاء ابنه أسامة، وهو يدرس في السادس الثانوي، وجاءت مها ابنة ماهر، وهي تدرس في كلّيّة الاقتصاد في جامعة المدينة، ووقفوا جميعهم يحدّقون في وجهي، كما لو كانوا ينتظرون مزيداً من التفاصيل، رغم أن أخبار الموت والقتل لم تعد مفاجئة كما السابق. لم ألبث لحظة واحدة بعد ذلك الاتصال، وهيّأتُ نفسي

للمغادرة. هل نذهب إلى القرية؟ سألت خولة زوجها ماهر، ورأيتُ الدموع تسيل على وجهها تأثراً بالخبر، قال لها ماهر، وهو يحدّق في وجهي: ليس اليوم، سنذهب غداً، المدينة على كفّ عفريت، والوحوش تتقدّم نحو القرى والمُدُن، لننتظر إلى الغد، وأنهى جملته بحزم، وجلس على الفراش متابعاً كلامه: إنها النهاية، لن تقوم لنا قائمة، حين رأيتُ الدبابات الأميركية، وهي تتجوّل في الشوارع قبل سنوات، لم أصدّق عيني، ظننتُ أنني في حلم، أو كابوس، أو نقلني جنيّ ما إلى جزيرة بعيدة، بفعل السّحر. مَن يصدّق ذلك؟ من أين خرجتْ كل هذه الشياطين؟ كان ماهر يتكلّم دون أن ينتظر جواباً أو رداً. نعم، كان الذهول هو الذي سيطر على وجوه الناس، وهي تتفرّج على الجنود وملابسهم الغريبة، المفاجأة التي لم ير أحد مثلها منذ قرون. عندما مرّت الدبابات في الشارع العام قرب السينما، ورأيتُ الحشد الذي يحدّق في المشهد من رجال ونساء وأطفال، حسبتُ أن يوم القيامة قد اقترب، وغيمة التوقّعات تتّسع، وتسود فوق الجميع، والتساؤلات عن مصيرنا القادم ظلّت دون اإجابات. هل إن ما يجري أمام العيون حقيقة أم خيال؟

أسمع كلام ماهر وعقلي مشغول بموت عمّي. هل كان عمّي ينتظر ميتة مثل تلك؟ وهل هي الصدفة أن نهاية حياة عمّي هي نهاية لحياة قريتنا ذاتها؟ كيف لي أن أسترجع صورة عمّي دون أن أسترجع صورة القرية كاملة، فحياة عمّي رشيد اندمجت بها حتّى يصعب الفصل بينهما. اندمجت، كما أفكّر اليوم، برمل النهر وسنابل القمح ونداء الطيور في أول يقظتها صباحاً، وتشظّت بين الدروب المسوّرة بالشوك والعاقول، وبين عذوق النخيل وأعشاش الطيور وزخّات المطر، وهي تضرب سطوح البيوت، وأفواه التنانير، وأغصان أشجار اليوكالبتوس. قلتُ لهم يجب أن أمضي، ولم أنتظر وجبة الغداء التي أعدّتها خولة احتفاء بي، وهي - كما قالت عند وصولي - سمكة شبوط طازجة من صيد هذا الصباح، وضعتها في الفرن، وهي على وشك النضوج. الجوع اختفى من معدتي بغتة، وضاق جلدي عليّ، فكنتُ أسعى لاستنشاق الهواء، والخروج إلى الفضاء غير المترامي، فضاء البارود والغبار وروائح الجثث الملقاة بين الصخور، وتحت أجمات البردي، وعلى أجناب الشوارع البعيدة. قُدتُ سيارتي نحو القرية، وكان عقلي في مكان آخر. قُدتُ عبر الأزقّة المتربة والطرق المزدحمة بالسيّارات، وعربات النقل اليدوية والدرّاجات البخارية المنتشرة بكثرة بين الشباب، لكنني لم أكن أرى ذلك، عقلي سابح في دخان غير منظور، وخرجتُ نحو الشارع العام، وتوغّلتُ في شرق المدينة، ثمّ تجاوزتُ

حيّ الصناعيين ومُصلحي السيّارات والمبرّدات، حتّى وصلتُ الطريق النهري الذي يرتفع عن الأرض أكثر من خمسة أمتار، متوغّلاً بين النخيل والبيوت الحديثة البناء. كان النهر إلى يساري، يتحدّر إلى الشرق البعيد بعنفوان وخوف. رأيتُ مسلّحين، يتجمّعون تحت أشجار النخيل، وبقراً، يرعى قرب الضفاف، وبقايا أغنام، يقودها راع متلفّع بغترة بيضاء مثسخة، وهو يحاول الاتصال عبر تلفونه الصغير لشخص ما، لكنّ؛ دون فائدة، فالشبكة غير متوفّرة، وشاهدتُ عجائز قلقات، يجلسن أمام البيوت، وهنّ يتبادلن الكلام، وودتُ لو أخبرهنّ بموت عمّي.

سلكتُ الشارع المؤدّي إلى جسر طارق، الرابط بين قريتنا وقرى المدينة الشرقية، وكان عقلي يسترجع صورة عمّي قبل أن يغيّبه الموت. آخر صورة له كانت بلحيته البيضاء، والألق القديم الذي ظلّ محتفظاً به في عينيه الواسعتين. وحماسته للحياة، تتجسّد بهاجسه القديم المتمثّل بالمشاركة في حياكة الأحداث، والدخول في حكاياتها، وتفاصيلها، ومعرفة كل شيء يجري حوله. أنشئ جسر طارق الذي وصلته منهكاً، حزيناً، للعبور نحو القرية، من أجل المشاركة في دفن عمّي، قبل أكثر من خمس سنوات، وذلك على أنقاض الجسر القديم الذي فجّرته عناصر التنظيم في المواجهات التي اشترك فيها عمّي شخصياً، وقام محافظ المدينة بترميم الجسر بعد أسابيع من نسفه، وسمّتْهُ الناس على اسم المحافظ مأمون، ثمّ غيّروا الاسم إلى طارق قبل سنتين فقط. وهو ذو ممرّ واحد، تقف على كتفيه من الضفتين مفرزتان للشرطة المحلّيّة، تنظّم عبور السيّارات، وتراقب الجسر من المعتدين. أمامي تمرّ سيّارات حمل صغيرة معبّأة بالأثاث، وسيّارات خصوصي، وضع البعض الحقائب على متنها، وأفهمني الشرطي الذي وقف جنبي أنهم يهربون من الهجوم، هؤلاء يقطنون على مشارف الصحراء، في قرى عيث وبالي وملحم، وقد هربوا بما يملكون ما إن شاهدوا السيّارات التي يستقلّها المهاجمون، ودوّت في أسماعهم القنابل والصواريخ المنطلقة باتجاه الشرطة والمتطوّعين من أبناء القرية.

نحن مقبلون على كارثة، همستُ لنفسي، وأنا أشاهد المزيد من الهاربين، مشاة، أو في سيّارات مختلفة الأحجام والأصناف. بدأتُ أنا الآخر أسمع أصواتاً بعيدة لقصف متقطّع، وانفجارات غامضة، كانت تأتي من الشمال، ربّما أبعد من الطريق الدولي الذي يحاذي قريتنا. أيّ مصير ينتظرني؟ أيّ عالم يتداعى أمام بصري، أنا الواهم الذي اعتقد أنه سيقضي بقية حياته في هذا المكان الآمن؟ لم أكن أتنبأ بهذه الأحداث التي نعيشها، اعتقدتُ

أنني سقطتُ في دائرة محكمة من الاستقرار الأبدي، لن أخرج منه إلا إلى مقبرتنا الكئيبة التي سيُدفن فيها عمّي، ودُفن فيها أخي بشير قبل سنوات وعشرات من المعارف والأصدقاء الذين نشأتُ معهم منذ أول يوم لي في تلك المدرسة الطينية قبل عقود من السنين.

الموج في النهر خفيف، والنوارس تحوم بين الضفّتين، ومكائن ضخّ المياه الكهربائية المنصوبة على النهر معظمها متوقّف، ومنظر المكان طالته التغيّرات حتى بات غريباً على العين. اختفى رعاة الغنم، اختفت النساء الباحثات عن العُرُوق في الأجراف، غاب السبّاحون، وماتت قصص المعلّمين الذين دأبوا على العبور، بواسطة القارب متّجهين صباحاً إلى المدرسة الطينية. أجلستُ الجمال على ركبتي، فوجدته مرأ، خطرت في رأسي هذه الجملة الشعرية التي قرأتُها في كتاب ما ذات يوم، وخالطني حزن عميق؛ لأن كل هذا السلام المنتشر تحت بصري سيختفي عنّي إلى الأبد. تمنّيتُ في بحراني، وأنا أنتظر مهموماً بمقتل عمّي، لو تحوّل جسدي إلى عصير، ينفذ في نسيج هذه الموجودات الواقفة أمامي، أشجار الحلفاء والنخيل وأغصان الطرفاء وأجنحة الطيور اللاهية عنّا، ذرّات الرمال وبقايا المحار، السعد والنفل، الشوك والعاقول. قلبي يخفق بدماء النهاية مثل شمس غاربة. وجه عمّي يجيئني بأشكال مختلفة، مرّة حين رأيتُه أمام بيت عفرا، في أثناء ما وجَت النار في قدمي، وكان شاباً، تطفر الدماء من وجنتيه، ومرّة يأتي متماسك التعابير جاداً حين انتقل للعمل في بغداد، وأصبح يعيش حياته بحُرّيّة مطلقة، ومرّة يأتي عجوزاً ممروراً، كما شاهدتُه في تلك العصرية أمام بيته، وطلب مني الزواج بنادية بعد مقتل بشير، بأقل من سنة.

تلك الصور المتعدّدة لوجه عمّي تعيش في ضميري، وأستطيع استحضارها في أي وقت أشاء. قبل سنتين، أتخيّل - الآن - أن قرناً من السنين يفصلني عن ذلك اليوم، طلب عمّي مني صباحاً الذهاب معه لرؤية المتظاهرين، وقد أصبحت تلك التظاهرات حديث المجالس ليل نهار، بين مؤيّد ومستنكر. عمّي - في الفترة الأخيرة من حياته - أصبح يرتدي العقال والغترة البيضاء، وهجر الملابس الغربية؛ أي البنطلون والجاكيت والقميص، وقرّر - قبل عشر سنوات - إطلاق لحيته، فكانت بيضاء مثل ثلج، وصارت متناغمة مع بشرته الخمرية، ووجهه المدوّر، وعينيه الواسعتين، فقد أضفت عليه مهابة واضحة. بعد أن كبر أولاده، ترك عمّي العمل في العاصمة والمُدُن البعيدة، وسلّم الأعمال لأبنائه، واستوثق بابنه الكبير

قيس، فصار هو المشرف على إدارة العمل.

في ذلك اليوم، ركب عمّي جنبي، وغادرنا الطريق المبلّط الذي يربط بيوتنا بالسدّة التي بُلّطت هي الأخرى قبل عشرات السنين، وتوجّهنا نحو الغرب. لم أكن أرغب في الدخول بمعمعة ما يدور في منطقتنا ومدينتنا من تظاهرات، وتشكيل أحزاب، ودعايات انتخابية، لقد فقدت الأمل بذلك كله، وانسحبتُ إلى نفسي وحياتي الضيقة، واتّخذتُ قراري بعيش سنواتي المتبقّية في القرية، مهما تفاقمت المصاعب. تقبّلتُ مصيري دون احتجاج، أو تذمّر، أو سعي لتغيير حياتي، فثمة إلهام علوي، كان يقول لي كل صباح إنك لن تستطيع الخروج عن الطريق الذي أسّسته الوقائع التي صاحبت سقوط دولتنا، ودخول جيوش الاحتلال إلى بيوتنا وشوارعنا ومُدُننا. لذلك لم أكن أعبأ بتلك التظاهرات، ولم أفكّر لا بالاشتراك بها، ولا بزيارتها، حتّى لو جاء الأمر فضولاً، ليس إلا. تلك كانت رغبة عمّي، وهو بنفسه مَن طلب مني مرافقته. أعرف أن عمّي عادة ما يرغب في أن يكون موجوداً في كل مكان، هذا ما خبرتُه منذ أن رأيتُه أول مرّة في تلك الطفولة البعيدة. انعطفنا إلى طريق المحظة، محطّة تفريغ المياه من شبكة البزول في الأراضي الزراعية نحو نهر الفرات، وقيل لي إنها أقيمت قبل رجوعي من سورية. اتّجهنا إلى الأوتوستراد الدولي الذي يربط العراق بكلّ من سورية والأردن. المظاهرات كانت تجري هناك، بعد أن قطعوا الطريق، وأشادوا الخيم التي جعلها المتظاهرون مقراً لهم. قال لي عمّي خلال المسير بألم: مَن يصدّق أننا سنصل إلى هذا الوضع؟! لو قيل لي قبل عشرين سنة إن المنطقة ستدخل في هذه المعمعة، لما صدّقتُ ذلك، على الأطلاق. بلدنا يراوح في مكانه، كلّما خرجنا من حفرة، نجد أنفسنا في حفرة ثانية. قلتُ له إن العالم تغيّر، وعسى أن تسمع الحكومة لمطالب المتظاهرين. لقد فُتحت صفحة جديدة في حياتنا، لم تكن متاحة قبل الهزّة الأرضية التي سبّبها دخول الأميركان إلى البلد. فمنذ فترة طويلة، والتظاهرات - كما عشناها - لا تتمّ إلا بموافقة الحكومة. ويجب أن تكون مؤيّدة لها، سواء في الحروب، أو للإشادة بسياستها، ومشاريعها. هذه تختلف، ففي رأس كل متظاهر موال يعتقد أن وجوده في المظاهرات يقوده إلى تحقيقه.

بدأنا نلمح من بعيد التجمّع الهائل في الطريق الدولي، وهو على شكل سرادقات من البيوت القماشية والخيام الصغيرة، كانت تشبه بيوض نعام في صحراء من الرمل. شيء جديد تماماً، بالضبط مثلما يقول عمّي، فهذه الأماكن المعروفة بحياتها الفلاحية والقَبَلية لم تفكّر - يوماً - بالتظاهر، لكنها

اليوم ترفع صوتها للمطالبة بحقوقها، لا تستخدم السلاح، بل تكتب مطالبها على شكل شعارات، رأيناها منصوبة على الجسر الماز فوق خيم التظاهرات، وعلى الخيم المتصدرة للمشهد، أو ألصقت على أعمدة صغيرة من الخشب، مثبتة على جانبي الطريق. أوّل مشهد اعتصام شهدتُه في القرية، كان في مدرسة المعرفة، وكان المدير حامد هو مَن دعا إليه، وقيل - وقتها - إنه ينسّق مع الأحزاب القومية، الناصريين خاصّة، حين خرج التلاميذ والأساتذة في الساحة تضامناً مع الجزائر ضدّ فرنسا المستعمرة. بعد عشرات السنين، كنتُ كلّما استعدتُ المشهد مع نفسي، أغرق في الضحك، فكيف لفرنسا التي تبعد آلاف الأميال عن مدرستنا أن تعير أي اهتمام لاعتصامنا ذاك؟ في بقعة لا تمتلك راديو ولا كهرباء ولا مكتبة ولا مستشفى سوى ذلك المستوصف الصغير؟! وهل يا ترى سمع القاطنون في مُدُن مثل باريس ولندن ونيويورك وبرلين وموسكو بقصة تجمّع عشرات الأشخاص، بعضهم مليء بالقمل، ولا يرتدي حذاء في قدميه، ويمتلك دشداشة واحدة فقط، يرتديها خلال الفصول، وفي قرية مغطّاة بالغبار وسحابات البقّ، يطالبون فرنسا بالخروج من الجزائر العربية المسلمة؟!

أوقفنا السيّارة على بُعد عشرات الأمتار من أول خيمة، وسرنا إلى مدخل الاعتصام. رحّبث بنا مجموعة من الشباب، كانوا يضعون شارات، تدل على تبعيّتهم للمنظّمين، خاصّة حين لمحوا عمّي، ولم يفتّشونا على جاري العادة. تركونا ندخل الممرّ الذي هو الشارع الدولي، بسلام، مما ولّد لدينا انطباعاً هو أن التظاهرات حضارية، وتبشّر بخير في تغيير الإيقاع الحكومي في مدينتنا وفي العاصمة. كان عمّي يلقي التحية بين حين وآخر على أشخاص، لا أعرفهم، وأحياناً على أشخاص من قريتنا، أو القرى المجاورة. توغّلنا في الممرّ نحو قلب التظاهرة. على اليمين خيام صغيرة أو كبيرة، وكذلك على اليسار، ولاحظتُ أن حماساً فائضاً عن الحدّ يستولي على الجميع، بعض الخيم كُتب عليها اسم العشيرة التي تتبع لها، وبعضها يجلس فيها أشخاص على كراسٍ من الخشب، يدخّنون، وينظرون من فتحة الخيمة إلى الخارج، وكأنهم ينتظرون شخصاً ما. لم تقع عيناي على أية امرأة في المكان، وتخيّلتُ لو أن المظاهرة في بلد أوربي أو أميركي، لكان نصف المتظاهرين من النساء، وتخيّلتُ أمّي وخالتي سميعة وزوجتي نادية وعشرات من فتيات القرية، وهنّ يقفنّ مع المتظاهرين ماسكات بلافتات القماش للتعبير عن مطالبهنّ، بالتأكيد، ستكون مختلفة كلّيّة عن مطالب هؤلاء، ورحتُ أبتسم مع نفسي لهذه الصورة الخيالية التي لمعتْ أمام عينيّ، ثمّ ارتسم في ذهني مظاهرات لندن التي انطلقتْ ضدّ الحرب

في أيام احتلال الكويت، ومظاهرات أميركا ضد التفرقة العنصرية أيام مارتن لوثر كنغ، وفكّرتُ أن أمامنا عشرات السنين من التطوّر والمعاناة؛ كي نصل إلى هكذا مستوى من الاحتجاج.

عمّي لا يدخّن، لذلك كان يرفض السجائر المقدّمة من بعض معارفه، ويكتفي بوضع يده اليمنى على صدره كعلامة للشكر، رغم أنه كان من المدخّنين المدمنين قبل الحرب العراقية الإيرانية، خاصّة حين يكون في مجلس لاحتساء البيرة في مطاعم أبي نؤاس، كما روى ذلك أكثر من شخص ممّن عرفوه في أيام زهوه. وجدنا آلافاً من الشباب تندسّ في الخيم، تتجوّل في الشارع، تجلب صناديق من الفواكه، تضعها في متناول الموجودين. أصوات كنّا نسمعها منطلقة من سماعات عالية النبرة، عُلّقت على الجسر، تبثّ الأشعار الشعبية، والأغاني الوطنية، يعود قسم منها، وهذا ما نال عجبي وذهولي، إلى حقبة الحرب العراقية الإيرانية، وهي تشيد بالقتال ضدّ الفُرس، وبطولة الجندي العراقي، وضرورة الدفاع عن أرض الوطن، وتبثّ كذلك خطباً دينية، تحرّض على الثبات والجهاد، وتحرير فلسطين، وتصف أميركا بالعدوّ الأبدي للإسلام، أو أن الحلّ لكل مشاكل المجتمع هو بتطبيق الشريعة؛ إذ تعب الناس من أفكار الملحدين، والعلمانيين. ولكن ذلك لا يلبث سوى دقائق؛ لتنطلق - بعدها - أغان وطنية، تشيد بالوطن وعزّه وكرامته وتلاحم أبنائه، ويبدو أنها غُنّيت في السنتين الأخيرتين. وأحياناً يجتمع عدّة أشخاص، يتهامسون أمام خيمة ما، أو يدخلون في جوف سرادق، يتبادلون الأخبار والإشارات، كما لو كانوا يفشون أسراراً، لا يرغبون لأحد في سماعها.

الشمس ترتفع في السماء الصافية، وتوزّع وهجها على المتظاهرين، والحرارة تنبعث شيئاً فشيئا من الإسفلت، والأصوات تتعالى؛ لتدخل الآذان مثل رصاص ثقيل. نتجوّل، ونحدّق بدقّة في ما يجري في المكان. أنظر هناك، لفت عمّي انتباهي، هامساً، إلى ثلاثة رجال، يقفون تحت الجسر، يرتدون عمائم بيض، ويقهقهون بصوت عال، وهم يحدّقون إلى الصف الطويل من الخيم والناس المحتشدة في الشارع. قال لي بصوت ساخر، وعيناه تتوهّجان بالمكر الداخلي الذي يجيده منذ شبابه: لا تنتظر خيراً من هذه التظاهرة، ما دام هؤلاء يقودونها. هم يغرّرون بالسذّج والبسطاء، قال فلان، وحكى فلان، لكنهم - في النهاية - لا يفكّرون إلا بمصالحهم. هم لا يختلفون كثيراً عن الوحوش الصغار الذين قاتلناهم قبل سنوات، وكان عمّي يعني بالوحوش الصغار خلايا التنظيم التي غزتنا بعد دخول القوّات

الأميركية، وتمكّنت من التغلغل بين الناس عبر الأفكار الدينية المتطرّفة التي تركّز على الجهاد ضدّ المحتلّين. إنهم جزء بسيط من هذا الحشد الكبير، قلتُ. تذكّر كلامي هذا، سيقفزون على ظهور الناس، ويتصدّرون الجميع، وليس لهم سوى هدف واحد هو أن يحكموا. هذا حرام، وذاك حلال، تلك سافرة، وهذه مصيرها النار، فلان يشرب الخمرة، وذاك يسمع الغناء، وهكذا، أعرفهم جيداً منذ عشرات السنين، تجدهم، لا في مدينتنا فقط، بل في أغلب مُدُن البلد. عيناه في ذلك النهار تشككان بكل ما يجري، وأحسستُ به، كما لو أنه غير واثق من نزاهة ما يدور على بُعد عشرة كيلومترات - فقط - من قريتنا.

لأوّل مرّة في حياته راح يؤمن أن زمنه قد مضى، وهناك جيل آخر يتسلّم الراية، إلا أنه يجهل الوجهة التي يمضي فيها. هل وصل عمّي إلى نقطة حرجة في وعيه، لم يعد فيها يفهم ما يجري حوله؟ حاول - بالتأكيد - مواكبة الأحداث، وزجّ نفسه في مفاصل عديدة منها، غير أنه وجد نفسه في نهاية الخط، خط اللعبة. اقتربت الساعة من الواحدة ظهراً. رأينا الشباب يصفّون صياني من الفافون، تلمع تحت الشمس واحدة جنب الأخرى، تاركين مسافة ضيقة لجلوس الأشخاص، وسرعان ما امتدّ صفّ من تلك الصواني؛ ليتعدّى الخمسين متراً طولاً وسط الممرّ. وبعد دقائق، وفدت سيّارات حمل صغيرة، أنزلت قدوراً من الرزّ والمرقة واللحم والخبز، وأخذ الشباب يوزّعونها على الصياني، فيما فاحت رائحة الطعام لذيذة، شهية، مثيرة للجوع. وفي هذه الأثناء، لفت عمّي نظري إلى سرب طويل من الشباب، يتدرّب بمشية عسكرية على حمل السلاح والانضباط، معظمهم ملثّمون، يقودهم شخص ملثّم هو الآخر، يستعرض بهم أمام المتظاهرين، رواحاً ومجيئاً، وقال لي هذا كله لا يبشّر بخير، قلتُ له لماذا؟ قال هناك جهة تتحضّر لرفع السلاح إذا ما فشلت التظاهرات في تحقيق شعاراتها، لقد قضينا على الوحوش الصغار قبل سنوات، وها إنني أرى أن موجة جديدة منهم ستصلنا، قريباً، انظر إلى وجوه البعض، وهي مليئة بالكراهية والشكوك والتآمر. يمكن - بسهولة - رصد فوضى ما يجري من خلال مئات الأشخاص الذين يتكلّمون بتلفوناتهم النقّالة، وتبين على وجوههم العصبية والنزق والتحدّي، وكأن في الطرف الآخر شخص أو أشخاص يُلقون بتوجيهات صارمة، تستوجب التنفيذ.

كلمة وحوش هي كل ما ركز ذلك اليوم من كلام عمّي في ذهني، وقد صدقتْ تنبؤاته بعد أن فشلت التظاهرات، وهجم الوحوش الكبار على

المُدُن والبلدات والقرى، آملين بناء دولة إسلامية، لن تزول. الرحمة لك، يا عمّي، قتلك الوحوش الذين كنتَ تتوقّع مجيئهم، وهي آخر نبوءة تُطلقها، وأنت تنزوي في بيتك منغمراً بتاريخك الطويل المندغم بك مثل شبكة صيد السمك في ضحضاح المياه. حاولوا قتله أكثر من مرّة قبل هذا اليوم، زرعوا له عبوة لاصقة؛ لكي تسكت لسانه عن مهاجمتهم، وأطلقوا عليه الرصاص، وكاد يموت، لولا نقله إلى بغداد، بواسطة مروحية أميركية، ووضعوا اسمه في لوائح التصفيات بعد اجتماعه مع الجنرال بترايوس قائد القوات الأميركية ومهندس الصحوات، فظلّ مصراً على محاربتهم، وتخليص القرية من وجوههم التي كان يسمّيها بالكالحة. لقد استطاعوا اليوم حذفه من الحياة، بالصدفة، وسيفرحون لخبر مقتله دون شكّ.

عبرتُ الجسر، واستلمتُ الطريق الزراعي الذي يوصل إلى القرية. تجاوزتُ بستان نوري المزروع بالبرتقال والتين والرمّان، وبدا لي مثل أشباح تقاتل الفضاء، وتجاوزتُ حقل دواجن معلّم المدرسة نائل، الخرب - الآن - بعد أن اختُطف قبل سنتين، ووجدوا جثّته على الطريق السريع، ومررتُ بمصلّح السيّارات، صديقي الذي اشتغلنا سوية في تصليح وبيع السيّارات بعد عودتي، كوني لم أكن أزاول أي مهنة، أو وظيفة، ثمّ تجاوزتُ مكان الانفجار الذي قُتل فيه عمّي، وسبّبته قذيفة هاون، كما ذكرتْ نادية، ورأيتُه مهدّم الزوايا، ومهجوراً، والبشر بين البيوت في فوضى عارمة، وكانوا - كما رأيتُ - يتأهّبون للهروب، فالوحوش عند الخط السريع، وما هي سوى سويعات حتّى يتقدّموا نحونا. قد لا يستغرق الأمر هذه الليلة. وجدتُ جامع الزبير مزدحماً بالناس وسيّارات الشرطة، وفهمتُ أن عمّي مسجّى في الجامع للصلاة عليه قبل الدفن. صرفتُ النظر عن الدخول، وإلقاء نظرة على جثّته، فأنا لا أحتمل رؤيته على صورة أخرى غير التي أحتفظ بها له.

قبل ساعة من وصولي، كان أخي أحمد قد أذاع خبر مقتله في السمّاعة، وكرّر النعي ثلاث مرّات، وقد حزنتُ لهذا الإجراء؛ لأن وصول خبر موته سيُفرح الوحوش. أتخيّل ما سيقولونه، لقد مات العميل؛ إذ إنهم كثيراً ما نقلوا إليه هذا الوصف، إضافة إلى عمل ابنه قيس مع الأميركان في تنفيذ عقد الصبات الكونكريتية. منذ أن غادرنا بيتنا الطيني، وانتقلنا إلى بيت الحجر، وصرتُ أرى - بوضوح - ما يحيط بي، كانت المقبرة هناك، بين جناحي الصحراء الممتدّة نحو الشمال، وحين تقول المقبرة يتبادر الى الذهن تلال الرمال، والواحات العشبية الضيقة، وبيوت الشعر لبدو رُحّل،

والضباع المرعبة ذات الأسنان المكشرة دائماً، والتي تهاجم البيوت بحثاً عن طعام، والإبل القادمة من مكان بعيد، المتجهة إلى نقطة في الأفق غير معلومة. بيض النعام والأرانب وبنات آوى والعواصف الرملية والسراب والأشباح التي تنام دائماً بين القبور. ما فصل المقبرة عن أمها الصحراء هو الطريق الدولي الذي نفّذته - كما شرح لي أخي بشير - شركة يابانية، وفق أحدث المخططات في هندسة الطرق. كابينات للاستراحة عند كل عشرة كيلومترات، وطرق فرعية التفافية للانعطاف إلى الجوانب نحو القرى والمُدُن الصغيرة، وكان جدّي يحدّثنا عن أول قبر قام في هذه البقعة، وهو لأبيه شيحان، أشيد هناك بعد استقرارهم في القرية، ثمّ تتابعت القبور، تجاور بعضها بعضاً، وعادة ما كانت الأسماء تُخطّ على حجرة صلدة، توضع على رأس القبر. لم يستطع عمّي تحويل المقبرة إلى جنّة، كما خطّط ذات يوم. الأثر الوحيد الباقي من مشروعه ذاك، شجرة اليوكالبتوس الفارعة الطول مثل جنّي، نبت بغتة بين الرمال. معظم شخصيات القرية التي سمعتُ عنها، أو عرفتُها، دُفنت هناك، وقد كانت المقبرة رمزاً للخوف، ومكاناً للجنّ، ومنطلقاً للقصص الغريبة التي كانت تثير رعبنا نحن الأطفال ومخاوفنا، وفيها يرقد جدّي وأخي بشير وأبي وجدّتي ميّاسة أم عمّي رشيد، وعمّي فاضل وزوجته، وبعض من أقربائي، والقابلة التي جلبتني إلى الحياة. كما رقد فيها عشرات من الجنود الذين قُتلوا في الحروب المتعاقبة.

إلى تلك المقبرة، سنجلب عمّي رشيد؛ لكي يُوارى في قبره جنب جدّي وجدّتي؛ أي أمّه ميّاسة التي وقفتُ على قبرها في أول يوم عدتُ فيه من دمشق إلى القرية. عدد المشيّعين قليل، لكن إحساسي أنبأني وكأننا قادمون على دفن القرية. أخي مصطفى وابن خالتي ماهر لم يصلا من المدينة للمشاركة في التشييع؛ لأن وضع المدينة والطرق غير ملائم للتنقّل، والإشاعات تتواتر عن هروب جماعي أمام غزو الجراد. كان التشييع متعجّلاً، بعد أن وضعنا عمّي على سيّارة حمل صغيرة بتابوت عتيق، يعود إلى الجامع، اجتزنا تخوم القرية عبر الشارع المبلط، وتجاوزنا مركز الشرطة الجديد، وعبرنا على جسر صغير، أشيد فوق ساقية الماء الفنيّة المبطّنة بالخرسانة. وحين أصبحت القبور على مرمى النظر، تتوسطها شجرة اليوكالبتوس السامقة، وقد زرعها عمّي، وداوم على سقايتها سنوات حتى بسقت وسط الفضاء الموحش، أنذرني قلبي بأن شيئاً ما خطيراً سيحدث. أشمّه في الهواء، وأراه عبر الغبار المتطاير على تخوم الطريق السريع. شجرة اليوكالبتوس، شجرة عمّي، تأوي العصافير والغربان والبوم،

ما تزال منتصبة في مكانها، تمدّ جذورها نحو العمق؛ حيث المياه الجوفية القادمة من النهر. شجرة الزمن الذي مرّ مثل سحابة عابرة. الأخاديد على الساق الغليظ، واللمعان في الورق يشرق على الأموات. شجرة عمّي التي تذكّرتُ عبر أوراقها، وساقها، وجذورها الممتدّة في الأديم، ذلك اليوم الخريفي قبل عشرات السنين، حين حملناها من بستان إبراهيم، وزرعها عمّي بمسحاته؛ لكي يجعل قبورنا خضراء، كمقابر أوربا، مثلما شاهد ذلك يوماً في السينما.

مالت السيّارات عن الطريق المبلّط الموصل إلى الأوتوستراد الدولي، وصار الغبار يتطاير فوق الرؤوس، وكنا نعرف أن خطّ المواجهة مع الوحوش يقع إلى الشمال من الأوتوستراد، بحدود الكيلومتر فقط. الرصاص يدوّي من بعيد، أصوات انفجارات غير معروفة، وغبرة في الشمال، وعدد من الطائرات المروحية للجيش تقصف في نقطة ما غير مرئية. لقد أُزيلت خيم المتظاهرين من الشارع البعيد، بأوامر من الحكومة، واقتحمها الجيش ليلاً، بقرار مفاجئ، وتفرّق البشر غاضبين. البعض حمل السلاح، والبعض سكت متذمّراً، فيما أبدى آخرون ارتياحهم للخلاص من الفوضى. على تخوم المقبرة، أنزلنا التابوت، وكانت السيّارات تتوقّف واحدة بعد الأخرى؛ ليترجّل المشيّعون، وفيما كان الدفّان مصلح يتقدّم نحو القبر الذي حفره صباحاً، بدأت القذائف تتساقط علينا. هل ظنوا أننا جيش، جاء لمواجهتهم؟ هل عرفوا أن الجنازة لعمّي؟ وكيف؟ كانت مفاجأة، لم ينتظرها أحد، ولم نكن ندرك أن الوحوش تقدّموا نحو القرية إلى هذه المسافة القريبة. لقد أصبحنا في مرمى نيرانهم، وهم يتقدّمون نحونا خلاف كل التوقّعات. شجرة اليوكالبتوس تهتزّ للقصف، والطيور تفرّ مذعورة نحو الضفاف البعيدة.

خلال تساقط القذائف على أطراف المقبرة، ووسطها، وقريباً منّا، حدثت الفوضى، واستولى الرعب على الجميع. الموت، ينشر أجنحته قريباً من عيوننا. الموت هذا الكائن الخرافي لم يعد غريباً عنّا. قبل فترة ليست بعيدة، خرجت الجيوش من بلدنا، وسلّمت الحكم والقرار إلينا، وظنّ الجميع أننا قادمون على سنوات زاهية، نستطيع فيها ترميم ما تهدّم، وتحويل الخراب الذي عشناه طوال عقود إلى جنان مصنوعة من مدارس ومستشفيات ورياض أطفال ومعامل وحقول على آخر الطرز الحديثة في الزراعة، لكننا كنّا واهمين. حوّلونا إلى مدمني أوهام، غذّونا بأمصال، لم نكتشف فعلها إلا في وقت متأخّر. لقد خدعونا. أحفاد كولومبوس. الذي

حصل لم يخطر لأحد على بال، حتى في أشدّ الساعات هولاً؛ إذ تركنا تابوت عمّي في المقبرة، وهربنا. لماذا لم نجابههم حتى الموت؟ لماذا هربنا من أمامهم، وسلّمناهم مفاتيح القرية؟ سنموت في المواجهة، وهذا أكيد، ولكنْ؛ هل أقتنع أن حياتنا بعد الهروب كانت أفضل ممّا لو متنا في ذلك اليوم؟ هل نحن أحياء؟ أم أموات؟

كان الموت يزورنا في القرية بين الحين والآخر، كان أليفاً، يترصّد الكبار، ويحملهم بين جناحيه بخفّة، كما حمل جدّتي ميّاسة والمختار محمود الخضر وجدّي حميد وعمّي فاضل وأبي، كونهم تجاوزوا السبعين من العمر، بعضهم فرحنا لموتهم مثل جدّتي ميّاسة؛ لأنها عاشت الأشهر الأخيرة من حياتها في عزلة مطبقة، بعد أن شُلّت، وصارت تزحف زحفاً، وبالكاد تنطق، وكذلك جدّي الذي دخل في غيبوبة، امتدّت أياماً عدّة، أعقبها هذيان غريب، لم يفارقه حتى أسلم الروح، ودفنّاه في تلك المقبرة. موت الشباب كان شيئاً مختلفاً، خلال عشرات السنين، وهم يُقتلون، يتركون وراءهم زوجات وأبناء، بيوتاً ووظائف، آباء وأمّهات، لا يعيلهم أحد، وهذا ما حوّله إلى شيء طارئ، مفاجئ، غير متوقّع، ينقضّ - فجأة - وفي أغرب الظروف؛ ليخطف شخصاً، تراه ليل نهار، وتسمع نكاته ونوادره وقصصه وأحلامه، كما حصل لأخي بشير. المعركة تختلف اليوم عمّا كانت عليه قبل سنوات. وكأن أرضنا تحوّلت إلى مدفن ضخم دون أن نعي ذلك. صحيح أننا لم نعد نخشى الموت، لكننا نحبّ الحياة أيضاً، حتى لو كانت لدقائق، وأظن أن ذلك جزء من تكوين الإنسان، وأفكّر أن حبّ الحياة هو ما دعانا لترك التابوت، والنجاة بجلودنا. هل يفسّر هذا هروبنا من المقبرة، ثمّ القرية لاحقاً، والمدينة كلها، فيما بعد؟!

# الفصل الثاني

استيقظتُ صباحاً، وأنا أتأمّل في ذلك الحلم العجيب الذي رأيتُه، وما يزال عالقاً في رأسي. أشعّة الشمس تتسلّل من شبّاك الغرفة الوحيد، وتكشف طاولتي، ومشجب الملابس، والمروحة الواقفة، المعلّقة في السقف. لم يفقْ أحد في البيت حتّى الآن. نادية أرهقَهَا السكّر، وأصبحت - في الفترة الأخيرة - ثقيلة الحركة. أستعيد الحلم، بوضوح. رأيتُني في عمر يقارب عمر عمّي رشيد، نجلس مع شلّة من الشباب، من بينهم ماهر ومصطفى، على كتف النهر. ينفرش الفرات تحت ضوء القمر، وتعكس مياهه أضواء ناعمة، تكشف أشجار الضفاف، وترتفع - بين حين وآخر - بقبقة لسمكة، أو طرطشة لحيوان نهري، على مسافة قريبة من مجلسنا. يتربّع عمّي على حافة الحوض عند مضخّة الماء، يضع قربه طاسة ضخمة مليئة بالخمر، يعبّ منه بطاسة أصغر، ومن ثمّ؛ يناولنا واحداً بعد آخر؛ كي نشاركه الشرب، ويدعونا لنسيان الماضي، والعيش في اللحظة، فنحن نعيش مزة واحدة فقط، ثمّ ندخل عالم النسيان. يغنّي بصوت رخيم، تطرب له ضفادع النهر وزهور النفل ودوابّ الأرض اللاطية تحت الحشائش، ويضحك، وهو يروي قصصه التي تدور كلها عن مغامراته النسائية، ويخبرنا بوجه صاف يعكس نور القمر المعلق في السماء: الحياة قصيرة، وينبغي أن نستمتع بها، وإن الله لن يعاقبنا على نزوات صغيرة، نمارسها. وما أتذكّره من الحلم أن وجه عمّي يتغيّر بين برهة وأخرى، يصبح عجوزاً بملامح، تشبه الموت، لثانية، بعدها يسترجع رواءه، فيصبح شاباً مضيء الوجه. أفكّر بالمناسبة التي دعت الحلم للورود إلى منامي، ولماذا عمّي بالذات. ترتفع من الشمال قذائف كاشفة في الأفق، نراها تتوهّج دقائق، وتضيء الصحراء البعيدة؛ لتخرّ ببطء مثل أشباح مرعبة، يتبعها دخان أبيض، ويقول واحد من الجالسين: هؤلاء أميركان، يطلقون من معسكراتهم قنابل مضيئة في السماء. هم يرصدون الوحوش، وتحلّق بومة على سطح الماء، وترتعش قصبة بردي يانعة في المسيل. يقودني الحلم من مشهد إلى آخر. أتذكّر ذلك بوضوح. أقف عند باب المخزن الذي بنيناه لخزن التبن قرب بيتنا، وأستطيع رؤية عمّي من خلال الباب المخلخل، الموارب، وهو ممدّد على سرير من خشب جنب الجدار، يقف

فوقه رجل من أهل القرية، لم أتبيّن ملامحه، لكنه يشبه الدفّان مصلح، وكان عمّي عارياً، والرجل يصبّ الماء الساخن على جسده. رائحة نفّاذة، لم تزل تعبق بأنفي هي رائحة الموت المختلطة بالبخور والكافور، وحولي جمع من الرجال يتأهّبون لتكفين عمّي، ما إن يخرج من تحت يدي المغسّل، وفي أذنيّ، عويل للنساء المجتمعات في حوش البيت.

الحلم - بما فيه من تفاصيل غير مترابطة - يقودني - مرّة أخرى - إلى موت عمّي. لقد أصبحت الذاكرة أشدّ وضوحاً وتركيزاً بعد السنوات التي قطعتُها، وأنا أعبر الخمسين راكضاً بين الأحداث. لماذا أتذكّر ذلك بعد أن مرّت عقود على تلك اللحظات، التي تأتي غائمة أو مختلطة، في فترات الغمّ واليأس، غير أن فيها شواخص، لا يمكن نسيانها؟ استعادة الطفولة تحمل في ثناياها رسالة غير سارّة، هي - ربّما - تقول إن ما نعيشه في الحاضر موجع، ويحمل المرء على الهروب نحو الماضي، خاصّة إذا كان ذلك الماضي ملوّناً، هادئاً، على قدر كبير من الرومانسية والبراءة، براءة الموجودات الساذجة والأفكار الطفولية، والمناظر الساكنة غير المهدّدة لكيان الفرد، وهو ما كنتُ عليه في ذلك اليوم، اليوم الأول لدخولي المدرسة. لم يكن عمّي موجوداً ذلك اليوم في ذاكرتي. كنتُ أرتدي دشداشتي البيضاء المصنوعة من نسيج البوبلين، منتعلاً حذائي الصيفي البسيط، وكان مصنوعاً من البلاستيك، ولا أستحضر صورة الشخص الذي رافقني إلى المدرسة، وقد يكون أخي الكبير مصطفى، أو ابن عمّي، أو خالي، ممّن يكبرونني في السنّ، ويدرسون في الصفوف المتقدّمة في مدرسة المعرفة الابتدائية التي تقع في شمال القرية. كيف لي أن أستعيد أحداثاً، جرت قبل خمسين سنة، في تلك البقعة الخضراء المحشورة بين قوس الصحراء البعيد والنهر المحاط ببساتين النخيل وأشجار الغرب والطرفاء والأثل؟ بالتأكيد كان موت عمّي هو المحرّك لاسترجاع ذلك الماضي، موته الغريب والمفاجئ، والمصير الفاجع لجسده الذي تركناه عند المقبرة. أصابعي المرتعشة تريد خلق ذلك الكيان من جديد، لكنّ؛ عبر الذاكرة، وعلى مساحات افتراضية، علّ ما فات وانقضى يمكن استعادته مرّة أخرى، من أجل أن لايموت، مثلما مات عمّي وجدّي وأبي وجدّتي ميّاسة وآلاف الأشخاص غيرهم، في تلك البقعة الزائلة.

الوقت كان بداية الخريف. الهواء عذب. غسلتْ أمّي وجهي بمياه البئر، ونشّفته بثوبها الكدري الأزرق، وكنتُ كمَن خرج من عتمة البيت إلى فضاء العالم الخارجي الساحر، كمَن خرج من بئرنا المظلمة التي تغور في الأرض

جنب بيتنا الطيني خلف النخيل. هكذا أتذكّر ذلك اليوم. الطريق إلى المدرسة يخترق بستان نخيل حمادي، والنخيل محمّل بعذوق التمر، مئات الأشجار الصغيرة والكبيرة تُظلّل رؤوسنا، وكنتُ أسمع طيور الفاختة تهدل في أعشاشها، وأرى الزنابير الصفر والحمر تتنقل بين التمور ذات الرحيق العسلي، وكانت أرض البستان سبخة، تتبعثر فيها بقايا السلّ العتيقة التي أزيلت منذ الربيع من السعف، وتساقطت حول سيقان النخيل الضخمة. وبعيداً عن بستان النخيل، كانت الطيور تحلّق في سماء صافية، سماء الصباح، وما يزال عالقاً في أذني نهيق حمير آل طه، وثغاء نعاج بعيد قادم من التخوم الخضراء. أرى ذلك الزمن رغم المسافة الطويلة بيني وبينه، أراه بوضوح، كما لو كنتُ أضعه مثل شريحة صغيرة تحت عدسة مايكروسكوب، يكبّر التفاصيل مئات المرّات. الزمن كان بطيئاً جداً، والسماء ثابتة، والهموم بعيدة. كنتُ أعتقد أنني نسيتُ تلك المرحلة من حياتي في خضم السنوات القاسية التي مرّت على جسدي، إلا أنني أكتشف - الآن - أنني واهم، فلا شيء يختفي من أرشيف الشخص، إلى أن يغيّبه الموت. قصّة تخلق قصّة، وتفصيل يعقبه آخر، الروائح، الطعوم، الأصوات، الحوارات، وكأنها مختبئة في طيّات الهواء، وتنتظر السقوط على الورق؛ كي تتجسّد في كلمات وسطور وصفحات. الأشياء طازجة، لها مذاق مختلف، مذاق طفولتنا ودهشة عيوننا، وهي تعيش في ذلك القوس المحصور بين النهر والصحراء.

نعم، كان القبّر يطير في الحقول، فوق مزارع الذرة وبقايا الحصاد. قشور البيض العتيقة تندسّ في التراب. يقترب منّا - أحياناً - زنبور أصفر هائج، فنتفاداه بأيدينا. الغربان تطلق أصواتها ناعبة فوق سعف النخيل. بقر يخور، وراع يغنّي في الأفق البعيد، وصوت مزمار يترجّع مع هواء الصباح. يظهر ثعلب قرب المستنقع مثل نقطة متحرّكة، ثمّ يغيب، أرعبه - ربّما - نباح بعيد لكلب. بدأ طلاب المدرسة يأتون من قرى نائية راكبين حميرهم، يلوّحون بعصيهم المصنوعة من جريد النخيل. جدّي يمتلك خيزرانة ناعمة، يستخدمها - أحياناً - لضربنا على ظهورنا. تركتُه مستلقياً في الربعة، يمتصّ مشربه بلذّة، وينفث الدخان إلى الفراغ. كنتُ أحلم بالكُتُب الملوّنة والأقلام والدفاتر وفكّ الحروف، وأحلم بدخول حياة ثانية، تختلف عن حياة البيت. سأنتقل من ظلمة البيت إلى فضاء المدرسة والقرية والصحراء والسدّة والنهر.

خرجنا من غابة نخيل حمّادي، وانفتح أمامنا الطريق الذي يقودنا إلى

المدرسة. يمرّ عبر المستنقع، والمستنقع يكتظّ في وسطه بالبردي، وكانت نفاشات شجره تتطاير أمام أنوفنا في الهواء الصباحي المحمّل ببرودة الخريف. إلى اليمين، مستنقع، تسبح فيه حذّافات الماء والدجاج البرّيّ أسود الريش، وإلى اليسار، غابة البردي التي قيل لنا إنها تكتظّ بالأفاعي والأسماك ذوات الشوارب، والبطّ البرّيّ والغريريات المتوارية، ولا تظهر سوى في الليل. وفي أحلامنا أيضاً. سمعتُ من جدّتي ميّاسة كثيراً من القصص حولها، وكانت حكايات صيّادي دجاج الماء ما تزال عالقة في رأسي. ومن خلف المستنقع، إلى الشمال، تبين الصحراء مثل سجادة رمادية غامضة، تثور فيها عواصف مفاجئة ضئيلة، تستمرّ دقائق، ثمّ تهمد، ولا يبقى سوى السراب. كثيراً ما رأينا قوافل البدو، وهي تجوب الصحراء مع الجمال السائرة بهدوء، فيكون المنظر، كما لو أنه خطّ أسود متحرّك يتضاءل شيئاً فشيئاً حتّى يختفي. الطريق الدولي الذي يربط العراق بسورية والأردن، لم يوجد بعد، لقد أشيد - بعد ذلك - بعشرات السنين، كما أخبرني أخي مصطفى. قادنا الدرب الضيّق بين ضفّتي الماء نحو تجمّع صغير من البيوت، دكّان زابط المضحي، وبيت كامل أبو الغزلان، وبيت فزاش المدرسة حفاد العيد، وتلك البيوت تسبح بفيض من خضرة النخيل والتوت والبرتقال والليمون والتين والمشمش.

الأولاد يأتون من الجنوب والغرب والشرق والشمال، يمشون، أو يركبون حميرهم، يرتدون دشاديشهم الكالحة اللون، بعضهم يحمل العصي للدفاع عن النفس أمام هجمات الكلاب. بعضهم ينتعل أحذية رغم الحرارة المقبلة، وبعضهم حفاة، بينما فضّل البعض الآخر انتعال الأحذية البلاستيكية، مثلي أنا، والجميع يتّجه إلى فناء المدرسة. أين كان عمّي رشيد في ذلك الصباح؟ هل كان يترصّد الفتيات، في حقل من الحقول؟! أم رحل إلى المدينة مع الباص الخشب لجلب أغراض للبيت؟! أم يتعلم السياقة في مكان بعيد؟! انعكاسات الضوء تتلاصف على مسطحات المستنقع، ورائحة البرتقال تقترب منّا، كلّما توغّلنا في محيط البيوت، ووشوشات التلاميذ تتصاعد، وغناؤهم يحمله الهواء مثل فقاعات مائية، بينما ينطلق حمار - فجأة - بصوت نشاز، يفجّ هدوء الصباح. لا أتذكّر متى أنشئت المدرسة، أكيد قبل أن أولد، إذا خرّجتْ عدداً من الأجيال قبلي، وملأت حكايات معلّميها وحفلاتها وطلابها مجالسنا الليلية وأسماعنا منذ أن وعيتُ على الحياة. المدرسة بناء طيني ضخم، أو هكذا رأيتُه في ذلك الصباح. قربه تنتصب شجرة يوكالبتوس عالية، يخيّم قسم من أغصانها على السطح، وتعكس أوراقها الخضراء - دائماً - وهج الشمس، فتحمرّ تلك الخضرة قليلاً،

وتبدو مثل نصب عملاق، يطلّ على البيوت والبساتين والسواقي والسدّة البعيدة التي تلوح مثل أثر أبيض، يحيط بكامل القرية من الجنوب. وفي تلك الأثناء، بدأ توافد المعلّمين، جاءوا على دزاجاتهم الهوائية من المدينة البعيدة، عبروا النهر بالقارب، اخترقوا الحقول، وهو ما يفعلونه كل يوم قبل أن يقزر بعضهم المبيت في المدرسة، لكن ذلك حصل بعد سنوات من هذا الصباح.

تتكوّن المدرسة من ستّ صفوف، كلها مبنية من الطين، كل صفّ يمتلك شبّاكاً من الخشب مفتوحاً على الفضاء، وكان صفّي يقع في الوسط، وبتجاورها الدائري مع بعضها، شكّلت فسحة واسعة؛ حيث وضعت هناك طاولة زرقاء من الخشب، وشبكة بيضاء تتوسطها، وقيل لي إنها طاولة لعبة المنضدة. الكرة البيضاء والمضارب ذات المقبض البلاستيكي، وبنطلونات المعلّمين، والدرّاجات الهوائية، وذلك العدد من البشر يجتمع في مكان واحد، كله رأيته حلماً ملوّناً، زفّه الصباح إلى عقلي. بدت الدنيا لي واسعة جداً في ذلك الصباح. في الساحة أمام المدرسة ملعب لكرة السلّة، وعلى حافة الساحة مراحيض قديمة ذات باب خشبي متهالك. مراحيض المدرسة هي الوحيدة في القرية، فمَن يرضى بالذهاب إلى ثقب في الأرض؛ لكي يفرغ حاجته كما يقول عمّي فاضل. كان الخلاء الواسع مراحيضنا حتّى غزتنا الكهرباء بعد ذلك، بعشرين سنة. الطلاب، صغاراً وكباراً، يتجوّلون في الساحة دون هدف، والبعض يلعب، أو يطارد حشرة ما، وجميعهم يلبسون دشاديش صيفية مشسخة بعصير التمر، أو عصير ثمار التوت والرمّان.

عالم واسع، أنتقل إليه فجأة، وأحدّق فيه، بحذر وخوف، فثمّة صرامة المعلّمين البادية على وجوههم، وهيئة المدير حامد الصخرية بوجهه المستدير وشعره الخفيف الذي بان فيه الصلع مبكّراً. لم يكن عمّي موجوداً في ذلك الصباح، أول صباح لي في المدرسة، كما لم تحضرني ملامح أبي هي الأخرى، وقد نسيتُ تفاصيل كثيرة من ذلك اليوم، ببساطة؛ لأنه مضى عليه أكثر من خمسين سنة، كما قلتُ. الحادث الذي جرى لي، كما لو جاء؛ لكي يلوّث متعتي في هذه الحياة كان هو السبب وراء حضور عمّي إلى عقلي، في حينها. أوقفونا، نحن التلاميذ الجُدُد، بصفّ طويل أمام باب مفتوح، قالوا إنه يفضي إلى غرفة المدير حامد، وكان فرّاش المدرسة هو مَن ينظّمنا في الصف. يدخل الطفل؛ ليراه المدير، وكان يمسك دفتراً ثخيناً وكبير الحجم، لم أر مثله في حياتي، ويسأل التلميذ عن اسمه؛ ليضع إشارة

في دفتره أمام الاسم. جاء دوري، فشعرتُ بالرعب، أحسستُ كما لو أنني سأدخل إلى وحش في الغرفة، يلتهمني بغتة. المدير يجلس وراء طاولة خشب واسعة، تتبعثر عليها أقلام ومساطر، وثقة عصى من الرمّان ملقاة على المكتب، وكان شبّاك الغرفة واسعاً، يطلّ على الأفق، ويبرز في البعيد بيت كامل أبو الغزلان محاطاً بالنخيل وأشجار التوت والتين والبرتقال. نحلة تعبر من الباب بغتة، أسمع رفيف أجنحتها، تنشّها يد المدير بعصبية، فتتّجه نحو الشبّاك، وتعبر النافذة إلى الضوء. النحل رفيق دائم في هذه الأوقات من السنة، يشاركنا ماءنا، وتيننا، وهواءنا، وغرفنا. هل عندك قمل في رأسك؟ فاجأني المدير بسؤاله، ونظرتُ مرتبكا إلى النافذة؛ حيث غابت النحلة في الهواء. لا، أستاذ. دقّات قلبي تطرق كصوت مضخّة مياه. أشر على اسمي بقلم حبر مذهّب، ثمّ قال لي باسماً: سلّم على عمّك رشيد. اذهب إلى الصف الأول. خرجتُ من الغرفة، كما لو أنني أخرج من بئر مظلمة، وتساءلتُ مع نفسي من أين للمدير معرفة عمّي رشيد؟ ورحتُ أهرش شعري بقوّة حين أصبحتُ في الساحة، وقال لي الفرّاش حمّاد امض إلى الصف الأول هناك، وأشار إلى الغرفة الوسطى من المدرسة، فهرولتُ راكضاً نحو الصفّ. معظم الوجوه لا أعرفها رغم أننا من القرية نفسها، أو القرى المجاورة، وشعرتُ بالحنين إلى أمّي، إلى بئرنا، إلى فسحة المكان التي تقع خلف البيت، وتتطاول فيها سيقان الذرة، وتطير فوقها القبّرات، إلى رائحة الجراد الغامضة التي تحتفظ به جدّتي مياسة في كيس من الجوت وسط تلك الغرفة المعتمة.

ذلك اليوم، ذلك اليوم، أتذكّر وجوههم بصمت، رفاق مدرستي. مَن يبيعون قبضات السمسم لزملائهم بخمسة فلوس، ومَن يقايضون ورد الجوري بالورق غير المستعمل، ومَن يبيعون حبّات الليمون الزرقاء، ومَن يقايضون التمر الخستاوي بالأقلام، أتذكّر دشاديشهم المتسخة، ووجوههم السمر الملوّثة بالمخاط، وأرجلهم الموحلة، ولهاثهم، وهم يركضون من الصفّ الأول حتى ساحة كرة السلّة، والذين يخرجون من المدرسة؛ كي يطمئنّوا على حميرهم المربوطة في قضبان الشبابيك الخشبية، ومَن يتسلّلون من الفناء الخلفي إلى بستان الفرّاش حمّاد؛ كي يسرقوا البرتقال غير الناضج، وقبضات من التمور الزهدي الأصفر الرائب للتوّ. في الصمت السابح فيه الليلة، ترد صورهم واضحة، وكنتُ مثل مَن يشاهد شريطاً ملوّناً على جدار، أو شاشة، ثمّ يمسك بقلمه؛ ليدوّن ما يراه على ورقة بيضاء. رأيتُ المعلّمين يقفون في ساحة الكرة الطائرة، يرقبون الفتيات الواقفات في البيوت الطينية البعيدة، ويرسلون لهنّ إشارات التحية

والموذة؛ حيث يردّدن لهم التحية، برفعة من ملافعهنّ المزيّنة بقِطَع الذهب، وهنّ يقفنّ على تنانير الخبز، أو وَهُنّ راجعات مع براميل المياه المجلوبة من الساقية. كانت وجوههنّ تعكس بياضها وهج شمس القرية، ورأيتُ مَن يمتطي الدزاجات في الساحة للتمرين على الركوب، ورأيتُ الضفادع تتقافز من وراء أجمات الشوك والحلفاء، وشاهدتُ أرنباً في الطريق قرب المستنقع، وكلاباً سائبة تتقاتل على أنثى، وطيور الزرازير، وهي تحلّق في السماء طائرة في الفضاء الممتدّ بين الصحراء والنخيل المحيط بضفاف الفرات. وكان عمّي رشيد غائباً عن رأسي، لا تحضرني عيناه، ولا شعره، ولا لون دشداشته، ولا نبرة صوته. ورأيتُ البيوت التي من طين في تجمّع آل ساعي، وهي تتوهّج تحت أشعّة الشمس، وأمامها تقف الأبقار والحمير، والعشش المصنوعة من سعف النخيل، وكانت تضمّ بسط الجلوس ومساجد الصلاة وأباريق التشطيف والوضوء، ورأيتُ زابط المضحي يسوق حماراً، يحمل البضاعة متّجهاً نحو دكّانه الكائن أمام بيت كامل أبو الغزلان، ورأيتُ معلّم التربية الرياضية الذي كان يلعب المنضدة مع زميله خوشابا القادم من مدينة نائية، وهو يقضم بزر الرقي، ويقذف القشور تحت رجليه، ورأيتُ المدير حامد العرميط يتجوّل بين الصفوف ماسكاً عصاه الرمّان، يتبعه الفرّاش حمّاد، وهما يفتّشان عن الأماكن المتّسخة في زوايا المدرسة. الجميع يحتفل بالحياة، بهذه الشمس المتلألئة في الأفق الشرقي، فوق البيوت الطينية وذرى النخيل وحقول القمح المحصودة، وتلهث مثل ذهب تحت الأشعّة، وفوق البقر والحمير المحفّلة بالحنطة، وهي تتّجه إلى المطحنة. ذلك كله العالم الجديد على عينيّ، رأيتُه بصمت، وأنا أقف حائراً أمام باب الصفّ في أول يوم دراسي في مدرسة المعرفة قبل أكثر من خمسين سنة.

ثمّ جاء صوت غريب في أذنيّ، صوت مغرّد مثل بلبل صباحي، يقف على سعفة نخل، انطلقت صافرة حادّة من فم الفرّاش حمّاد. قال لنا معلّمنا خوشابا، وهو ينفض يديه من غبار الطباشير، إنها فرصة، العبوا في الساحة حتّى تسمعوا الصافرة الثانية، ثمّ عودوا إلى مقاعدكم في الصفّ. المقاعد منظرها جديد على عينيّ، تتكوّن من سطح طويل عالٍ، توضع عليه الكُتُب والدفاتر والأقلام والمساحات، ومن مقعد منخفض، يوازي السطح العالي، نتقاسمه كلّ طالبين سوية، وللرحلة خزانتان لحفظ الكُتُب، لكل طالب واحدة. بيتنا لم يكن فيه كرّاس، أو رحل للجلوس، لم نعرف هذه الأشياء، لذلك شدّت انتباهي، وأنا أغادر في الفرصة بعد أن تأمّلتها طويلاً. وخرجنا نتراكض مثل سخول في ربيع دافئ. وخرجتُ أنا راكضاً دون أن أعرف

لماذا، وإلى أين، فثقة ضجّة في الساحة، وتلاميذ يتقافزون هنا وهناك، وهواء ناعم يداعب الوجوه الغضّة. وكنتُ أركض وراء تلميذ من صفّي، لا أعرف لماذا. أنا خرّ، هذا كل ما أحسّه، وسط الفراش الملوّن الطائر حول المدرسة، ووسط هديل الحمام في شجرة اليوكالبتوس، وأزيز النحل، والأفق البعيد الذي يلامس ضفاف النهر. خرّ بعد أن خرجتُ من شرنقة البيت الطيني بغرفه المظلمة.

حين أعود إلى أولئك التلاميذ أشعر بالألم، ترتجف أصابعي، وهي تكتب عن حياة، لم تعد موجودة سوى في الذاكرة. لم أكن أتخيّل أن الدنيا يمكن أن تتغيّر بهذه الشساعة خلال عقود فقط، كما أن استعادة التفاصيل مهمّة شبه مستحيلة. ورغم أنها شبه مستحيلة، لكنها ظلّت تلحّ على نفسي، وتطرق دون هوادة. حين أنام، أو أتناول الطعام، وحين أشاهد الأخبار في التلفاز، أو أقرأ ما يجري في العالم. زوجتي نادية كثيراً ما شاهدتني صافناً، بعينين ثابتتين، تنظران إلى نقطة بعيدة، لا تراها، وكثيراً ما سألتني عمّا يدور في رأسي، لكنني كنتُ - دائماً - أتجاهل سؤالها، هي لم تعش تلك الأحداث، ولن تفهم الأحاسيس الكامنة وراءها، لهذا أكتفي بالدمدمة غير المفهومة، أو الصمت، فتتركني جالساً في وحدتي وتأمّلاتي، ثمّ تنصرف لشؤون البيت. أولئك السخول الذين رأيتهم يتقافزون ذلك اليوم، في فسحة اللعب، نصفهم رحلوا عن الدنيا، وبمصائر محزنة، ولم أعد أعرف عن الآخرين سوى أخبار ضئيلة. اختفوا، غابوا مثلما غابت المدرسة والقرية والصحراء والبقر والنخيل والطرق العتيقة المسيّجة بالعاقول والشوك. غزو الوحوش للقرية، وهروبنا منها بعد أن تركنا جثة عمّي في المقبرة، أهال على تلك الحياة أطناناً من التراب، ودفنها في جوف الأرض.

أجل، أتذكّر أنني انطلقتُ مثل صاروخ باتجاه الطريق المؤدّية إلى المستنقع، خفيفاً، خرّاً، مندهشا من سعة المكان، ومن الفضاء المشمس، وشعرتُ - فجأة - بارتطام هائل، بشيء ما صلب، يتقدّم نحوي. ارتطام جعل الشرر يتطاير من عيني، والدم ينفر من أنفي. وقع الارتطام على الأنف تحديداً، وانتبهتُ إلى ظلّ رجل فوقي، مثل صورة مغبّشة، والمعلّم صالح ينظر لي بوجه مصفرّ خائف. تجمّع الطلاب حولي، وكنتُ غائب الشعور، لا أفقه ما يجري لي، أو حولي، ثمّ امتدّت يدان قويّتان، حملتاني من تحت إبطي، ووضعتاني على القضبان الأمامية للدرّاجة، ذلك كله جرى بثوان خاطفة، يصعب وصفها. انحشرتُ بين جسد المعلّم صالح ذي الوجه الأسمر المرعوب ومقود الدرّاجة، وانتبهتُ - بعد لحظات - أننا نسير بسرعة

خاطفة في الطريق الترابي الذي يقود إلى المستوصف، وكانت قطرات من الدم تسيل على شفتي وحنكي. وإذا كانت المدرسة واحدة من مداميك القرية ذلك الحين، كونها تشكّل نقطة جذب لتحصيل علوم جديدة علينا، ويجتمع فيها كل موسم أكثر من عشر معلّمين، بعضهم جاء من مُدُن بعيدة، وحلّت - قبل أن أولد - محلّ مدرسة الملا علي، وكان يديرها بالطريقة القديمة لتعليم الأولاد القراءة والكتابة، فالمستوصف يشكّل المدماك الثاني في الزمن الجديد للقرية. التداوي بالأعشاب، التعازيم وقراءة الآيات القرآنية، حُجُب السّحر، وهي ما كانت منتشرة بشكل واسع بين البيوت والأسر، ذلك كله بدأ ينسحب شيئاً فشيئاً، سنة بعد سنة؛ ليصبح المستوصف بديلاً حتّى لدى أشدّ المتعصّبين للطّبّ القديم.

بناية المستوصف الطينية تتكوّن من غرفتين فقط، الأولى هي مكتب المضمّد عبد، وكان الجميع يسمّيه الدكتور، والثانية أشبه بالمخزن، تتراصف فيه خزانات حديدية، رُصّت في داخلها أنواع من الأدوية والأبر والقطن والمراهم واللفافات والكارتونات، لكنه خصّص للنساء فقط. عبد يتنقّل بين بيوت القرية، على دزاجة نارية ضخمة من نوع جاوة، وجدناها مركونة أمام المستوصف، تفوح منها رائحة الزيوت والنفط. طاولة المضمّد من الخشب العتيق، تناثرت عليها أدوات غريبة، مقصّات، ملاقط، سرنجات، قطن، عبوة ضخمة من سائل أحمر، يسمّونه اليود، وهو يُستخدم لتعقيم الجروح، وفي زاوية من الغرفة، تستقرّ صوبة علاء الدين لتسخين الماء، وتعقيم الأبر والملاقط. ورأيتُ نفسي أقف وسط الغرفة، والمعلّم صالح يشرح للمضمّد الإصابة حين ارتطم أنفي بالمقود، وثمّة رجل عجوز، بلحية بيضاء، يجلس على أحد الكراسي، ويحمل في يده مسبحة طويلة ذات حبّات خضراء، تكرّ بين أصابعه دون توقّف، وبدأ الحديث مع المعلّم قائلاً: هذا الصبي يشبه رشيد بن حميد، هل هو أحد أقربائه؟ كلا، إنه ابن أخيه. فاضل لا يأتيه أولاد، ورشيد لم يتزوّج بعد، هذا يعني أنه ابن حسين؟ نعم. اليوم هو أول يوم له في المدرسة، وجرى له هذا الحادث، قال المعلّم صالح بصوت مرتبك، أطفال مثل الشياطين، يتقافزون في ساحة المدرسة، فجأة وجدتُه أمامي، وحدث ما حدث. من شابه عمّه، فما ظلم، عمّه رشيد شاب طائش، رغم أنه شهم وشجاع، لكنه يحبّ البنات، عينه شاخصة نحو كل ثوب ملوّن يتحرّك. أتمنّى أن لا تكون مثله، ووجه الشيخ ذو اللحية البيضاء وعينه الزجاجية اللاصقة كلامه الأخير لي، لكنني وقفتُ صامتاً من الخجل، وكنتُ أجهل كيف يتمّ الحديث مع الكبار في هكذا أمور. وكي أصرف ذهني عن الألم في أنفي، بدأتُ أتطلّع من الباب نحو السّدّة الترابية،

ولمحتُ النسوة ينزلنَ من السّدة نحو المستوصف، فرادى، أو على شكل مجموعات صغيرة، منقّبات، لا تظهر سوى عيونهنّ، أو سافرات الوجوه، عجائز وشابّات، تتلاصف زينتهنّ تحت ضوء الشمس الساطعة. جئنَ إلى المستوصف للتداوي، لكنهنّ مليآت بالفرح والمغامرة، فالخروج من رتابة البيوت الطينية، ولقاء نساء غريبات، والمرور بشباب ورجال، يعملون في الحقول أو البيوت في الطرق والدروب، هو - بحدّ ذاته - مغامرة. مثلي أنا تماماً.

غسل المضمّد عبد جرحي، ودهن أنفي بتلك المادّة السائلة ذات الرائحة القوية، ووضع قطعة من القطن في ثقب الأنف الأيسر، وقال لي اضغط على القطن بيدك، ثمّ غادرني نحو غرفة النساء. لم يزرقني بإبرة، كما تخيّلتُ، فجميعنا يعرف في القرية - خاصّة الأطفال - أن زيارة المستوصف تعني زرق الأبر، الألم في المؤخّرة، وهو ما كان أهلنا يهدّدوننا به، إذا ما تمادينا في المشاكسة، أو عدم النوم ليلاً. الرائحة، هي ما كان يميّز ذلك المكان. رائحة لا يمكن تحديدها، لكنها تأتي مثل شبح، تأتي من لا مكان، من الماضي، من جثمان القرية، وقد دفنه الوحوش قبل تلك الشهور الصعبة التي عشناها مشرّدين. في هذا الليل البهيم، وسط المدينة الغريبة عليّ، وصمت عائلتي التي نامت في الأسفل، زوجتي نادية وولديها علي ومريم ابني أخي بشير، أشمّ رائحة المستوصف، وأرى لون اليود الأحمر، ووجوه المراجعات الضاحكات، القادمات من بيوت الطين. نعم، بعد ذلك، بعقود حتّى، كانت تأتيني تلك الرائحة بين فترة وأخرى، أتذكّرها، وهي تعصف في أنفي. رائحة اليود المعقّم للجروح والكحول المستخدم في تعقيم الأبر، ووخامة الجدران الطينية، وربّما رائحة جلود النساء والرجال الذين يلبثون ساعات في المستوصف، كانت خليطاً من ذلك كله، رائحة لم تفارق أحاسيسي.

عدتُ مع المعلّم صالح إلى المدرسة، ولبثتُ حتّى نهاية الدوام، ورجعتُ إلى البيت مع أخي الكبير مصطفى، لكنني لم أعد إلى المدرسة حتّى الموسم القادم؛ لأن عمّي رشيد أقنع جدّي بأنني ما أزال صغيراً على الدراسة، قال له اتركوه حتّى السنة القادمة، إلا أنني لم أنس تلك الرائحة، ولا وجه ذلك الشيخ النوراني بعينه الزجاجية، وعرفتُ - لاحقاً - أنه مختار القرية، محمود الخضر، ولا وجه المضمّد السمين الضاحك ورداءه الأبيض الذي يضعه فوق بنطال قماشي داكن اللون. معظم الذين عرفتُهم لم ينسوا يومهم الأول في المدرسة، وفكّرتُ أن سبب ذلك هو تلك النقلة الكبيرة بين

أفقين، أفق البيت الضيق وأفق المدرسة الواسع، مغادرة محيط أسري، لا يضم سوى عدد محدود من أعضاء العائلة، إلى محيط شاسع متعدد ومختلف، ينتمي له عشرات، وربّما مئات من البشر. خلال ذلك الخريف، عدتُ إلى حياتي السابقة، رغم رسوخ ذلك اليوم في عقلي. عدتُ ثانية إلى رتابة حياتي في محيط بيتنا الطيني. يرحل أخي مصطفى إلى المدرسة، يمضي الفلاحون في الصباح إلى تشغيل مضخّة الماء على الشاطئ، تنحدر النسوة مع بقرهنّ نحو الحقول، تنتشر الطيور بين سعف النخيل مفتّشة عن الطعام، أو لبناء أعشاش من القشّ، يمضي جدّي إلى السوق، أو إلى مضافة المختار محمود لاحتساء فنجان قهوة، عفرا جارتنا تدخل بيتها، وتخرج جامعة القمامة، وبقايا الليف والحشيش اليابس والكرب، تكوّمه على حافة الخضرة، وتشعل فيه النار، ومثل نمل بطيء، يتوغّل الناس في الطرقات الضيقة. أعود إلى استكشاف عالمي الصغير، البيت، الفسحة المجاورة، بئر الماء، وبستان نخيل حمّادي الذي لا يبعد عنّا سوى عشرة أمتار.

كان بيتنا مصنوعاً من الطين. كانت القرية في طور الطين، كما وصفتُها مع نفسي؛ حيث بزغتُ من رحم الصحراء، واستقرّتْ - هنا - على المساحات الشاسعة الممتدّة بين الصحراء والنهر. من خلال أحاديث جدّي، وجدّي كان راوي قصص ممتعاً، فهمتُ أن سكّان القرية نزلوا من الصحراء قبل عشرات السنين، في تلك الفترة، كانوا يمتلكون المواشي والحمير، لكنْ؛ دون إبل، يمضون إلى الصحاري في أيام الشتاء، وقسم من الربيع، ثمّ ينزلون إلى هذا المكان في نهاية الربيع والصيف، يترك بعضهم بيوت الشعر، ويقيم - هنا - مع مواشيه، يبنون بيوتا مؤقّتة من الأشجار، ويزرعون الأرض. هناك في الصحراء، نجد الفطر والكمأة والزهور البرية يقول جدّي. هناك الهواء صاف، والسماء قريبة، والغزلان تمرح بين كثبان الرمال، والصحراء الممتدّة من المقبرة شمالاً حتى سامراء، تجوبها قطعان الإبل. في ذلك الوقت، كانت النساء يصبغنّ شفاههنّ بالورس، ويتعطّرنّ بحبّ المحلب والسعد. أمّا اللباس الداخلي؛ فلم يعرفنه أبداً. هكذا يصف جدّي تلك الأيام الخوالي، ويعدّها سنوات خير وشهامة ونُبل، لا كما تبدو عليه الحياة اليوم من طمع وغدر وحسد وكراهية. سنة بعد سنة، عاشوا هكذا، حتى بادر البعض إلى بناء بيوت ثابتة من الطين، سرعان ما تكاثرت، وأصبح الاستقرار في القرية هو العادة، تحوّلوا من بدو رُحّل إلى فلاحين، دون أن يتركوا بعض عاداتهم القديمة كتربية البقر، للحصول على الحليب واللحم، والحمير للنقل، والكلاب للحماية من اللصوص، وطرد الثعالب

والضباع.

كان جدّي يردّد مستغرباً، ومشربه يتراقص بين شفتيه، بمرح، لقد صرنا نشتري الباذنجان والرقي والقرع من المدينة، ونُلبس نساءنا الملابس الداخلية، ونشرب الأدوية بدلاً عن قراءة التعاويذ وكتابة الحُجُب. والمرحلة الطينية كان لها خصائصها وفرادتها، لعلّ أهمّها عدم وجود الكهرباء، ثمّ عدم وجود شرطة، المدارس والمستوصفات نزلت في رحاب القرية مثل زائر غامض وغريب. أمّا الشريان الوحيد الذي يربطها بالمدينة البعيدة؛ فهو الباص الخشبي الذي أول مَن جلبه هو حسن ابن مختار القرية، وقيل إنه اشتراه من النجف، يمضي صباحاً إلى السوق، عبر السّدّة الترابية، ثمّ يعود ظهراً على الطريق ذاته. عقب ذلك الحادث بدأ الألم في أنفي يختفي يوماً بعد يوم، لكنني لاحظتُ تنفّسي، وقد صار صعباً، خاصّة من الفتحة اليسرى، بعض الأحيان، أفيق من النوم، كنتُ وقتها أنام في حضن جدّتي ميّاسة، وهي أمّ عمّي رشيد، بسبب الاختناق، ولم أكن أعرف سبب الاختناق، لكن هذه الحالة الجديدة لم تمنعني من ممارسة حياتي السابقة قبل أن أمضي إلى المدرسة في ذلك اليوم الخريفي.

وبيتنا يتكوّن من غرف عديدة، كلها مظلمة، لكن واحدة منها تجذبني - دائماً - لاكتشافها، هي غرفة حفظ المؤونة. فيها تحتفظ جدّتي بكوّارة الملح، المصنوعة من الطين، وعكّة الدبس، وكانت مصنوعة من جلد خروف مدبوغ جيداً، يعبأ بدبس التمر، ونتناول منه فطورنا، أو عشاءنا بين حين وآخر، وحين يتقادم عليه الزمن، يتحوّل إلى مادّة كثيفة، وتزداد حلاوته، بشكل، لا يُصدّق، وتحتفظ جدّتي - أيضاً - بقدر الدهن البقري، الذي ينثّ حوله رائحة زهمة كثيفة، تملؤ الغرفة. وجنب ذلك كله محمل التمر، وقد ركمت عليه خصافات من التمر، يسيل منها العسل، ويتساقط على الأرض الترابية. كيف حضر عمّي رشيد، بشخصه، هذه المزة، لا عن طريق الكلام فقط؟ جدّي في المدينة، وجدّتي ميّاسة تجلس في الفيء قرب الجدار، تغزل الصوف على مغزل خشبي، وكنتُ - أحياناً - أسمعها تغنّي أغان بدوية، لم أفهم كلماتها، لكن صوت جدّتي كان جميلاً وساحراً، يستنزل الدموع بكلماتها المؤثّرة حول فراق الحبيب والموت والرحيل، وجدّتي ميّاسة هي الزوجة الثانية لجدّي، ولم تلد له سوى عمّي رشيد، وقيل إن لها ابناً من زوجها الأول الذي مات بمرض الكوليرا. ولأنني لم أجد ما أفعله قرب جدّتي، مضيتُ إلى غرفة المؤونة. العتمة تجذبني، السكون عميق، فأغوص في طبقات من المياه السرابية ذات اللون الغامق. الفضول

ينخسني لمعرفة بيتنا وأسراره. أجلس جنب المحمل. رغم أن أمي قدّمت لي الخاثر مع الخبز صباحاً، لكنني كنتُ من عشّاق التمر. أحياناً تضعه لي جدّتي ميّاسة في صحن من الفافون جنب الفراش مع طاسة من ماء الزير الصافي؛ لكي أتناول منه إذا ما استيقظتُ في الليل. لم أعد أتذكّر متى بدأتُ أنام في فراش واحد مع جدّتي ميّاسة. ولماذا كنتُ أترك أمّي، وأنام معها؟

أمدّ يدي إلى فم الخضافة المفتوح، وأخرج كتل التمر الزهدي، وألتهم على مهل، وأسمع من خلال العتمة مكنسة أمّي الخوص، وهي تكنس حوش البيت، وأسمع أصوات الدجاج في الخارج، ودقّات جرس غنم، يرنّ في حقول بعيدة. رأيتُ عمّي بشكل واضح، ومحدّد، في تلك الظهيرة، ظهيرة من ظهيرات الصيف، فقد جلستُ في الغرفة المظلمة، وكنتُ أرى الضوء المتدفّق من طاقة عالية في جدار الغرفة، يكشف عدول الذرة والطحين والزرّ، وذلك الكيس الأبيض القماشي الذي طالما ملأني بالرعب، الكيس المليء بالجراد المحمّص، وهو ما كان جدّي يحبّ قضمه بين وجبات الطعام. ذات يوم، جلبه جدّي، من مكان ما، ربّما من السوق، أو من أحد معارفه في القرية، وقال لنا إنه يذكّره بسنوات القحط حين كانوا بدوا يقطنون في الصحراء، ويضطرون لأكل الجراد. تخيّلتُ وسط تلك العتمة تلك الأجنحة الشفّافة، والأرجل المعقوفة، واللوامس الرفيعة، والرأس بعينيه الكبيرتين اللتين لا يعرف الشخص، إن كانت تحدّق به أم تنظر إلى الهواء، وقفزاتها المفاجئة حين تكتسح الحقول، وتقضي على السنابل والأوراق والنفل والجت والبرسيم بقطعانها المليونية القادمة من الصحاري. فكرة وجودي مع الجراد في تلك الغرفة بعثت الرعب في داخلي، فخرجتُ من الباب خائفاً، واتّجهتُ إلى الحوش، ومن هناك، اجتزتُ الباب الرئيس المصنوع من الخشب، ومضيتُ إلى الفسحة المجاورة للبيت، المحصورة بين غابة النخيل وبيتنا. اتّجهتُ نحو البئر. أكثر ما جذبني للمدرسة، وجعل منها حلماً، يراود خيالي، هو أنني سأتخلّص من الوحدة التي كانت تعاقرني في النهار، ولا أجد ما ألتهي به، في عالم ضيّق، يكرّر نفسه يوماً بعد آخر. اجتزتُ الباب، وسمعتُ أمّي تقول: اذهب للّعب جنب البئر، ماذا تجد في تلك الغرفة المظلمة؟. ولم أردّ عليها. البئر، سوّره جدّي بأخشاب من الصفصاف، وترك مجالا ضيقاً للدخول. الشمس في الأفق وظلال النخيل انحسرت عن الطريق الترابي الذي يتّجه إلى الجنوب، نحو السّدة الترابية.

البئر رمل رطب، يتلاصف ماؤه، وتطوف عليه بقايا تبن، وتنقّ فيه ضفدعة، لا أراها من مكان عميق، أصيح كعادتي في فم البئر جراد جراد، فيجيء الصدى فخماً مرعباً جراد جراد، وأشعر بالخوف، وأتصوّر أن جنّياً مثل الذي كانت جدّتي تحدّثنا عنه، سوف يظهر من الأعماق. وجهه أسود، ينتأ من فمه نابان أبيضان، يشبهان نابي الكلب، وشعره مفلفل وطويل، وتفوح منه رائحة كريهة، كونه اعتاد على التهام الأولاد الصغار والفطائس، وفي أذنيه قرطان من الزمرّد، وصوته يمكن حتّى للجالس في المقبرة أن يسمعه. الجنّي يختبئ في البئر دائماً، كما تقول جدّتي. من الشمال، تبرز لي المدرسة، وشجرة اليوكالبتوس البعيدة المعرّشة على سطح المدرسة، وأسفُ؛ لأنني لم أعد طالباً هناك، وأنا أتخيّل أزهار الجوري وثمار الليمون الخضراء وفاختات النهار في نخلات الفرّاش حمّاد ودرّاجة المعلّم صالح ذات الجرس النحاسي ونهيق حمير التلاميذ، وهي تتقافز خلف جدران المدرسة.

جاء عمّي من الدرب الترابي لابساً دشداشته البيضاء، والتماعات شعره، تُرى من بعيد، وكان يمشي على مهل، وتوقّفتُ أنا جامداً على حافة البئر. ها هو عمّي، إذنْ. حضر من طيّات عشرات السنين، وتجسّد لي صورة واضحة، ما أزال أتذكّرها بوضوح. عمّي، وهو محاط بهالة الماضي الذهبي الذي دُفن تحت ركام الأحداث. تعال معي، سنستقبل جدّك، خاطبني بودّ. الباص الخشبي الذي سيجلب جدّي من السوق كان أعجوبة، جسده من الخشب، يتألّف من أربعة أحواض، واحد يجلس فيه السائق، ويستوعب شخصين آخرين، والثاني للرجال، والثالث للنساء، أمّا الرابع؛ فللأطفال وبائعي الدوابّ والمعوقين. سطحه كان من الحديد الأملس، يحيطه من الجهات كلها سور واطئ من الحديد أيضاً، وكثيرا ما وُضعت فوقه الأكياس الثقيلة والخراف والبشر الذين فاضوا على الأحواض في الأسفل. ولكون جدّي محطّ تقدير من السائق، فهو عادة ما يُجلسه في المقعد المجاور له؛ حيث يضع أغراضه أمام رجليه، وعادة ما كان جدّي هو المتحدّث دائماً، فهو يجيد الكلام، ويَسحر سامعيه، وفي المرّات القليلة التي رافقتُ فيها جدّي إلى المدينة، كنتُ أجلس جنبه، أو في حضنه، ورائحة التبغ العالقة في لحيته البيضاء تهبّ من طيات السنين، ولم تزل صورة تلك السفرات مع جدّي متشبّثة بذهني حتّى اللحظة.

سيجلب جدّي الحلاوة الطحينية، والرقّي، والتبغ، والطرشي، سيجلب السكّر والشاي والحناء لجدّتي ميّاسة، وحَبّ المحلب لأمّي، وسيجلب

باقات الفجل، برأسه الطويل وأوراقه ذات الطعم الحادّ، ولن ينسى كيس النعناع الذي يشتريه بعشرين فلساً، ويحتوي على أربعين نعناعة. سيجلب جدّي معه، مثل كل مرّة، أخبار المدينة، ووصايا البزّاز قريبنا أحمد الزيدان لأهل القرية، وآخر الغرائب التي شاهدها هناك. العلبة المربّعة التي تعرض بشراً يتقافزون، ويسمّونها التلفزيون، والسجائر الجاهزة للتدخين، والسيّارة التي ترشّ الشارع بالماء، ومكبّرات الصوت التي ترفع الأذان فوق المدينة، ودولاب الهواء الذي يحمل الأطفال إلى السماء. ستظل سفرة جدّي حديث الليالي مع أقرانه لأيام قادمات.

سرتُ وراء عمّي حافياً، واتّجهنا نحو السَدّة الترابية. سيمرّ الطريق نحو السَدّة ببيت حمّادي وبيت عبدالله، ثمّ غابة النخيل، ثمّ يقترب من المستوصف، ومن هناك؛ يصعد قليلاً نحو السَدّة؛ حيث سيقف الباص، وينزل جدّي. طريقنا الضيّق يمرّ من أمام بيت حمّادي، زوجته عفرا أحرقت أمام بيتها كدساً من التبن القديم على جانب الطريق، خلف الكدس تمتدّ بقايا الحقل المزروع بالطماطم والقثاء والباذنجان. بعد ذلك، يأتي حقل الجت والبرسيم، وصفّ التين البعيد المزروع على حافة الساقية. بدأ عمّي يدندن مع نفسه بأغنية بدوية لشاعر، اسمه عبدالله الفاضل حول النساء والرحيل والحبيب وجبل مكحول وذئاب الليل العاوية، ألتقط منها كلمات قليلة، وتضيع عليّ كلمات، لكنه صوت شجي، كان يخرج من قلبه، به بحّة خفيفة، تشبه بحّة جدّتي ميّاسة. وكنتُ أتبعه مثل ظلّ. حاذينا الكومة السوداء المدخّنة، ودخلتُها دون أن أنتبه، فوجدتُني أنحدر في نار فجأة، وشبّت في قدمي آلام لا تُحتمَل، فصرختُ بكل ما أملك من صوت. قفزتُ دون وعي إلى عمّي، وتشبّثتُ بدشداشته. لقد احترقتُ، يا عمّي، قلتُ له. خرجت عفرا من البيت، وقالت لي بشماتة: لماذا دخلتَ النار؟ هل أنت أعمى؟ ألا ترى بقايا الدخان في الملّة؟ أصابعي تحترق، ساقاي يدبّ فيهما جيش من العقارب، وصوتي يتخشّب في فمي، وكدتُ أفقد وعيي. حملني عمّي بين ذراعيه، ومشى بسرعة نحو المستوصف، قال لي اهدأ سيداويك المضمّد عبد، وتطيب، وكانت رجلاي حمراوين، والجلد تمزّق، وراح ينتفخ خاصّة في القدم اليمنى، القدم التي استقبلت النار الكامنة تحت الرماد. لقد حُفرت في ذهني صورة عمّي الذي قُتل، منذ تلك اللحظة. حُفرت صورته، وتداخلت مع خارطة القرية التي ودّعناها مُجبرين، فلم يعد لي تذكّر تلك السنين دون صورة عمّي رشيد. صار عمّي صفوف المدرسة، ورائحة اليود في المستوصف، وثغاء الحملان في الربيع، ورعشة أجنحة الجراد في الحقول. صار مياه النهر المتلوّنة حسب الفصول، الأزرق في الصيف،

المعتم في الخريف، الخابط في الشتاء، البنّي في الربيع، وصار مشرب جدّي وأغاني جدّتي ميّاسة وبيوت القرية ومقبرتها ودروبها الضيقة وأشواكها وحنطتها ومطحنتها وهواءها الشتوي البارد وغبارها القادم من الصحراء، ونساءها الصابغات شفاههنّ بالورس المتعطّرات بالسعد والريفدور، الراقصات في الأعراس النادبات في المآتم.

وجه مدوّر أبيض مشرب بالحمرة، شاربان ثخينان، لشاب يافع معافى، شعر أسود، به لمعة من الشقرة، يفرقه بمشط بلاستيكي عادة ما يحمله بجيب دشداشته، وفي ذلك الوقت، كان عمّي يرتدي فوق الدشداشة جاكيتاً أسود، له جيب عند الصدر، يرتديه رغم الجوّ المعتدل، بل الحارّ خاصّة في تلك الظهيرة، لكنه كان يضفي عليه أناقة، تُدركها - فقط - فتيات القرية، وكانت تفوح منه رائحة حلوة، تكاثفت في أنفي حين حملني وركض بي نحو المستوصف، تلك التي يسقيها عمّي الريفدور، ويحتفظ بقارورتها الزجاجية في القسم المخصّص له من غرفة الضيوف، وهي رازونة، تشبه الطاقة، صُنعت في الجدار الطيني، لسبب لم أعرفه، إلى أن هُدم البيت، وانتقلنا إلى بيوت الحجر التي أدخلتنا في طور الصخر من حياة القرية. ولطالما جذبت نظري بلون سائلها الأصفر، وشكلها الأنيق. العينان، عينا عمّي، يحار المرء بلونهما، فهما صفراوان داكنتان، لكنْ؛ تتماوج فيهما - أحياناً - زرقة خفيفة، ما إن تنعكس في حدقتيهما أشعّة الشمس. شاب طويل، ممتلئ الجسد، يمتلك ابتسامة صادقة، تكشف عن أسنان بيضاء متساوية، وهو أمر نادر في القرية، وعادة ما أسمع مَن يقول، خاصّة من النساء، إنه يشبه أمّه ميّاسة، ولا يشبه جدّي حميد.

في تلك الظهيرة، رأيت عمّي بدقّة، شممتُ رائحة الريفدور من وجهه، وحدّقتُ بعينيه الصفراوين المشعّتين بلون أزرق خفيف، يكاد لا يُرى. اجتاز بي الطريق المارّة من أمام البيوت، وبين جذوع النخيل، وأوصلني إلى غرفة المضمّد عبد الذي وجدناه جالساً في غرفته، يحدّق إلى السّدّة باهتمام، تتطاير حوله ذبابات كسولات، بأزيز خافت، ولم تمض سوى دقائق حتى وجدتُ قدمي المحترقتين، وقد غطّتهما المراهم ذات الرائحة النفّاذة، وهما ملفوفتان حتى الكعبين بالشاش الأبيض الذي تنبعث منه رائحة اليود والسبيرتو، وطلب من عمّي أن يجلبني بعد يومين إلى المستوصف. في تلك الظهيرة، لم أستقبل جدّي حين عاد من المدينة؛ لأن عمّي أرجعني إلى البيت بسرعة، وطلب من جدّتي ميّاسة وضع فراش لي؛ كي أستلقي عليه حتى الليل، فالراحة ضرورية لي، كما قال، من أجل شفاء الحروق. وشعرتُ

بجدّتي ميّاسة، كما لو كانت هي المصابة بالحروق، وتعابير وجهها ظلّت مرسومة بالألم والخوف. أتذكّر ذلك بوضوح، وأتذكّر أنني كنتُ مستلقياً على فراش من الصوف في حوش دارنا، وكان الليل قد بسط جناحيه علينا منذ ساعات. غرفة المؤونة مظلمة، والفانوس النفطي المعلّق في الحائط لا يكشف سوى مساحات ضيقة داخل الحوش. هناك فراشات ليلية تحوم على زجاجة الفانوس، والشعلة المنبعثة من الفتيلة تنشطر شطرين، فيما يتصاعد دخان أسود، يصبغ الزجاجة بالسواد، ويمتدّ إلى سطح الجدار نحو الأعلى. وفراشي موضوع جنب فراش جدّتي، وكان جدّي يستلقي على فراشه موازاة الحائط القريب من باب المضافة. أمّي تعجن العجين في باطية الخشب؛ كي تحضّره لصباح الغد. أخي مصطفى لم يكن موجوداً، أختي الكبيرة وأخي الأصغر بشير ينامان على فراش من الصوف، وُضع على الأرض، ليس بعيداً عنّا، وكانت السماء صافية، والبرودة خفيفة، برودة خريف، بالكاد، تخلص من أذرع الصيف الساخن.

سمعتُ بين الحلم واليقظة جدّي يقول لجدّتي الجالسة جنبه على الفراش: ما إن يكتمل بناء البيت حتّى نزوّجه. في الصيف القادم، على الأغلب، قالت جدّتي. رشيد بحاجة إلى الاستقرار، أفضل من التسكّع في القرية، وملاحقة النساء. أعرف أن العروس التي يتحدّث عنها جدّي هي خالتي سميعة التي تصغر أمّي بعشر سنوات، ويعرف الجميع أنها الأجمل بين فتيات القرية. ورغم الألم الذي بدأ يخفّ من قدمي، والخوف الملازم لي من الظلام، إلا أنني رحتُ أتخيّل خالتي، وهي تسكن معنا في البيت الحجري الجديد الذي كنّا نبنيه، ويقع إلى الجنوب من منطقتنا، قريباً من السّدة الترابية، وكيف ستكون حياتنا بوجود خالتي سميعة جنب عمّي رشيد، ونمتُ، كما أتذكّر اليوم، وأنا أحلم برؤية عمّي، وقد أصبح لديه زوجة جميلة، وترك مطاردة النساء، لكنني استيقظتُ في وقت ما من الليل على ضجّة الكلاب، وهي تنبح خارج البيت. الكلاب تنبح إذا ما شاهدت بشرا يتجول في الطرقات، أو نتيجة لوجود كلبة صارف، تتبعها طمعاً بالتواصل، أو حين يتسلّل إلى الفسحات بين البيوت حيوان تائه، قدم من المستنقعات والصحراء، كالضباع والثعالب والغريريات. الجميع يعرف هذه العلامات. أحسستُ بجدّي يمشي نحو باب البيت الخارجي وسط الظلام، فتحه بضجّة، صوته سمعتُه مرتفعاً، يوجّهه إلى كائن بعيد، وتعالى - من جديد - نباح الكلاب الملتحم مع صرخات وعواء. كنتُ أستلقي على ظهري، أحدّق في السماء، وأتنصّت بخوف، والنجوم متناثرة مثل فوانيس، لا تُحصى، فوانيس بلا دخان. بين آن وآخر، تخرّ من السماء شعلة سريعة،

تموت خلف الحائط، ويمز البوم خطفاً متجهاً نحو غابة النخيل. بدأت الأصوات تبتعد قليلاً قليلاً باتجاه البساتين، وما هي إلا لحظة حتى عاد جدّي ثانية إلى فراشه، وهو يتمتم لنفسه بصوت مسموع: إنه ضبع، تطارده الكلاب. ما الذي وزطك، أيها الضبع بين جيش من الكلاب؟ كيف تجرؤ على مهاجمة بيوتنا في وسط هذا الليل؟ إنه ضبع، طردته الكلاب نحو الخلاء. ثمّ ساد السكون بغتة.

# الفصل الثالث

هذا هو عمّي الذي تركنا جثّته في المقبرة دون دفن. يقترب القصف من القرية، ويتهيأ الجميع للفرار، لا فائدة، حتى مَن كان رابضاً عند الطريق الدولي ممسكاً بسلاحه، ترك المكان، وعاد إلى بيته، وانتقلت حمّى الرحيل بين جميع البيوت. سرت إشاعة انسحاب الجيش في دروب القرية وبيوتها مثل ألسنة من نار. الوحوش يتقدّمون، الأمر الذي يعني الكثير، بعد خبرة سنوات مريرة: وجوه قاسية، لا تعرف الرحمة، تصفيات مباشرة، وحسب المزاج، إهانات للجميع نساء ورجالاً، فرض تقاليد، لم يعتد عليها أحد، وأفكار غريبة على المنطقة. إنهم عجلة متحرّكة، تدمّر كل ما أمامها. في تلك الساعات المصيرية، أوقفتُ البيك أب الذي تركه أخي بشير في مدخل البيت، وقلتُ لنادية صائحاً: لقد وصل الوحوش، هيّئي الجميع للفرار، وكانت تقف في المدخل، عيناها الزرقاوان تتوهّجان بالخوف، ترتدي دشداشتها الملوّنة الممتدّة حتى كعبيها، وتضع ملفعها الوردي حول وجهها الأبيض المدوّر، وذكّرتني أكثر من أيما وقت آخر بتلك المرأة التي أحببتُها في دمشق، ريم صاحبة العينين الزرقاوين، والجيد الطويل، والابتسامة الصغيرة الساحرة التي كانت تقابلني بها في بيتها الواقع في محلّة جرمانا قرب دمشق. شعرتُ بالذهول من انبعاث ريم أمامي في تلك اللحظة الحرجة لحظة الهروب، والأمَرّ من تلك الرؤية الخاطفة أنني شاهدتُ الأسف والحنين والعتب في عينيها، لكنني سرعان ما طردتُ الصورة، وعدتُ إلى زوجتي نادية. بعد أن استقررتُ في القرية، وقرّرتُ العيش فيها حتى النهاية، كانت حكايتي القصيرة مع ريم تنبعث في خاطري، كلّما عشتُ انعطافة سريعة في حياتي، وفكّرتُ أن هذا الخاطر قد يكون رسالة تقول إن ريم تفكّر بي، وما تزال تتذكّرني.

أحسستُ بنادية، وهي واقفة أمام بات البيت الداخلي تفكّر هكذا، أين تريدنا أن نهرب؟ وكيف نترك نضد الأفرشة والمجمّدة الممتلئة بالباميا واللحم المجمّد والدجاج الجاهز للطبخ، ونترك السجّاد والملايات البيض الصيفية الحامية من البعوض، والثريات المثبتة في الغرف وأكياس المونة في المخزن؟ كيف نترك ذلك كله للوحوش؟ كيف نترك قبر بشير وحيداً

في العراء؟ ليتني أموت، ولا أترك بيتي، قالت لي نادية، وهي تزيح بيديها البضّتين قطرات من الدمع تساقطت على وجنتيها الخمريتين، قلتُ لها، بصرامة وحدّة: هيا، جهّزي مريم وعلي، واجمعي ما تقدرين عليه من الملابس، وبعض الأغطية، ضعي كل مصاغك وذهبك في كيس، ودعينا نرحل، سيكتظّ جسر طارق بالهاربين، علينا أن نهرب قبل وصولهم. وماذا عن القدور والصحون والطباخ والثلاجة والتلفزيون؟ تسأل. لا مكان في السيّارة سوى للأشياء الضرورية، والباقي وديعة بين أيديهم. تركنا حياتنا خلفنا، فالموت يتقدّم نحونا، وعلينا أن نؤجّل المواجهة معه حتّى لساعات.

وأنا أفكّر - الآن - بالسؤال الذي قد يخطر على البال، عمّا تركناه هناك، في تلك البقعة الصغيرة. في هذه الشقّة، على مقربة من قلعة أربيل التاريخية، وما إن أبتدئ بالتدوين، تدوين ما نالنا من عناء ورعب في تلك الأيام، أحسّ أنني أتوهّج مثل جمرة، أشتعل، كما لو كنتُ تنّوراً، يتلظّى بناره، وقد وضعتُ الحياة خلفي. الماضي لن يعود. لا أرغب في رسم شمس على الجدار؛ كي أتدفّأ بها. كثيراً ما حسبتُ نفسي محظوظاً؛ لأنني لا أطيق العيش في الأوهام والتخيّلات، مهما تكون ممتعة. وهي ممتعة فعلاً، لكنها تشبه المخدّر، ينتهي مفعوله، فيعود الألم والفراغ والوحشة. تركنا الكثير من حياتنا، نعم، والخسارات يصعب إحصاؤها. تركنا دروب الطين، وهديل الفواخت في نخلة الخستاوي التي كانت تنتصب في زاوية البيت، تركنا لحية جدّي آكل الجراد، ورائحة اليود في المركز الصحّي، وملّة عفرا التي أحرقتني ذات مرّة في ظهيرة مشمسة، المطحنة، مضخّة المياه، حمير آل طه، سمك النهر في فصل الفيضان، حكايات الليالي تحت ضوء القمر. تركنا جثة عمّي رشيد تحت سطوة الوحوش ورياح سمومهم. تفقّدتُ نادية قبل أن نتحزك نحو الجسر - - أكثر من مرّة - طوقَ الليرات العثمانية الذهبية، والمحابس الفضّية ذوات الفصوص من الأحجار الكريمة، التي أهداها لها أبوها سليمان البنّا، ذلك الذي أشاد لنا بيتنا حين انتقلنا من بيت الطين إلى بيت الحجر، ومات قبل عشرين سنة، حين كنتُ غائباً عن القرية، والزنبور الذهبي الذي وضعتهُ ذات مرّة في أنفها يوم الزواج. تأكّدتُ من الكردال، الثياب الحرير، حلقة الزواج المطعّمة بالعقيق، وعشرة آلاف دولار، خلّفها المرحوم أخي، تأكّدتُ من وجود ذلك كله؛ حيث وضعته نادية في صندوق خشبي، احتفظت به منذ سنوات قبل زواجنا. جلبتُ - أيضاً - عدداً من بطّانيات مهدّبة، وبلوزات صوفية، ولحفاً ودواشك على عدد أفراد العائلة، ذلك كله وضعته في حوض سيّارة البيك آب، وهي تبكي وتنوح بأشعار عن الفراق، والغربة، والنأي الذي ما بعده لقاء. منذ قرن، لم

يحدث لنا هجرة مثل هذه، حتى الفيضانات التي ضربت القرية منذ عقود، لم تسبب هجرة شاملة كالتي نعيشها.

حدثني جدي بقصص عن هجراتهم نحو الصحراء، أيام ما كانوا غير مستقرّين، ينوسون بين البداوة والفلاحة، كيف يقضون الشتاءات في الصحراء مع غنمهم وجمالهم وخيولهم وحميرهم؛ ليعودوا في الصيف قريباً من النهر؛ حيث أسس جدّه حامض وأولاده اللبنات الأولى للقرية. بيوت طين، ابتكروها على عجل حسب مخططات متوارثة، تمتدّ في الجينات آلاف السنين، الطاقات الصغيرة في الجدران، الأبواب الخشب، السقوف المصنوعة من خشب الصفصاف، أو الحور، وذلك كله توفّره التربة السمحة في وادي الفرات. أجل، يرحل عن القرية بيت أو بيتان نحو المدينة أو نحو العاصمة، لهذا السبب أو ذاك، لكن البيوت الباقية تظل راسية في مكانها، وسط حقولها وبساتينها وأعراسها ومآتمها وسواقيها المزهرة بالنفل والباقلاء والصفصاف.

راحت العصافير المعششة بين سعف النخلة الزهدي قرب السياج تزغرد لنا مودّعة، زعيق السيّارات على السّدّة يستعجل ذهابنا، وصوت الانفجارات البعيدة يصمّ الآذان، وغبار المعارك ينبعث في البعيد، من جناح الصحاري المستسلمة لأقدام الوحوش. الوحوش، لا بد من القول - هنا - إن عمّي أطلق هذا الوصف على تلك الكائنات التي غزتنا أول مرّة بعد دخول الأميركان إلينا، بسبب وجوههم الملتحية الكثّة الشعر، وعيونهم اللاصفة التي تخلو من المشاعر البشرية، فلا تنظر إلى محدّثيها إلا بسمات الكره والغضب والعنجهية، وملابسهم المبتكرة المحبّبة لهم، ويتفاخرون بارتدائها، وقد جلب نمطها من أفغانستان، لذلك كانوا يبدون كهنود أو باكستانيين، يتجوّلون في طرقاتنا، وأحكامهم القاطعة حول الحياة، خاصّة آن يرفعون الإصبع الشاهد في وجوه منتقديهم، أو أمام الكاميرات التي توثّق عمليات الذبح والقتل والهجوم. أطلق عليهم تسمية الوحوش الصغار حين كانوا يمتلكون البنادق الخفيفة والهاونات المحمولة على السيّارات، ويضعون اللثم على وجوههم، في ساعات الاستعراض المقامة خلسة عن الجيش الأميركي؛ إذ ظلّوا مُطارَدِين، لا يتحرّكون من مكان إلى مكان سوى في الليل، أو في أوقات غير محسوبة، ولم تكن لهم القدرة على الاحتفاظ بأرض تحت أقدامهم. وذلك قبل أن يؤسس عمّي مع الآخرين ما بات يُسمّى بالصحوات. لكنّ؛ ما إن امتلكوا الدبّابات والأسلحة الثقيلة والطائرات المسيّرة الصغيرة، وتمكّنوا من تمتين سيطرتهم على مُدُن

وقصبات ومعسكرات مهمة، وتحوّلوا إلى جيش جرّار، وأعلنوا عن قيام دولتهم، حتى راح عمّي يسمّيهم بالوحوش الكبار، وإن لم تختلف أشكالهم عما سبق، وأن ألفناها. لكن ذلك ماض، أضيف إلى تواريخنا الملتبسة والمتراكمة. كنتُ أستعيد تلك الأفكار، وأنا أودّع البيت دون أي أمل بالعودة. عدتُ من دمشق بعد أن دخلت القوّات الأميركية إلى القرية، وانتبهتُ إلى تنامي تذمّر واسع بين الشباب، وبعض شيوخ الدين، والمناصرين للنظام الذي سقط فجأة، وبدأنا نسمع عن تنظيمات مقاتلة ذات أسماء دينية، أو وطنية، تحارب الثكنات الأجنبية التي أقيمت على أطراف المدينة والقرى والنقاط المهمة على الأرض. وقتها، وحين كنتُ أجلس في الساحة الأمامية في بيت أخي بشير، كنتُ أسمع ليلاً دويّ الانفجارات وسط الليل. وأسمع تبادل إطلاق نار في القرى البعيدة، وأرى بعض الليالي ومضات سريعة، لصواريخ وقذائف على أطراف الصحراء، وعند الجسور، وعلى حافات المُدُن. ولم تفارق طائرات الاستطلاع الصغيرة، المسيّرة عن بُعد، سماءنا. تأزّ فوقنا ليلاً ونهاراً، كأنها أصبحت جزءاً من قوانين الكون الثابتة. أسّس الجيش الأميركي له قاعدة ضخمة في بيت الرئيس الفخم، الواقع على كتف السدّ العظيم في طرف المدينة، وقد أخذني أخي بشير ذات يوم في سيارته؛ ليريني القصر المنيف الواقع على النهر، ورغم أننا لا يمكننا الاقتراب من القصر إلا أنني لاحظتُ الأبهة الفخمة التي أشيد بها. الأقواس، الشرفات، الشجر العجيب المنظر، التحصينات الأمنية، البلاط اللامع في الواجهات، وقد وضع الأميركان سياجاً ضخماً حول القصر عبارة عن حاويات ضخمة من التراب والأسلاك الشائكة، وكانت هناك دبّابات وقاذفات صواريخ في المدخل، وجنود بخوذ، تخفي وجوههم. وكان هناك بالون ضخم، يحمل كاميرات وأجهزة رصد، يحلّق في سماع المنطقة، وكان مربوطاً إلى وتد عملاق في ساحة القصر. فيما وُضعت ثلّة حراسة على قمّة الجسر، تراقب العابرين نحو المدينة، والخارجين نحو القرى. يتربّع في تلك الغرف الصغيرة جنود متأهّبون لإطلاق النار، ويسلّطون مناظيرهم على كل حي، يقترب منهم. كانت سنتي الأولى من رجوعي وسَكَني في بيت أخي بشير. سكنتُ في بيت بشير، لا في بيت أخي الكبير مصطفى الواقع في المدينة؛ لأنني كنتُ أحسّ بالراحة والخشوع، وأنا أشاهد الأمكنة التي عاقرتْ ذاكرتي طوال خمسين سنة.

يا لتلك المشاعر التي تراودني حين كنتُ أقف في الفجر على سطح البيت، وأحدّق في القرية. ألمح السلام ينتشر على سطوح البيوت الحجرية، والطيور لم تستيقظ بعد، وخيط النهر يلتمع من بعيد، يتوغّل

بين بساتين النخيل المطلّة عليه، وسيّارات قليلة، تعبر في الشارع متجهة نحو المدينة، أو عائدة منها، ومن بعيد، كان الطريق الدولي يستعيد حياته، فأرى شاحنات ضخمة، وسيّارات خصوصي، وباصات نقل، تُخرج المسافرين خارج البلد، أو تُدخلهم إليه، وأعمدة الكهرباء العملاقة خلف المقبرة تنتصب مثل مخلوقات خرافية.

قرّرتُ - وقتها - أن أعيش سنيي الأخيرة بعالم من الأحلام، وسأقضي بقية عمري في هذا المكان الذي شهد ولادتي، وطبعني بميسمه، كما لو أن السعادة، مصفّاة، ستختبئ في عمري القادم. من ذلك السطح، أرى مداخن معمل الزجاج القريب من الجسر، ودولاب الهوى البعيد الذي أشيد، كما لو كان شاهداً على عصر جديد. تزامن ذلك مع دخول القرية إلى الفضاء الإلكتروني الذي جلبه الأميركان معهم مرزوماً على الدبّابات، والسفن، والإنترنيت، والهواتف النقالة. من سطح بيت بشير، أرى غابات الصفصاف في جزر النهر، وضفاف العاقول والشوك والطرفاء تنحني سعفات النخيل عليه، والشمس من الشرق ترتفع من فوق المركز الصحي الذي أشيد قبل سنة من دخول القوّات الأميركية، ثمّ فُجّر - لاحقاً - بعبوات الـ تي إن تي، ورُمّم مرّة أخرى لاحقاً. أبقى هناك، في السطح، أرى نادية زوجة أخي تُشعل التنّور بسعف النخيل، ثمّ تهيّئ العجين لخبز الصباح، وأشمّ رائحة الخبز المنبعث في الفضاء مثل رائحة هابّة من الجنّة، بساعديها الأبيضين البضّين ووجهها المدوّر وعينيها الخضراوين. تنجز نادية الخبز في التنّور، بوقت قياسي، وتدخل من الباب الخلفي؛ لتعدّ لنا الفطور. أخي بشير يفيق من نومه، ويخرج من الغرفة بصوت زاعق، ثمّ يتّجه إلى المرافق الصحّية المبنية في زاوية الحديقة، وأراه يقف على المغسلة الموضوعة جنب الباب؛ ليغسل وجهه بالصابون، ويمشّط شعره الكثّ مبتهجا باليوم الجديد. بوجه مشرق، ودندنة خافتة، يتجوّل في الممرّات الخارجية للبيت، سعيداً ممتلئاً بالأحلام. يقف تحت سعف النخلة الصغيرة، المتهدّل حتّى يلامس الأرض المعشوشبة، يصيح على نادية طالباً منها إحضار الفطور في الثيلة خارج البيت، وكان فطورنا - عادة - البيض واللبن الخاثر والجبن والمربّى؛ لينادي عليّ أن أنزل من السطح؛ لأشاركهم الفطور. ظلّ بشير حتّى مماته يكنّ لي احتراماً عميقاً، نقل مشاعره تلك إلى نادية أيضاً، حتّى جعلتْ أشعر بأنني رجل البيت فعلاً. يسألني رأيي عن شؤون البيت، واحتياجات ابنيه، وتفسيري للأحداث الجارية حولنا. الصباح هو أجمل الأوقات خاصّة التي أقضيها واقفاً على السطح مسترجعاً طيّات السنين في الجسد الطبيعي المنفرش أمام عيني. ويكون بيت عمّي رشيد لم يفقْ بعد. بابهم

مغلق، وسيارته مركونة في الممرّ الكونكريتي الممتدّ من الباب الخارجي حتّى مدخل البيت. عمّي لا يصلّي الفجر، ويذهب إلى الجامع في الجمعة فقط رغم أنه ساهم في بناء الجامع حين كان أبي حياً. وحافظ عمّي على عادته في الاستيقاظ متأخراً منذ عرفتُه، وحتّى الآن. حين أستعيد شريط تلك الأيام، أحسّ أنها كانت فترات حلمية، لم نكن ندرك - وقتها - الكوارث القادمة المتجهة نحونا.

تتجمّع الغيوم في الأفق الغربي، يسوقها الهواء فوق قرية عيث، ثمّ تسودّ عند الظهيرة، ويتشبّع الهواء برطوبة مميزة، فنعرف أن القطرات الضخمة ستنهمر على العاقول، وأجمات البردي المنتصبة في الضفاف، وذرى البرتقال في البساتين، وعلى الطرقات الضيقة المتغلغلة بين سياجات البيوت، لكننا لم نكن نهجس بما يتجمّع في أفقنا من غيوم سود، ستودي بنا إلى الهلاك. حقاً كانت الكوارث السود مثل السحب، تباغتنا دائماً، وفي الفصول كافّة. كانت الوحوش صغيرة في ذلك الوقت، تضرب ضربتها، ثمّ تهرب، وتشيع بين الناس أنها تجاهد؛ كي تُخرج المحتلّين من الأرض، وكانت الأهواء منقسمة بينهم وبين الرأي الثاني الذي يقول دعونا نبني البلد أولاً، ونتخلّص - على الأقلّ - من سنوات الحصار والفوضى، خاصّة، وأن الأميركان - كما قالوا في أكثر من مناسبة - جاءوا؛ ليخلصونا من الطاغية، ولا يمتلكون أي مطامع في البقاء. أفكّر اليوم أنهم عملوا بنا مقلباً محترماً. لحدّ الآن، لم أستطع - برغم ما أمتلك من وعي وتحليل - فَهم ما كانوا يريدونه منّا. كنّا منقسمين بين هذا الرأي وذاك. بعد أقلّ من سنة على تواجدهم بيننا، لاحظنا شيئاً غريباً يدور، فهؤلاء المجاهدون الذي آنسنا لما يذعون، صاروا يفجّرون المستشفيات والدوائر الحكومية، يغتالون الأطبّاء في المستشفيات، يغلقون المحلات العاملة التي تلبّي حاجات الناس. أغلقوا السينما الوحيدة في المدينة، ومنعوا بيع الخمور في المحلات التي انتشرت بعد سقوط الحكومة، وفي نهارات ثانية، قتلوا شرطة المرور الذين كانوا ينظّمون السير في الشوارع. كلّ مَن تفاوض مع الأميركان من أجل تنظيم الحياة بعد الهزّة العملاقة التي ضربتنا قتلوه، ومن بينهم شيوخ عشار ومخاتير، وقد قتلوا حفيد المختار محمود، بينما كان في طريقه إلى العاصمة بعد أن اتّهموه بالاتصال مع الأميركان. لا أستطيع تفسير السرّ وراء نجاة عمّي رشيد من رصاصهم.

برزانته المعروفة ظلّ عمّي محايداً في هذه القضية. لم نستطع معرفة رأيه الواضح فيما يجري حوله. كان يكره الظلم، ويروي لي أخي بشير

كيف كان يستمتع، وهو يجلس معهم في أيام الحرب على التلفزيون لمتابعة هجوم الجيوش الأجنبية على البلد ساعة بعد ساعة. ذكر بشير أنه وفي نهاية المهلة التي أعطيت للرئيس من أجل ترك العراق مع ولديه من قِبل رئيس أميركا جورج بوش، حصل على صحن لاقط من صديق يعمل في حي الصناعة، وجلبه إلى البيت، ونصبه على السطح في الليل، ثمّ بدأ التقاط بثّ القنوات الفضائية. إن اكتُشف، يمكن أن تصل عقوبته إلى الإعدام، لذلك كان ينصب الصحن ليلاً فقط، ويتابع ما يجري حول البلد عبر قنوات العربية، والجزيرة، والبي بي سي، والسي إن إن، ويظل ساهراً مع الأصدقاء الموثوقين والعائلة حتى الصباح. يهلّ الفجر من غابات النخيل في شرق النهر، وتكشف الموجودات عن بصماتها، وتتسع عيون الحزبيين الموجودين في القرية؛ لترصد ما يدور، فيصعد إلى السطح، ويُنزل الصحن، ويخبئه في المخزن المجاور لتنور نادية، خلف أكياس الصابون والزرّ والسكّر والصابون التي كانوا يوزّعونها في الحصّة التموينية. ونادية تفرغ إبريقاً من الشاي، وتملأ إبريقاً من الدارسين للساهرين، القلقين بسبب مصير البلد، المتّجه نحو جرف عال، تتمدّد خلفه الهاوية. أمّا عمّي رشيد؛ فكان رغم فارق السنّ بينه وبين المهتمّين بالحرب، فله حضور دائم في الليل. يأتي لابساً دشداشته البيضاء، ومعطفه القصير، وشخاطته الجلدية التي جلبها من شارع السعدون، ملفّعاً وجهه ورأسه بيشماغ أحمر غريب على ما عهدته القرية من أغطية للرأس. لم يربّ ذقنه في تلك الأيام، وعيناه تتوهّجان بالعزيمة، كما لو كان شاباً، يستعيد أيام مراهقته في خطبة خالتي، أو حين كان يتجوّل معي في طرقات القرية، ونحن نحمل الراديو الفيلبس، ونجذب أنظار الملأيات والحشّاشات والكانسات والخبّازات والواقفات أمام البيوت والحاصدات وقاطفات التين والتوت والعنب من عرائش البساتين وقمريات مداخل البيوت.

عمّي الذي أعرفه منذ خمسين سنة، تعملق حتى احتلّ أفق قرية، تستلقي على ضفاف النهر، هو مَن كانت يداه نخيلاً، وعيناه نجوماً ليلية في سماء صيف، وأضلاعه قناطر، تمتدّ فوق السواقي، وقلبه مضخّات تشفط الماء، وتبثّه نحو الحقول البعيدة. أيامه في الانقضاض على الحَرَس القومي الذي هيمن على البلد في الستينيات، أيامه في أبي نؤاس حين كان يحتسي البيرة على الضفاف، وهو يحدّق في السمك المسقوف حول النار، صولاته النسائية في أزقة الميدان وشارع اثنين وخمسين والشواكة، ذلك كله كان حاضراً حين يفتحون له الباب، ويشاهدون قامته العملاقة، أو هكذا كان أخي بشير يراه، كما أخبرني في ليلة شتوية باردة، كما لو كان

يتعملق مع تنامي الأحداث، ويردّد في أثناء الجلسة السّرّيّة الشبيهة بالتلصّص: وأخيراً سنتخلّص من الصنم، ونفتح أفواهنا على السجية، لقول ما نريد. وترتسم على الشاشة مئات الدبّابات والمدافع والطائرات وحاملات الطائرات وقاذفات الصواريخ بعيدة المدى. ذاك تاريخ مضى، وحياة تلاشت، كأنها لمعة في مياه النهر.

جلست نادية جنبي، وجلس علي ومريم قربها، وانطلقنا في الطريق نحو السدّة، ونظرتُ إلى جامع الزبير بمئذنته القصيرة، وفي رحابه، صلّينا على عمّي صلاة الميّت، الوحوش سيستولون على الجوامع، ويصنعون دينهم الخاصّ، لكنه سينطلق من جوامعنا، بلا شكّ. ينبغي أن نكون حذرين منذ هذه الساعة، فليس كلّ ما يُقال من على المنبر، ينبغي تصديقه، ألا يعيش بيننا دجّالون كثيرون؟ ويرتدون الملابس نفسها التي ارتداها رجال سمحون محبّون رحومون مثل الذين عشنا جوارهم طوال حياتنا؟ يجب أن لا ننسى الدرس. أخبرني عمّي ذات يوم أن سينما المدينة، ومطعم ومشرب الموظّفين، وجامع الشيخ عبدالجليل، وكان أشهر رجل دين في المدينة، يتجاورون في بقعة، لا تزيد مساحتها عن الكيلو متر مربّع، ولم يشتك أحد من ذلك التجاور، أمّا ابنة الشيخ؛ فكانت تضع عباءة من البريسم - فقط - على جسدها حين تمضي إلى المدرسة. أسوق البيك آب، وأكبتُ ألمي، وتمرّ بي الأماكن مثل حلم أو كابوس، الأمكنة المستسلمة المودعة خلسة لرحيلنا، نباتات الحلفاء والقبر والهواء، كم سيمضي من سنوات قبل أن نشمّه ذات يوم؟ الطرق تشهد هروباً جماعياً، معظم سكّان القرية ينتمون إلى الجيش، أو الشرطة، وبعضهم موظّفون في الدوائر الحكومية في المدينة، أو القرى المجاورة، بالتالي وقوعهم في براثن الوحوش يعني الموت لهم ولزوجاتهم وأطفالهم، لذلك فالجميع معلّق على حافة السكّين.

وجدتُ جسر طارق مكتظّاً بالسيّارات والعابرين والبقر والأطفال والشيوخ والنساء. الجميع يروم العبور إلى الجهة الأخرى، سيستثمرون الساعات الفاصلة، التي تُتيح للوحوش الوصول إلى القرية، للاندفاع نحو الجنوب، نحو القرى الآمنة، لحدّ الآن؛ كي يبحثوا عن مصير مختف في الغيب، ولم يعرفوا مكانه، لحدّ الآن. أحاول - منذ أمس - أن أربط الأحداث التي عشناها بدقّة وأمانة. الصور تأتيني مشوّشة بعض الأحيان، وأغفر لنفسي هذا الشواش، فلو أن الصخر عاش ما عشناه؛ لتمنى أن يُمسخ إلى عنصر آخر، يُنقذه من الذاكرة. حتّى حين كنتُ أجلس أمام القلعة، وأتأمّل

في تاريخها وبنائها، والأحداث التي شهدتها على مر القرون، حتى حين أنقل بصري في النافورات الموضوعة في الساحة المحصورة بين السوق الكبير لأربيل وقلعتها، يظلّ همّي هو ربط الأحداث بعضها بالبعض الآخر؛ كي أدوّنها حين أجلس إلى الجهاز، أو في حالات المَلَل، حين أجلس أشخبط على الأوراق البيض، بقلم من الحبر الجافّ، بعد أن تنام نادية والأولاد، وأنا أقعي في غرفتي المشادة في الطابق الأعلى من الشقة. استعادة تلك الحياة صار هاجساً لي.

أقطع بعض الأيام جولتي في السوق الكبير، ما إن أتذكّر حادثة تتعلّق بالقرية، أو بعمّي، وأعود عجلاً نحو غرفتي؛ كي أكتب. كان ذلك السوق واحداً من مُتعي القليلة المتبقّية لي في حياتي المترسّبة بهذه المدينة الغريبة. كنتُ - بعض الأيام - أصرف ساعات بعد الظهيرة، أو ساعات المساء، أو حتى سويعات ما قبل الإقفال ليلاً، أتأمّل بالمعروضات من السلع، والوجوه التي تجول في الأزقة الضيقة، باحثة عن هدية لصديق، أو لحبيب، أو هدية غريبة، من أجل مفاجأة أعضاء العائلة. أتعجّب - بعض الأحيان - من تنوّع البضاعة، ودقّة صنعها، فأحسب أنني أسير في سوق، لمدينة عاشت قبل مئات السنين، حلب، أو أصفهان، أو تبريز، أو سمرقند، أو بغداد قبل أن يغزوها المغول. أنواع البهارات تتوزّع في صناديق، أو سلال، ويفغم ضوعها الأنوف، سلال من الحلقوم التركي والإيراني بعضها مطعّم باللوز والجوز، عناقيد من الحلقوم على شكل أصابع غليظة، رُبطت بخيط، يتسلّل بين تلك الكتل، ويحوّل مرآها إلى عقد من الأحجار الكريمة، تمور من الإمارات وأميركا والبصرة وإيران، حُشيت باللوز، أو كُبست بعسلها داخل أغلفة من النايلون، أقمشة للنساء، محلات للذهب والفضّة، دكاكين متخصّصة بالأحذية المنسوجة من الصوف، الأحذية المشهورة في المناطق الجبلية، محلات مختصّة ببيع الجوز واللوز والحمّص وفستق العبيد، تلال من المشمش المجفّف والتين المجفّف والموز المجفّف. الزبيب بأنواعه، وسلال الجوز تنادي المارّة. وبسبب أغنية تنطلق من محلّ للتسجيلات، أو ثوب نسائي مزخرف، أو حوار يسقط في أذني من رجلين، يتكلّمان اللغة العربية، قادمين من الموصل أو الرمادي أو النجف أو بغداد، تنطّ مثل جرادة ذكرى من ذكريات الماضي، وتستولي على روحي، فأعود عجلاً إلى البيت؛ كي أنغمر ساعات في الكتابة.

من تلك القصص الفاقعة التي ظلّت متوهّجة في داخلي، حكاية ذلك الاجتماع الحاسم الذي حدّد مصير قريتنا لسنوات لاحقة. كنتُ أنا موجوداً

في ذلك الاجتماع، وقد عُقد في مضافة المختار حسن، ابن الشيخ محمود الخضر، الكائن قريباً من المركز الصحي. حين هربنا، ومررنا قرب المستوصف، رأيتُهم - أيضاً - يتهيؤون للهرب مثلنا، كانوا موعودين بالذبح وحرق البيوت واغتصاب النساء، كما جاء برسائل الوحوش للعائلة. حدث الاجتماع هذا قبل تركنا لجثّة عمّي في المقبرة بخمس سنوات، وكان عمّي رشيد نجم ذلك اللقاء. عنوان اللقاء كان كيف نطرد الوحوش الصغيرة. الوحوش الصغيرة - وقتها - هم التنظيم، وشاع وانتشر إثر دخول الجيوش الأجنبية وفتح الحدود على مصراعيها وشيوع اليأس. كان الجميع يبحث عن مخرج للأزمة. الوجوه واجمة، النظرات منكسرة، الحزن يسري فوق الكراسي والطاولات، وعامل القهوة بدا مرتبكاً، وهو يتنقّل بين الضبّاط الأميركيين ووجوه القرية والقرى المجاورة، وكنتُ أشمّ رائحة الهيل تفوح في المكان، وتدرج فوق الرؤوس، وتملأ فضاء الصالة المستطيلة المَبنية من الطابوق والملاط، وقد حوّلها حسن ابن المختار إلى مكان للّقاء، لا يبعد سوى أمتار عن السّدّة، ولصق المركز الصحّي تقريباً.

الجنرال ديفيد بيترايوس. يتصدّر المجلس، يجلس بكامل قيافته العسكرية. كنتُ أجلس مثل جذر شجرة غير مرئي، ممتلئاً بقناعة أن حياتنا لن تعود إلى سابق عهدها، وأنظر خلسة إلى وجوه الضبّاط، فلا أستطيع تلمّس ما يفكّرون به. كنتُ خائفاً في تلك اللحظة، وأنا أتفرّس بوجه ذلك الجنرال، كلّما أتيحت لي فرصة مناسبة، أمّا اليوم؛ فيمكنني أن أخاطبه على الورق بحُرّيّة مطلقة: يا جنرال بترايوس، أنا مشتاق إلى عتبة البيت، إلى حنفيش الماء، وثغاء الخرفان في ليلة عيد الأضحى، وهي تنتظر سكّين الأعرج، ورائحة الطين في الساقية التي تغذّي بستان نوري، ومدرسة القرية، وتكشيرة الضباع، ورفيف أجنحة الجراد، وعتمة البئر في مسكننا القديم، وأنفاس جدّتي ميّاسة، وهي تُهدهدني بغنائها؛ كي أنام، ورائحة تبغ جدّي الذي يجلبه من المدينة. أضعه أمامي على الكرسي، أصبّه في خيالي مثل تمثال من الطين، وأخاطبه بنفور. أقول له رغم أنه لا يسمعني: كم أنا مشتاق للكباب في المطاعم المعتمة، والأزبري في أيام الصيف، والنعناع المدوّر ذي الألوان، وأغنية أمّ كلثوم في السينما الوحيدة التي كنّا نرتادها في المدينة، أغنية الأطلال، وهي تصدح قبل أن تنطفئ الأضواء، ويبدأ الفيلم. مشتاق لقوس قزح يمتدّ بين نخلة عيث في الغرب وبرج التلفون في الملاحمة المنتصب بقلق على ضفّة النهر قبل أن يفجّره الوحوش في ليلة مظلمة. يا جنرال بترايوس، كنتَ تجلس في المضافة، وحذاؤك يحدّق بوقاحة في وجوهنا. كنتَ تجلس بوجهك الأكرت، وتقزّز

مصائرنا، وخلفك مئات الدبّابات والراجمات والقذائف المعبّأة باليورانيوم المنضّد، والجنود المرتدون لخوذات، لا ينالها الصدأ، الجنود المزنّرون بالرصاص والقنابل اليدوية والمناظير الليلية التي كانت تكشف أجساد نسائنا ووجوه أطفالنا، ونوايانا التي كنّا نواريها خلف ضحكاتنا الغبية. يا جنرال بيترايوس، أ تعرف زوجتي نادية؟ إنها امرأة، أُصيبت بالسكّر بعد مقتل زوجها بشير الذي هو أخي الأصغر، أوتعرف كيف قُتل؟ قُتل في بغداد. أنا أشرح لك ما جرى: في الشارع العام الرابط بين مدينة الشعب وسيطرة ديالى مات أخي، وتفجّر الدم من صدغه، وسال على مقود السيّارة، قتله جندي أميركي دون سبب. اسمع، أيها التمثال: خرج بشير من أحد فروع مدينة الشعب بسيارته الأوبل العائلية وزوجته نادية تجلس جنبه، وكان الطريق مفتوحاً، وهو يروم المضي نحو حيّ الصليخ، وبالصدفة العجيبة، كان هناك رتل أميركي يجتاز الشارع، لم يُبصره بشير، فظلّ سائراً، ولم يقف كما جرت العائدة، كون المفاجأة أفقدته حسّه المنطقي، تلك الفترة كان في كل رتل أميركي جندي، يجلس في الخلف مصوّباً سلاحه نحو المركبات السائرة خلفه خوفاً من السيّارات الانتحارية التي بدأت تهاجم الأرتال، فالمسافة المسموح بها خمسون متراً على الأقلّ، وهو ما لم يدركه بشير بعقله المرتبك، فما كان من الجندي إلا أن أطلق النار، وأصابه في جبهته، ومات فوراً. كان جندياً مدرّباً في كنساس، في أوكلاهوما، في صحاري شيكاغو، في معسكرات الجند المحيطة بمدينة نيويورك، لا فرق، الحادث هذا - يا سيد بترايوس - هو الذي أورث زوجتي نادية السكّر، فقد لمّت دماء بشير بيديها، وظلّت فاقدة للصوت شهراً كاملاً. هل تلوم أخي مصطفى حين يطلق عليكم أحفاد كولومبس، يا مَن قَتلتُم عشرات الملايين من الهنود الحمر؟! ذلك صار جزءاً من تاريخ مأساتنا المتواصلة، مع آلاف القصص المشابهة، وإن اختلفت التفاصيل، فالحدّ الأعلى لتلك القصص - دائماً - هو الموت.

وقف عمّي وسط القاعة، وقال للجنرال: أنتُم احتللتُم البلد، لكنكم لم تصنعوا لنا الجنّة التي وعدتُمونا بها، بالعكس، هبط الخراب علينا أكثر من ذي قبل، والآن جاء الوحوش الصغار، وحوّلوا حياتنا إلى جحيم، لا نطلب منكم سوى السماح لنا بحمل السلاح، ومحاربتهم، وإن احتجنا إلى سلاح، فزوّدونا به، وسنُخرج هؤلاء الزنادقة المتسترين بالدين من قرانا ومُدُننا. لا نرغب في أن نتحوّل إلى مقاطعة أخرى من مقاطعاتكم، كما أخبرنا مترجمكم الكريم. كان عمّي طليقاً في ذلك الاجتماع، يتكلّم للحاضرين، كما لو كان يقرأ في ورقة معدّة مسبقاً. غُدت تلك الكلمة القصيرة التي أدلى بها

عمّي أشبه ببيان أسس للصحوات، التي انتشرت في معظم المُدُن والقرى المحيطة بالنهر. ما إن انتهت الخطابات والنقاشات بين الضبّاط الأميركيين وأبناء العشائر، وتوصّلوا إلى اتفاقات عامّة عمّا هو مطلوب للقضاء على الوحوش الصغار، حتّى جُلبت الطاولات في منتصف المضافة، وصُفّت؛ لتكون قاعدة طويلة، ثمّ جلب الرجال صياني واسعة مليئة بالثريد والزرّ، وعليها تلال من اللحم الحميس، يحيط به الكشمش واللوز وفتائل الشعرية، وحول الصياني، وزّعوا صحون المرق والعصائر والخضراوات وقناني الماء، وسط دهشة الضبّاط التي لمحتُها ترتسم على وجوههم، وفي نظراتهم. ووقف المختار حسن وسط المضافة، وصاح طالباً من الضيوف التقدّم نحو الطعام. حينها ساد الارتباك بين الضبّاط جميعاً، فبأيّ طريقة سيتناولون الطعام؟

بعد أيام من تلك الوليمة، جُنّد شباب القرى في جهاز جديد للشرطة المحلية، ونظّموا أنفسهم في فصائل وكتائب، أشرف عليها الجيش الأميركي في المنطقة. انتمى طارق، وهو الابن الوحيد لطالب صاحب مولّدة الكهرباء، وطالب هو ابن عفرا التي احترقتْ أنا بنار موقدها ذات ظهيرة، وتمّ تنسيب طارق بعد طرد الوحوش الصغار، وبعد سنتين من ذلك الاجتماع الذي حضره عمّي في قاعة المختار حسن، في وحدة السيطرة القريبة من جامع الزبير. تمّ بناء غرفة من البلوك على طرف السدّة، لا تبعد سوى خمسين متراً من بيتنا، تحوّلت الغرفة إلى مكان للنوم، وحفظ الأسلحة الخفيفة، وجلوس أفراد الدوريات وقت التفتيش. ذات عصر طيّب الهواء، كان طارق يقف أمام باب النقطة، يمسك برشّاشه الكلاشينكوف، ويمضغ سيكارته الروثمان بكسل، ويحدّق إلى السيّارات المارّة بدقّة، يرصد الوجوه الغريبة عن المنطقة، إن شعر بقلبه رعشة خفيفة، طلب من السائق الوقوف لتفتيش السيّارة، وسؤال الركّاب عن المكان الذي يقصدونه، وهو نادراً ما يفعل ذلك، إلا في تلك اللحظات الهادئة التي مرّت فيها سيّارة تاكسي من نوع أولدزموبيل عتيقة، صفراء اللون، تسير ببطء. أحسّ طارق بتلك الرعشة تنغزه في قلبه، فقذف سيكارته وراء الشوك، وأمسك رشّاشه الكلاشينكوف بثبات، وكان الشارع فارغاً تماماً، والفاختات تهدل بين السعف، ونسمات باردة تهب من النهر. طلب من السائق التوقّف فوراً، وطلب منه النزول، وامتثل الرجل للأوامر، ووقف جنب الباب. كانت هيئة الرجل غير مألوفة، لحية سوداء مشعثة، بطن نافر، دشداشة بيضاء، لا تتناسب مع جوّ الخريف، وما أثار في طارق الشكوك والريبة لهجة الرجل التي لا تنتمي إلى هذه الأماكن، وعيناه

الجامدتان السوداوان، ويده الناتئة بصلابة، المعلّقة بياقته العليا قريباً من الرقبة.

أراد طارق أن يمدّ يده إلى بطنه لتفتيشه، فكرش الرجل غير طبيعي، والنتوءات تبرز واضحة من الدشداشة، ويبدو أن الرجل شعر بانكشاف أمره، فقال لطارق بصوت بارد أجوف حسبما نقلت الإشاعات: انظر، أنت شاب في مقتبل العمر، ونحن هنا نجاهد ضدّ المحتلّين الأميركان، وكلّ مَن يتعاون معهم، أنا أرتدي حزاماً ناسفاً، والسيّارة ملغّمة، وبلهجته المكسّرة، وملامحه غير المألوفة جاء طلبه الغريب. قال: أنا أتّجه إلى قاعة المختار حسن لتفجيرها، فهو يتعاون مع الأميركان، ولم يبقَ لي سوى دقائق للوصول إلى الجنّة، فاتركني أمر بسلام، ولا أريد قتلك، فأنت هدف صغير، لا يعنيني في هذه اللحظة. وكانت يده تتمسّك أكثر فأكثر بسلك صغير، ينتأ من صدره، مرتبطاً بالحزام الناسف الذي يرتديه. لن أدعك تمرّ، ردّ عليه طارق، وشهر بندقيته لغرض القتل، لكن الرجل لم يمهله، فدوّى الانفجار في النقطة، وتناثر اللحم على أسطح البيوت وسعف النخيل المجاور. تحطّمت نوافذ بيوتنا، بفعل الانفجار، وتطايرت شظايا السيّارة، فقُتِلَت بقرتين، ومزّقت ستائر البيوت،وسكبت الغبار على بلور النوافذ، وأوقعت بيتونة البيت المجاور، وحوّل الانفجار نهار القرية إلى مأتم كبير. عرف الجميع ما جرى، لكن القصّة تحوّلت إلى أسطورة، تتناقلها الألسن، الأمر الذي جعل قادة الصحوة في المنطقة يُطلقون اسم طارق على الجسر، بدلاً من اسمه القديم الشائع، الجسر العائم الذي بَنَته القوّات الأميركية بعد الاحتلال، وَسَمّتهُ جسر المأمون على اسم محافظ المدينة.

أن يعيش الإنسان فترة طويلة مثلي، يراكم فيها أفكاره ومشاهداته على مرّ السنين، يتلمّس - بعض الأحيان - غرائب في الحياة، يظنّها معجزات، لكنها هكذا تحدث دون تفسير. فطارق الذي مات مع الانتحاري كان صورة طبق الأصل من أبيه طالب. الصورة التي رأيتُه عليها ذات ظهيرة واقفاً أمام بيتهم الطيني، ثمّ لاحقاً حين صار زميلي في مدرسة المعرفة، حتّى أصبح شاباً، وتطوّع في شرطة النجدة قبل مجيء الأميركان بفترة طويلة. الشوارب السود الكثّة، والعينان التتريتان المنتفختان فوق الخدّين، والفم العريض، والشعر السرح المنسدل على عينيه، بل حتّى الضحكة الممطوطة التي تنطلق فجأة، هي ذاتها ضحكة طالب، أو ضحكة ابنه طارق. صورته، بملابسه العسكرية، تتأرجح شاحبة على عمود من خشب الصفصاف، مثبت جنب غرفة الحراسة.

لاحظتُ أن النقطة في كتف جسر طارق من جانب قريتنا خالية من الشرطة، وكذلك النقطة المقابلة لنا في الجانب الثاني، مما جعل الازدحام يصل إلى مستوى غير محتمل، فالجميع يرغب باجتياز الجسر، خاصة، وقد سرت إشاعة بين الناس أن الوحوش سيفجّرون الجسر في الساعات القادمة لمنع السكّان من الهروب. مسألة سيطرتهم على القرى مسألة وقت، قد لا يستغرق ساعات، وأغلب المدافعين في الخطوط الأمامية إمّا قُتلوا، أو انسحبوا بعد أن نفد عتادهم. ترك القرية للوحوش قرار خاطئ، وصعب علينا جميعاً، وسيُدخلنا في نفق، لا نهاية له، لكن البديل عن ذلك هو القتل واغتصاب النساء والدخول في منطقة محكومة بالرعب، كما سمعنا وعشنا ذلك لاحقاً.

كيف وُضعنا في كماشة هذه الخيارات؟ مَن هي الجهات التي رسمت لنا هذا السيناريو الذكي، وأبعدتنا عن ديارنا؟ بسبب الفوضى والازدحام استغرق عبورنا الجسر أكثر من ساعة، وحين وجدتُ نفسي في الضفة الثانية؛ حيث كانت الفوضى - هي الأخرى - تترنّح في الطرقات والشوارع والبساتين، سيّارات شرطة، قوى من الجيش تمضي نحو جهات غير محدّدة، قذائف هاون تنفجر في رؤوس النخيل على تخوم المدينة، فرار جماعي من كارثة قادمة، حضرتْ أمامي - بوضوح - جثة عمّي رشيد التي تركناها في التابوت. أيّ مصير سيلقى؟ هل تلتهمه الحيوانات الضارية؟ هل يدفنه أحد؟ هل يُترك في عراء الصحراء حتى يجفّ، ويتحوّل إلى مومياء؟ أم أنهم سيصبّون على جسده البنزين، ويحرقونه دون أيّ احترام لمهابة الموت؟ إنني أفكّر بذلك الآن أيضاً، وأشعر بالرعب. لقد مات عمّي، وماتت معه القرية التي أحببتُها، قلتُ ذلك بصوت مسموع، ونحن نتّجه إلى الطريق الذي يقودنا نحو المدينة، وكانت نادية الجالسة جنبي تنظر إليّ بدهشة، وهي تبكي؛ حيث إن الطريق الممتدّ أمامنا طويل، ومجهول الهدف.

# الفصل الرابع

خالتي سميعة أحبت عمّي منذ الصغر، ولدت له خمسة أبناء وثلاث بنات، رفضت - في البداية - مغادرة بيتهم حتى تدفن عمّي؛ إذ لا يصحّ تركه في العراء، قالت باكية، مهما كانت الظروف. توسلت بالجميع السماح لها بالبقاء في القرية؛ كي تقرّر مصير رشيد، لكن أولادها أجبروها على الركوب في السيارة، وهي تقيم - اليوم - مع أولادها وكنائنها في كركوك، وتحمل مرض سرطان الثدي، وارتفاع الضغط والسكّري، وتتحدث يومياً - تقريباً - في التلفون مع زوجتي نادية. خطبت خالتي سميعة لعمّي رشيد، كونها ابنة عمّه، وجميلة، لدرجة أن الجميع كان يتحدّث عنها. عُدّت مثالاً لفتيات القرية بحُسن الوجه والطول الرشيق والعينين السوداوين المختلطتين باللون القهوائي والأسنان البيض المنتظمة والنشاط، فهي تُنجز أكبر رغيف خبز بيديها، وتطبخ ألذّ أنواع الزرّ، وفوق هذا، تمتلك صوتاً جميلاً حين تبدأ الغناء، وهي تحصد، أو تحشّ البرسيم والجت للبقر، أو تجلب الماء ببرميل من الساقية. ساعداها الأبيضان يلمعان في الضوء مثل فضّة مجلية حين تقف على التنور، تحرثه بالمحراث الأسود المصنوع من جريد النخل، ممشوقة القدّ، تلبس ملفعها الأسود مثبتة إياه بالكلاب الذهب، وتضع عصابة عليه من الابريسم مهذبة الحوافّ. تلك هي أوضح صورة لخالتي سميعة ترتسم اليوم في رأسي.

أتذكّر عمّي، وهو يتنقل من بيت إلى بيت بسيارته اللوري نوع فولفو، يجلب الصخور من المقالع، وعيناه شابحتان في الوجوه الأنثوية، بابتسامته الكاشفة عن أسنان بيضاء، تشتعل بالوهج تحت شاربين خفيفين أسودين وشعر ممرّغ بالبريل كريم وعطر الريفدور. في السنة التي خُطبت فيها خالتي سميعة، صارت وظيفتي توزيع المياه على العاملين في بيتنا الجديد، بيت الصخر الذي يقع قرب السدّة. أخيراً سنودّع بئر الماء، وغرف الطين، وغبرة أمّي التي تُثيرها حين تكنس الحوش الترابي، وكيس الجراد. هذا رغم أن بيتنا الجديد سيكون أبعد عن المدرسة من القديم.

عند الصباح، أحمل سطل الماء من الزير، وأمضي إلى الجنوب، بين

بساتين النخيل، عبر الدرب المحاط بالشوك، متجهاً نحو موقع البناء. انتشرت حمّى بناء البيوت الصخرية في القرية مثل وباء، فأينما يدير المرء وجهه يرى مجموعة من الناس تلتمّ على الصخور، تحفر الأسس، وتصنع الملاط، وتحمله بطاسات حديدية إلى البنّائين، ومساعديهم. تنطلق منهم بعض الأحيان هوسات، وأغان تصم الفضاء، يختلط الرجال بالنساء، وتُثار الغبرة من الجض حتّى تصل ذرى النخيل، وأشجار التوت والصفصاف المزروع على ضفاف السواقي، وعمّي رشيد يدور بسيارته ناقلاً الصخور، معابثاً الرجال، ومتصيّداً لعيون النساء. اتّفق عمّي وأبي وجدّي على بناء بيتين، واحد كبير لنا، وقدّامه بيت ثان لعمّي فاضل وزوجته صبرية، زوجته العاقر التي فقدت الأمل بمجيء طفل لها، فتبنّت أخي مصطفى، وصار مُدلّل البيت، الأمر الذي كنتُ أحسده عليه طوال حياتي. أصل أنا عند اشتداد الحرارة، فأجد سليمان البنا ينحني على الجدار، وسيجارته في فمه، يعدّل، ويكسر، ويشذّب، حتّى يصل إلى حجم ملائم للحجارة، فيدسّها خلف الخيط، وفوق قبضة من الجصّ، ثمّ يتقدّم خطوة إلى الأمام، وهكذا. أتجوّل أنا بالسطل بين الغرف والممرّات والحوش، أعرض المياه على العمّال وناقلي الصخور وجامعي الكسر واللبّاخين، فلا تمرّ ساعة إلا وينفد الماء؛ لأعود ثانية من الدرب ذاته إلى أمّي، مالئاً السطل من الزير مرّة أخرى، وأخرى. عمل مملّ، لكنني كنتُ سعيداً، فخلال توغّلي بين النخيل، كنتُ أرقب الفاختات والغربان والزنابير، وأستجلي الأعشاش بين الليف والسعف، وأحفظ مواقعها؛ لكي تكون هدفاً للهجوم في أيام أخر. في واحدة من تلك النهارات الصيفية الساخنة، كاد عمّي أن يتسبّب بموت قريبي ماهر، وكنتُ أنا أقف أمام البيت نصف المبني وسطلي فارغ من الماء، وأحدّق بدخان البنّا سليمان المتصاعد من سيجارته الجمهوري؛ ليسيل نحو الصخور وبقايا الملاط المتكلّس بين الجدران، وأمسح العَرَق من وجهي، وأنتظر وصول عمّي بسيارته المحمّلة بالصخور. الناس صار لديها فلوس، فلماذا لا تبني بيوتاً من الصخر؟ سمعتُ سليمان يخاطب عمّي فاضل الواقف في مدخل الغرفة الطويلة التي ستصبح مضافة البيت. كان يمجّ سيجارته بلذّة، وعمّي فاضل يستعجل العاملين لإكمال البيت، والبدء ببيته هو. لقد تغيّر الزمن. لم تعد الناس تقتنع بحياة البدو او الفلاحين، بدلاً من الكتاتيب، أصبحت لدينا مدارس، والمدينة توفّر فرص عمل للجميع. حتّى الفجل، صرنا نجلبه من المدينة، يقول عمّي فاضل، وهو يرتّب غترته على رأسه الذي دبّ فيه الصلع. ما إن ننهي بيت أبيك حتّى نبدأ ببناء بيتك، لن يمرّ الصيف حتّى تجد نفسك في مكان نظيف، يقول

سليمان ضاحكاً، لكنْ؛ عليك أن تُكثر لنا الثريد واللحم في الغداء.

سمعتُ صوت سيّارة عمّي، وهي تنزل من السدّة متّجهة إلينا. صوتها يشبه زئيراً، يتصاعد دقيقة بعد أخرى، كلّما اقتربت من المكان، وهي دلالة على أنها مثقلة بالصخور، فتركتُ أنا السطل في المدخل، وركضتُ باتجاه السيّارة. كان ماهر يقف في بداية الطريق، يلبس دشداشته الشتوية البازة، ويملأ جيبه الزّرّ بالتمر الخستاوي غير الناضج، كان لديه نخلة صغيرة في البستان، أخبرنا جميعاً أنها نخلته. وتلك الظهيرة، صعد ماهر النخلة، وحاش التمر غير الناضج، وحشاه في جيبه. شعره أشعث، ووجهه أسمر، شوتهُ الشمس، فأصبح مثل قطعة من الصخر، وشاهدتُهُ يقف على كتف الطريق متأهّباً للقفز. التعلّق بالسيّارة من الخلف شكّل لنا متعة فائقة تلك الفترة من طفولتنا، هي وركوب الدرّاجة الهوائية والسباحة في قنوات الماء. كانت حافة الطريق عالية، تنتأ منها عروق الشوك والعاقول، وتنمو على كتف الطريق الحلفاء الصغيرة الزلقة، وما إن حاذت السيّارة ماهر حتّى أمسك بطرفها الخلفي، وتعلّق بها، لكن جسد ماهر لم يحالفه الحظّ بالتوازن، فمال عن المؤخّرة، وانحشر بين حافة الطريق والعجلات. لم يعد ماهر يمتلك غير الصراخ، وقد بدأت العروق تنغلّ في جسده الأعجف، ويقترب قليلاً قليلاً من العجلات المطاطية الثقيلة، وتعلّقت دشداشته بالزاوية الحادّة من الباب الخلفي الذي يحافظ على الصخور في الصندوق. صراخ ماهر وصل إلى قسم من العمّال القريبين من نهاية الطريق، لكن عمّي ظلّ محدّقاً في الفسحة الأمامية، سارحاً بالمكان الملائم الذي سيضع فيه الحجر. لم تلتفت عيناه إلى المرآة الجانبية المثبتة إلى يساره، المرآة التي تبرز جسد ماهر مسحوباً خلف السيّارة، كما لو كان كيساً من التمر. ثمّة أمر يحدث، أكيد أن العمّال خطر لهم هذا الهاجس، وهم يسمعون الصراخ القادم مع عمّي، فبدؤوا يرسمون بأيديهم علامات، تدعوه بالتوقّف، الأمر الذي فهمه عمّي بسرعة، فضغط على الكابح، وتوقّفت السيّارة في مكانها. كان ماهر على مسافة سنتمترات من عجلات السيّارة الخلفية. ما حدث بعد ذلك غيّر شخصية ماهر ابن خالتي، بشكل جذري، أُصيب بالصرع، وصار يتناول حبوباً، لا تُحصى، وفقد النطق لفترة، ثمّ استعاده، غير أنه أصبح يتأتئ بالكلام، ويعاني صعوبة فائقة في التقاط أفكاره، وظلّ عمّي - لفترة طويلة من حياته - يشعر بالذنب، إلا أن شيئاً واحداً، برز في شخصية ابن خالتي، لقد صار ذكياً، أذكى منّا جميعاً، بل يُعدّ من المتميّزين في مدرسة المعرفة، ولاحقاً، تفتّقت لديه موهبة، لم تكن متداولة في قريتنا، هي الشعر. أصبح ماهر من عشّاق الشعر والخيال

والقراءة رغم صغر سنه. في السنوات اللاحقة، كان ماهر أول مَن أنشأ مكتبة شخصية في القرية، تضمّ كراريس لقصص، يشتريها من سوق المدينة، قصص للزير سالم، وغزوات الإمام عليّ، وكتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور، وقصص الأنبياء، وعنترة العبسي، والسندباد البَحري، وحكايات أبو نوّاس، ونوادر جحا، وغيرها من الكُتُب. وهو أول مَن بدأ بكتابة القصائد العمودية؛ ليتطور لاحقاً بعد عشرات السنين إلى كتابة الشعر الحُرّ؛ لينشر بعد تخرّجه في كلّيّة الهندسة ديواناً غريباً على أسماعنا، سمّاه الوقوف على الحنجرة. كان عمّي يتنذّر عليه في جلساته الليلية، ويقول: هل سمعتُم بشخص، يقف على حنجرة؟ لو يجلس عليها، أما كان أفضل له ولنا؟

أصبح ماهر مرجعاً لنا نحن أقرانه في معرفة أنواع السعد في الحقول، والكلمات التي حين نردّدها تطرد الأفاعي عنّا، وأسماء عواصم دول العالم، وأنواع النخيل في بساتيننا. وبرع في صنع الأفخاخ التي نصيد بها البلابل، وأبا شميّغ، وأبا الحناء، والفاختات، والعصافير، ويعرف خارطة الأعشاش كلها في بساتين النخيل، وهو الوحيد الذي يمتلك الجرأة في صعود النخيل العالي، كما أنه لا يخاف من الزنابير، لا السود، ولا الصفر، ويعرف أسماء النباتات في الحقول كالحويرلة، والحمقاء، والنفل، والكعوب، والبطوش، والسليل. حتى سمّته أمه، وهي خالتي طليعة، بالولد المعجزة، وكانت تخاف عليه بعد أن أُصيب بالصرع من النهر والسيّارات والكلاب، وكادت أن تربطه داخل البيت خوفاً من مرافقة الأولاد إلى النهر للسباحة. في تلك السنة التي أُصيب بها ماهر، لم يفارق البيت، وظلّ شهرين نائماً في الفراش، يتناول الأدوية، وتهزّه نوبات الصرع بين أسبوع وآخر، ممّا حرمه لفترة طويلة من السباحة في النهر، أو تسلّق النخيل.

ذات نهار مشرق، ولا غبار فيه، عُدتُ من المدرسة، واتّجهتُ كالعادة إلى بيتنا الطيني بعد أن مررتُ بالبئر، فوجدتُ الباب مفتوحاً، والحوش خالياً، ليس هناك زير واقف عند الزاوية، لا أمّي ولا جدّتي ميّاسة، أبواب الغرف الخشبية مفتوحة، والصمت يخيّم على الجدران والسطح، وآثار المياه واضحة في المكان الذي كان الزير منصوباً فيه، وثمّة فسائل صغيرة من النخيل تنمو هناك، تتقافز بينها عصافير رمادية، طارت ما إن دخلت الحوش. لقد رحلوا، قال لي ماهر بصوت عالٍ، ولا أعرف كيف خرج لي من اللامكان، لقد انتقلوا إلى بيتكم الجديد، نحن - أيضاً - سننتقل إلى هناك حين يكتمل بناء السطح. أحسستُ بالخوف من ماهر، فمه يلوك التمر،

بصوت عال، وعيناه تنظران إليّ بثبات. لقد تشافى من ذلك الحادث، لكنه لم يعد إلى المدرسة إلا بعد سنتين. يعود خوفي - ربّما - إلى أنني رأيتُه أكثر من مرّة، يسقط متلوّياً على الأرض، بسبب الصرع، والزبد يخرج من فمه، وعيناه جاحظتان، ويتعالى منه شخير مرعب. ولم يعد يرافقنا إلى السواقي للسباحة، أو النهر في الصيف، كما لم يعد يتسلّق النخيل باحثاً عن أعشاش الطيور، هو البارع بذلك. أمّه طليعة حرمتهُ من مُتع كثيرة في حياته، ووجّهته نحو الدراسة فقط. شعرتُ بالتعالي على ماهر، فوضعتُ حقيبتي القماشية حول رقبتي، وقفزتُ راكضاً في الطريق متّجهاً إلى هناك، إلى بيتنا الصخري. نعم، هكذا انتقلت القرية إلى المرحلة الصخرية من حياتها.

وأنا أحدّق من هذا المكان إلى تلك المرحلة، رغم أنها قصيرة، مندغمة بالطفولة، وهي ملوّنة مثل الفراش في الحقول، لكنها حفلت بمتغيّرات هائلة في حياتنا. بعد انتقالنا إلى بيتنا الصخري، جلب عمّي رشيد لنا ذات ظهيرة، وهو عائد من معسكر التدريب الواقع في الحبّانية، راديو نوع فيلبس، يشتغل على بطارية مستطيلة، وكبيرة الحجم، ترتبط مع الراديو بأشرطة من البلاستيك. كان ذلك الراديو أهمّ مؤشّر على المرحلة الجديدة. أضيف ذلك الراديو إلى حياتنا، وغيّر منها الكثير، صار جَدّي يستمع إلى المسلسلات البدوية والمغنّين الريفيين القادمين من جنوب بعيد، نسمع به فقط، لكننا بدأنا نتلمّس لهجته المختلفة قليلاً عن لهجتنا، إلا أن جَدّي كان يفهمها، بوضوح، ويتغنّى بها في أيام وحدته، ولطالما أخبرنا أنه تاجر مع مُدُن بعيدة، وأصقاع نائية في مرحلة ما من مراحل حياته، جدّي الذي احتلّ غرفة الضيوف بتبغه وفراشه وسجّادة صلاته.

تصميم بيتنا يختلف عمّا كان عليه، فمع أن الحوش ظلّ هو المركز في البيت، إلا أن تفاصيله الأخرى كانت تُدهشني دائماً. غرفة لعمّي وغرفة لأمّي ومجاز يقود إلى المضافة، وغرفة بلا باب في نهاية الحوش، كانت مثل مخزن، نطبخ فيها على موقد محفور في الأرض، وتشعله أمّي، ولاحقاً خالتي سميعة، بالعروق أو سعف النخيل والكرب وروث البقر، وفي الشتاء، عمد جدّي إلى وضع بارية، تسدّ واجهة المجاز؛ كي تصدّ ريح الشتاء وبرده، غير أنها تجعل الدخان ينحصر في المجاز، ويتكثّف في أثناء الاشتعال، فيصبح طبقة كثيفة بيضاء، تسبّب الحرقة في العيون، وتسدّ النفس. هناك عادة ما نتاول الفطور، خاصّة في الشتاء. نسمع الرعود في الغيوم، ونرى المطر يهطل على أرضية الحوش الإسمنتية، بينما نتمتّع نحن بنار الموقد

غير عابئين بالبرد في الخارج، ولا الدخان الذي يعمي العيون. يرتفع القمر في الليل من وراء شجر الصفصاف الممتد مع الساقية، يبدأ نوره الوهّاج يضيء ليل القرية كاشفاً عن بساتين النخيل والبيوت البيض المبثوثة هنا وهناك، ويرتفع ما إن يتربّع القمر مكتملاً على صفحة السماء المزيّنة بالنجوم، صوت البوم، وهو يتنقل من شجرة تين إلى أخرى، باحثاً عن الفرائس قرب مخازن الحطب وتلال التبن. تحت نور ذلك القمر تجري القصص. وتتصاعد الأحلام. تنام القرية باكراً، وتنهض ما إن يشقّ الفجر ستارة الليل، وتنتقل الحياة من برهة السبات والصمت إلى برهة الحركة والضجيج. تُفتح الأبواب الحديدية، يُحشى التنّور بالسعف والعروق، تنطلق الديوك بنداءات غير مفهومة، يوقوق الدجاج الجائع، ويمشي البشر في الدروب متحذرين إلى الحقول.

عمّي رشيد ترك قيادة السيّارة الفولفو وتسكّعات العصارى في طرقات القرية، والتحق بالجيش؛ كي يؤدي الخدمة الإلزامية، وينام هناك في معسكر الحبانية، ولا يزورنا سوى في يوم إجازته، وهي عادة ما تكون في الجمعة. الأحاديث في بيتنا كانت كلها تردّد الترتيبات الجارية لعرسه. جدّي بدأ يجلب الرزّ والسكّر والشاي والهيل والصابون من المدينة، وتكدّسه أمّي في المخزن، واشترى ثلاثة خرفان سمينة، ربطها خلف البيت في حقل الجت الذي زرعناه هناك للبقرة. يريدها أن تسمن أكثر؛ ليتم ذبحها في يوم الدخول. جدّتي مياسة وأنا ننام في المجاز المجاور للمضافة، بينما ينام أخوتي مع والدتي في الغرفة، أمّا في الصيف؛ فالجميع يتكدّس في الحوش على أرضية إسمنتية ناعمة، وبينما ينام أخي الكبير مصطفى في بيت عمّي فاضل وعمّتي صبرية.

غرفة عمّي تكتنز أثاث العرس: السرير العريض المحاط بملاية بيضاء، ترتكز على أربعة قضبان، اثنان من كل جانب، تنتهي القضبان ببرج صغير، لونه ذهبي، والخزانة الخشب ذات الأبواب الأربعة، مع مرايا في الوسط. جهاز العرس من ثياب نسائية ورجّالية وأحذية، وعطور كان عمّي يجلبها خلسة، ويضعها في كومدينا صغيرة، ويقفل عليها بمفتاح، لا أحد يعرف أين يضعه. أبي كان غائباً عن صورة تلك الأيام، فلم أستطع تخيّل وجهه؛ لأنه - دائماً - في عمل ما، بمكان بعيد، يشتغل على حفّارته السلكية، إمّا في جسر من الجسور، أو لدى شركة لحفر الأنهار، أو تعبيد طريق بين المُدُن. تنبثق صورة جدّتي من العدم، من خلف ستار السنين، مثل حلم، غادرني قبل أن أفتح عيني من نوم عميق. أين وُلدت جدّتي في تلك القرى

المنتشرة على النهر؟ وكيف كان شكلها أيام الشباب؟ ومَن هو أبوها وأمها؟ ومَن هو الرجل الذي كان زوجها قبل أن يتزوّجها جدّي؟ ماذا تحبّ؟ وماذا تكره؟ وما هي الألوان التي كانت تحبها؟ كلها أسئلة غامضة، تخطر لي اللحظة دون أن أصل إلى جواب. فتحتُ عينيّ، وكانت جدّتي ميّاسة هناك، في بيتنا، أصبحت جدّتي، ليس لأنها أمّ أبي، أو أمّ أمّي، بل لأنها زوجة جدّي فقط، ومن بين أخوتي جميعاً، اختارتني جدّتي؛ لكي تحبّني، وجعلتني أنام معها في فراش واحد.

هل كانت جدّتي ميّاسة فرحة بزواج عمّي رشيد من خالتي سميعة؟ لا أعرف، ولا أتذكّر أحاسيسها آنئذ. لكنها كانت مثل غيرها في البيت مشغولة بترتيبات زواج عمّي. ترمقه بحبّ من بعيد، كما لو كانت تخجل من إظهار عواطفها، تتراقص عيناها من السعادة ما إن تحدّق فيه، تتلعثم، كلّما سألها عن صحّتها، خاصّة حين يعود من إجازاته بعد غيبة طويلة، أعتقد جازماً أن جدّتي ميّاسة تحبّ عمّي أكثر بكثير من حبّه لها. وأتذكّر - مثل برق سريع - وقفات عمّي في أثناء الإجازات في شبّاك غرفة أمّي المطلّ على الفسحة الواقعة أمام بيتهم، وكانت خالتي سميعة تقف - عادة - جنب التنّور المثبت على كتف الساقية أمام البيت، قرب مخزن الحطب، وهي تخبز وجبة الظهيرة، أو العشاء، يذكر - هنا - أن بيت أخوالي بني مجاوراً لبيتنا. البيت الذي تغرب الشمس خلف أشجار حوره المزروعة على كتف الساقية. يحدّق بها من الشبّاك، ويبتسم، ويبادلها إشارات، لم أكن أفهم معناها، وكنتُ أنا أتسلّل - عادة - وراء عمّي، وهو يدخل الغرفة؛ كي يغازل خالتي من بعيد.

قبل أن يتزوّج عمّي بشهر تقريباً، جاءني، وكنتُ أجلس مع جدّي في المضافة، أقرأ في كتاب القراءة، وأحاول فكّ الحروف والتأمّل بالرسوم الملوّنة التي تُنبئ عن قوارب نهرية، وبقر في الحقول، وقرى ينتشر فيها المزارعون، وطائرات ورقية ملوّنة، تحلّق في سماء زرقاء، وقطط صغيرة تلعب مع الخيوط، وكان دخان جدّي ينتشر في فضاء المضافة، وهو يجلس متّكئاً على مخدّة عالية، يحدّق من الشبّاك إلى حقل الجت خلف البيت، وبستان النخيل الممتدّ بعده باتجاه بيتنا القديم، وحدستُ أن جدّي منغمر بذكرياته العتيقة حين كان بدوياً، يسوق قطعان الغنم إلى الصحراء، ويعود بها في الصيف؛ ليستقرّ عند ضفّة النهر؛ أي في المنطقة التي أصبحت قريتنا فيما بعد. أفكّر - الآن - أنني لم أعرف دخيلة جدّي كما يجب، هو الذي عاش مقدار قرن من السنين، وتزوّج مرّتين، ودفن عشرات

من معارفه وأقربائه.

جاء عمّي من المضافة باسم الوجه، وكنتُ أجلس في غرفة أمّي مشغولاً بصناعة مفقاس صغير لصيد الطيور، وقال لي انهض، سنقوم بجولة. وكان الوقت عصراً في صيف حارّ من الأصياف العديدة التي عشتُها في تلك البقعة النائية التي احتلّها الوحوش. وقت العصر في القرية لا يشبهه أيّ وقت آخر، فلكل وقت طعمه ولونه ورائحته، ونادراً ما تتشابه فصول القرية، أو نهاراتها، رغم أنها تبدو متشابهة للوهلة الأولى. العصر يعني الهدوء والركود والتوقّع، نهاية يوم حافل من السقي والحصاد والحشّ والكنس والزيارات السريعة وشرب الشاي في الفسح بين البيوت. تجهيز الطعام للبقر، والتهيّؤ للعشاء. كما أنه الوقت المفضّل للتجوال على السدّة لدى الشباب. ليس هناك سيّارات في طريق السدّة الترابي، بعد رجوع الباص الخشب في الظهيرة تنقطع وسائط النقل إلى المدينة إلا في حالات نادرة، ربّما في ليالي الخميس حين يعود العاملون في مناطق بعيدة، والجنود إلى بيوتهم مستأجرين تاكسيات، تخصّهم وحدهم؛ كي تُوصلهم إلينا.

والنساء الكبيرات كنّ يجلسنَ في فسحات البيوت، أو أمام بيوتهنّ، يرقبنَ الدجاج، ينقر الحبّ على أطراف الحقل، أو يغزلنَ الصوف؛ لنسج عباءة، تُستخدم لحمل العشب، أو يحكن بخوص النخيل سجّادة للصلاة. الشابّات يرغبنَ بالخروج إلى الطرق، فيتحجّجنَ بجلب المياه من الساقية، أو جلب الحشيش للبقر من الحقول البعيدة عن البيوت، يذهبنَ جماعات جماعات، كما لو يستعرضنَ مفاتنهنّ على طيور النخيل، وبلابل البساتين، ورعاة الأغنام على أطراف القرية. جعلني عمّي أحمل البطّارية الثقيلة بين يدي، وقد فضّلت لها أمّي بيتاً من القماش الملوّن، ولم يبرز من البطّارية سوى السلكين الناتئين في الأسفل الممتدّين نحو مؤخّرة الراديو. أخي مصطفى ذهب مع عمّي فاضل إلى المطحنة، وحين حاذينا باب بيتهم، كانت عمّتي صبرية تكنس الفسحة أمام البيت التي يبتدئ منها الطريق نحو السدّة.

الأشدّ دهشة بدخول الراديو إلى البيت، كانت جدّتي ميّاسة. ذات ليلة، وحين كان عمّي يجلس أمام باب المضافة، منغمراً بسماع الأخبار، وجدّي يجلس على فراشه مدخّناً التبغ بمشربه المصنوع من الخشب، قالت جدّتي، بصوت هامس: قل لي، يا رشيد، أين يجلس هؤلاء الناس؟ وكيف ينامون، ويشربون؟ وهي تشير إلى جرم الراديو الخشبي الصغير الموضوع

على الأرض. ضحك جذي، مستخفاً بعقلها الساذج، وأجابها عمّي أنهم بشر صغار، لا يتجاوز حجم الواحد منهم حجم النملة، لذلك فالمكان كاف، وزيادة، وابتسم عمّي هو الآخر لسذاجة أمه، التي اقتنعت - على ما يبدو - بالجواب، وتركت المجلس ماضية نحو قدر الحليب؛ لتعده للتخثير. ذلك العصر كان عمّي يمشي أمامي حاملاً راديو الفيلبس، سعيداً بنفسه وشبابه، وصوت المذيع يُلعلع بأعلى صوته في الهواء، وأنا أسير خلفه مقدار خطوة، أمسك البظارية الثقيلة، وأمشي بحذر؛ كي لا أفقد ثقة عمّي بي. كان واجباً ثقيلاً عليّ، أحسستُ بنفسي، وكأنني أمتلك جميع الأعشاش في النخيل، وكل ثمار التين في بستان إبراهيم، وجميع برتقال فرّاش المدرسة حمّاد عيد. أمتلك الفراش الملوّن في حقول الجت وحمير آل طه وطلع النخيل وحلويات دكّان زابط المضحي والتماعات زنابير الذهب في أنوف النساء.

عمّي - هو الآخر - كان يمشي بخيلاء ضابط شرطة، معنوياته الذكورية مرتفعة، فكان يمشّط شعره المدهون بأصابع ثابتة، يزيّنها محبس من الذهب ذو فص أسود، لا أذكر منذ متى، وهو يرتديه، ولا أعرف كيف حصل عليه. عادة ما يرتدي عمّي دشداشة بيضاء ناصعة، تشفّ عن لباسه الداخلي الطويل الأبيض المصنوع من البوبلين، ويكاد يصل ركبتيه، وهو اللباس الداخلي الذي كان شائعاً بين شباب القرية.

نمشي في الطريق الترابي الممهّد، ونجتاز بيت زيدان، ونتسلّق الصعدة العالية؛ لنصير في قمّة السدّة؛ حيث يلوّح لنا النهر مثل خطّ أزرق عريض. نحو الشرق، باتّجاه المستوصف، نمشي على مهل، وكان عمّي ينظر إلى الحقول، علّه يقع على ثوب ملوّن لفتاة. ومن جانب النهر، يمكن رؤية المطحنة، ونافث الدخان فيها، وهو يبصق الدخان الأسود إلى السماء، وحول المطحنة عدد من الحمير، ورجال يدخلون، ويخرجون من البناية الحجرية، وغبرة الطحين تتطاير من السقف. أخي مصطفى وعمّي فاضل هناك. لكنني لا أراهم. نحاذي بيت الملا ذياب، وقد درس عمّي في مدرسته، وتعلّم قراءة القرآن، وكتابته، يبحث عمّي من خلال الميل عن إذاعة، تبثّ الأغاني الريفية، وحين يجدها يرفع الصوت إلى آخر المدى، وهو يبتسم مع نفسه، ويحدّق في البيوت، كما لو كان ينتظر إشارة الاستحسان، من كائن ما. الأغنية لرجل، صوته حزين مبحوح، عرفتُ - بعد سنوات - اسمه الفنّي، وهو داخل حسن، وقد سمّى المختار حسن ابنه عليه. كان هناك ليل وسهارى وعذّال، وضعون مسافرة، وهجران وأشواق ليلية، تُبثّ إلى النجوم.

يتلبّث عمّي عند بيت الملا، ويتمهّل في مشيه، صوت الأغنية يدوّي من الهواء، وينزل مطراً على الدالية أمام البيت، يتغلغل في السقوف المصنوعة من الطابوق، وينتشر مع أعراف الدجاج السارح قريباً من مخزن الحطب. أول صوت غير بشري ينطلق من جهاز، ويخلخل هواء القرية منذ ملايين السنين. عرفتُ - لاحقاً - أن عمّي كان مولعاً بابنة الملا المسمّاة مقبولة، ورغم أن لا أحد يصرّح بهذه القصص، لكنها تظهر من خلال أحاديث النساء عند سهرات الليالي، وفي الحقول، وعند المطحنة حين تجتمع نساء القرية لتوضيب أكياس الطحين وخياطتها. مقبولة - كما أتذكّرها - فتاة طويلة سمراء، تلفّ رأسها بملفع أسود مزيّن بكلاّب من الذهب، وأحياناً في أوقات الأعراس، تضع ورق الياس الذهبي على عصابتها الابريسم، ولها في وجهها شامة جميلة، وأسنانها بيضاء، حين تبتسم، تضيييء الليالي، وتستلّ الفرحة من القلوب. قيل إن عمّي كان يلاحقها من بعيد في الحقول، أو وهي في طريقها لملء البرميل بالماء من الساقية، وحتى حين تقف على التنّور للخبز، هذا قبل أن تصبح خالتي خطيبة رسمية له. أحلى من التمر الخستاوي، أطيب من تشريب اللحم، حلقوم، بطيخة ناضجة، أسمع عمّي يبربر بهذه الكلمات التي لم أفهم معناها في وقتها، وأشعّة ناظريه تلقي شباكها على البيت. وبمشي خفيف متمهّل، كان خلاله يرجّل شعره بيده، ويمسك الراديو مضغوطاً على خصره، يحدّق عمّي بمقبولة، وهي تقف جنب التنّور، تعدّ الحطب؛ لوضعه في التنّور استعداداً لخبز العشاء. سمعتُ أنا لغطاً كثيراً عن غزوات عمّي الليلية إلى بيوت بعيدة عنّا، وهمسات عن علاقات مع نساء متزوّجات ومشاوير، لا يعود منها إلا عند طلوع الضوء، لكن ذلك حدث - كما سمعتُ - قبل أن يلتحق عمّي بالجيش في قاعدة الحبانية. بعد سنوات من تلك الحادثة، تزوّجت مقبولة من مشغّل ماكينة مياه، بنى لها بيتاً صغيراً، عبارة عن غرفة واحدة، يحيط بها سياج من سعف النخيل، وذات يوم، رجع زوجها مبكّراً بعد عطل مضخّة المياه، ووجد تاجر الغنم عبدالله مع زوجته في الغرفة، فما كان منه إلا أن استعار مسدّساً من أحد أقربائه، وقتل مقبولة بطلقتين في الرأس قبل أن تلد ابنه؛ إذ كانت حاملا في الشهر الثاني كما تداولت النسوة الخبر في مجالسهنّ الليلية. ولأنني قصير، والشوك المحيط بالسدّة من الجانبين كان عالياً، لم أستطع رؤية مقبولة - بوضوح - في تلك اللحظة، ولا ما كانت تفعله لعمّي من بعيد حتى تجاوزنا بيت الملا، واتّجهنا نحو المستوصف الصحّي. حقول واسعة مزروعة بالرقي والباذنجان والطماطم واللوبياء والباميا، وثقة قرويات يتجوّلنَ

فيها مفتشات عن الثمار، ورجال يحملون المساحي لسقي الحقول، تأتي - بعدها - ضفاف النهر؛ حيث شجر الحلفاء المتطاول، والمطحنة الواقفة بقلق على الجرف. وفي هدأة العصر المتأخّر، سمعتُ الديوك تصيح من بيت ساعي، وبيت طه، وبيت فرّاش المدرسة، وصار الراديو يغرغر بوشيش وفرقعات وصفير، يدلّ على اختفاء الإذاعة، ولم يلتفت عمّي لذلك، وظلّ ماشياً يقودني نحو الشمال، حتى حاذينا المستوصف، فقرّر النزول إلى الطريق. كان المستوصف مغلقاً، المضمّد عبد غادر منذ الظهيرة كعادته، وشاهدنا الباب الحديدي الأحمر مغلقاً بقفل ضخم، ولكن رائحة الأدوية ما تزال تعبق في الهواء.

الراديو - كما أفكّر الآن - حقّق نقلة هائلة في حياتنا تلك السنين، فتح نافذة للجميع على العالم، فرحنا نترقّب أخبار القتال في فيتنام والجزائر، والصراع بين أميركا والاتحاد السوفيتي، وأخبار القتال بين الفدائيين واليهود، وتأتينا تعليقات غير مفهومة عن الحرب الباردة بين الشرق والغرب، كما رحنا نتتبع مسلسلات، تبثّ عن حياة المدينة والعاصمة وهموم الشباب التي تنقل عبر رسائل المستمعين، فضلاً عن تشكيلة رائعة من الأغاني الجديدة الراقصة. جدّي لا يملّ من سماع البرنامج البدوي والأغاني التي تبثّ فيه، بينما كانت أمّي وخالتي سميعة تتابعان المسلسلات المبنية على قصص الحبّ والعشق. وبدأتْ عبر الراديو تصل إلينا ما يجري في العاصمة من انقلابات ومظاهرات وأخبار حركة الجيش، وكنا نترقّب ذلك كل ليلة، فيما كان الجميع يجلس في المساء مستمعاً إلى آخر نشرة للأخبار.

يتوغّل بي عمّي في الطريق نحو المدرسة، المعلّمون يلعبون مع الطلاب الكبار الكرة الطائرة، يسلّم عمّي على الجميع من بعيد، ثمّ ينعطف بي نحو دكّان زابط المضحي. يسألني ونحن نمشي إن كنتُ تعبتُ، فأجيبه بلا طويلة، وكانت يدي تؤلمني حقاً. لا أريد أن أخفق في المهمّة التي أوكلها لي عمّي. دكّان زابط يقع أمام بيت كامل أبو الغزلان، وهو عبارة عن غرفة واسعة مكعّبة، وضع زابط أمامها طاولة وأريكتين خشبيتين، تغطّيهما المفارش الصوف الملوّنة. ووجدنا أربعة لاعبين، يتبارون لكسب الرهان، اثنان يخسران، واثنان يربحان، وقطع الدومينو الصفراء تمتدّ مثل دودة أمّ أربع وأربعين. نريد أغنية، نريد أغنية، بدأ الجميع يصيح بصوت واحد، فجلس عمّي على طرف الأريكة، ووقفتُ أنا خلفه حاملاً البظارية، وبعد أن تعبتُ جعلتُ ثقلها على حافة الأريكة، فشعرتُ بالراحة. لا أعرف كيف وجد

عمّي أغنية لأم كلثوم، جاء صوتها معبأ بالآهات واللوعات والغرام. أربعة من شباب القرية، مَن يخسر يدفع ثمن زجاجات المشن الباردة التي شربوها قبل أن نصل وما تزال واقفة على الطاولة. قال مزهر، وهو الأكبر سناً بين اللاعبين، وذلك من خلال شاربيه الأسودين البارزين، دعونا نضيف رشيد وابن أخيه، وسيدفع الخاسر ثمن زجاجتَي المشن، وافق الجميع على الاقتراح. دخل زابط الغرفة المعتمة، وجلب لنا زجاجتَي مشن باردتين، رحنا نحتسيهما أنا وعمّي على مهل، ونحدّق بأيدي اللاعبين، وهي تصفّ حجر الدومينو ببراعة. في أرض الدكّان الترابية ابتكر زابط ثلاجته التي ذاع صيتها بين البيوت، جلب زيراً من الفخّار متوسط الحجم، وحفر حفرة في الأرضية، ثمّ دفن الزير حتى حافته العليا. يضع في الزير قناني المشن، والببسي، والكولا، في ماء قليل، ثمّ يلقي فوق ذلك كله قالباً من الثلج، ينشر قطعه على الزجاج، يوزّعها بدقّة بين القناني، ويفرش فوق الزير قطعة من الجوت مبلّلة، يقوم زابط بهذا الفعل منذ الظهيرة، استعداداً لزبائن العصر. ينتظر على السّدة، عند نزلة بيوت آل ساعي، يأتي الباص الخشبي المملوك لابن المختار، ينزل القالب الملفوف بالجوت، ويحمله على ظهره، ثمّ يتّجه به إلى دكّانه، وذلك كله يجري في الصيف، وفي الصيف فقط. في الشتاء، يتفرّغ زابط لبيع الصابون والحنّاء والسّكّر وملافع النساء والحلقوم والشاي والسجائر.

تمرق في السماء العالية طائرة صغيرة، تكاد لا تُرى في العين المجرّدة، لكنها تترك خطاً أبيض من الدخان في سماء القرية، وهي تتّجه نحو العاصمة، وأسمع صوتها الخفيض رغم أغنية أمّ كلثوم العالية. في الليل تمرّ الطائرات في سمائنا، نرى أضواءها المتغامزة بين النجوم، وينالنا العجب، كيف يمكن للبشر القفز بين النجوم؟ وكيف يستدلّ السائق على طريقه في هذه العتمة المطبقة؟ من أين يأتي هؤلاء؟ وإلى أين يمضون؟ ألا يخشون من النيازك الهاوية من السماء؟ أمّا في النهار؛ فتترك خطاً أبيض وراءها مثل أفعى طويلة، وحين تكون الغيوم منخفضة في الشتاء، نتأمّل - بذلك - الجرم الصغير الطائر فوق الغيوم، وهو يظهر، ويختفي كلّما برزت السماء الزرقاء. عجيب، كيف لطائرة أن تتوارى خلف الغيوم؟ هل يُعقل لجرم حديدي ضئيل، حمل بشر على متنها، وهي - بالكاد - تصل حجم يد صغيرة؟ حتى ذلك العصر، من تلك السنة البعيدة، لم يكن أحد في القرية جرّب الصعود إلى طائرة.

سمعتُ من الإذاعة أنهم في لندن وجدوا علاجاً للسّلّ، قال عمّي لزابط

الذي جلس على حافة الأريكة الثانية، بوجهه المصفر وجرمه الصغير، وعينه الوحيدة المبصرة الصفراء، محدّقاً إلى عمّي، بانتباه. لكنْ؛ متى يصل إلينا؟ المسافة بعيدة بين لندن ودكّاني، تساءل زابط بصوت راعش، وبانت على سحنته الصفراء تعابير اليأس، كما لو أن الموت يقف متأهّباً فوق رأسه. زابط يعيش من بضاعة دكّانه، يبيع الحلقوم للمعلّمين والطلاب، والسّكّر والشاي للفلاحين، ويجلب للنساء قشور الدارسين لطلاء الشفاه والملافع الابريسم والهباري الشفّافة الملوّنة للفتيات الصغيرات، والتبغ للرجال، وكان جدّي يشتري منه - بعض الأحيان - تبغه حين ينقطع عن المدينة. تبغ زابط حارّ، لا يُحتمَل، كنتُ أسمعه يردّد بعد كلّ سيجارة، إنه من النوع الرخيص. مات زابط بعد خمس سنوات من ذلك النهار في مستشفى التويثة الواقع في ضواحي العاصمة، وشاركتُ في دفنه في مقبرة القرية، وأغلق دكّانه، ثمّ تسلّم الراية من بعده عمّي فاضل حين انتقلنا إلى بيوتنا الصخرية.

كنتُ مسحوراً بذلك الصوت النسائي المتكسّر في الهواء مثل نوارس النهر الطائرة على الموج، ومسحوراً برائحة عمّي اللذيذة، وطعم المشن الحلو وتغريدات البلابل في بستان كامل أبو الغزلان المزروع بالتوت والنخيل والرمّان والتين. لا يمكن نسيان تلك السنوات، مهما حاصرتْنا الأحداث. عدنا في طريقنا ذاته، الذي قطعتْه ذات يوم من المدرسة إلى بيتنا القديم. أطفأ عمّي الراديو؛ إذ لم يعد هناك فتيات في الجوار، عن يمين الطريق مستنقع الطيور المائية والبردي والقطط البرّيّة، وإلى اليسار الصفحة الغامقة لماء المستنقع الهادئ الذي يمتدّ حتّى طريق المدرسة الواصل بينها وبين المستوصف. نحن على أطراف القرية، والمرحلة الحجرية على أشدّها، بيوت جديدة تقوم بين النخيل مصنوعة من الصخر، عمّال يغادرون مواقع العمل، أسطاوات يعتلون دزاجاتهم الهوائية مُيمّمين شطر النهر للعبور إلى الصوب الثاني؛ حيث تقع بيوتهم، ومنهم سليمان البنّا. ما هو الدافع الذي وخّد الناس للانتقال من بيوت الطين إلى بيوت الحجر؟ حتّى الحجر انتشرت مثل خبر صاعق، البعض ممّن لا يملك النقد لبناء غرفة، أو غرفتين، باع بقراته، أو بقايا أغنامه، وأشاد بيتاً من حجر. على مرمى البصر تتصاعد في السماء أعمدة الدخان المنطلقة من التنانير، الشمس تحمرّ، وتتّسع، وتتوارى قليلاً قليلا خلف النخيل البعيد. ولأن السكون عميق يبدأ عمّي يغنّي أغاني بدوية، لم أستطع فَهْم كلماتها، ثمّ أخذ يمشي مشية عسكرية، طلب مني تقليدها، لكن ثقل البطّارية أعاقني عن ذلك، فشعرتُ بالخجل. تجاوزنا بستان حمّادي، وحاذينا أطلال بيتنا،

وشاهدتُ البئر مغطى بطبقة من الرمل والحاثة وعراجين النخيل، وقادنا الطريق إلى بستان النخيل نحو البيت. وجدنا جدّي واقفاً وسط خضرة الطماطم والباذنجان بيده مسحاة طويلة، يلفّ دشداشته على خصره، وبرزت صلعته الواسعة بشعرها الأبيض الخفيف الذي يحيط بجمجمته، ودخان مشربه، يختلط مع دخان التنانير، وغبرة الكنس، وأشغة الشمس الغاربة.

ألفينا جدّي يوجه الماء القادم من الساقية نحو ألواح الخضرة، وبدا لنا غاضباً، بشدّة، لمح عمّي، وأنا خلفه حاملاً البطّارية، وراح الغضب ينثال من عينيه ووجهه مثل شرارات تنّور مشتعل. غضب جدّي ينفجر - فجأة - لأسباب بسيطة أحياناً، في حين يتغاضى عن أخطاء فاحشة، وهذا ما يثير الغرابة في جدّي. قال لعمّي حين وصلنا واجهة البيت: ألا تكفّ عن حماقاتك، أنتَ على أبواب زواج، وتتفثّل بين البيوت مع الراديو، ما الذي يقوله الناس عنك؟ فاسد، عربيد، سرسري؟ ثمّ تقدم - بغتة - نحو الطريق، واعترضنا بغضب، وتناول الراديو من يد عمّي، وقذفه على الأرض، فتطاير الخشب شظايا، ونتأت أحشاء الراديو غير المفهومة، الأسلاك والمكثّفات والموصلات والبراغي وصفائح المؤشر والمصابيح الصغيرة التي تضيء في الليل، وتكشف الموجات المكتوبة، وأطوالها على الواجهة. لم أرَ جدّي غاضباً مثل تلك اللحظة، وأنا من رعبي تركتُ البطّارية على الأرض، وركضتُ إلى الداخل؛ حيث احتميتُ في غرفة المخزن، وكنتُ أتسمّع إلى الضجّة التي يُحدثها جدّي، وصوت عمّي، وهو يحاول شرح الفعل الذي أقدم عليه، وكانت جدّتي ميّاسة تتساءل عن الأشخاص الشبيهين بالنمل، وأين مضوا بعد تهشيم الراديو، ولكنْ؛ لا أحد يلتفت إلى تساؤلاتها، وأدركتُ - بعد الهدوء العميق - أن عمّي لابد أن يكون قد دخل إلى غرفته المطلّة على الجهة الشرقية، وأقفل على نفسه الباب.

نمتُ تلك الليلة، كالعادة، في حضن جدّتي ميّاسة، وشاهدتُ السماء، وهي تتوهّج بالنجوم فوق رأسي، وظهر الميزان عند حافة الجدار بنجومه الثلاث، بعد أن أطفأتْ أمّي فانوس الحوش المدخّن. هجعت القرية إلى نومها، لكنني كنتُ أشعر بالأسف والغضب، فبعد أن رأيتُ جدّي يهشّم راديو الفيلبس ذاك، وكاد أن يرفع يده على عمّي، وهروب عمّي إلى غرفته، حسبتُ أن كل شيء انتهى. لن تأتي خالتي سميعة إلى بيتنا، ولن يتزوّجها عمّي، ولم أدرك جهلي بعالم الكبار إلا بعد أشهر، حين أقيم العرس لعمّي في الفسحة الواقعة بين بيتنا وبيت خالتي سميعة. العرس الذي ظلّت القرية

تتحدّث عنه لسنوات طوال بعد ذلك.

أجل، لسنوات عديدة، لاحقة، ظلّ عرس عمّي حديث القرية، يتذكّر الناس الطبل وضاربه سلمان البهلوان، والرقصات الرجالية المتوثّبة في الفسحة المحصورة بين بيتنا وبيت خالتي سميعة، والأماثيل التي نفّذها ببراعة الحرامي المعروف لافي، وأدهش الحاضرين في تلك الواقعة الحلمية التي أضاءها اللوكس المشعّ حتى ساعة متأخّرة من الليل. يتذكّرون صياني الرزّ واللحم، والشاي الأسود الثقيل، وعدد النساء اللواتي حضرنَ العرس، وأبدعنَ في الرقص والغناء. الرصاص المنطلق من البرانو والمسدّسات وبنادق الصيد التي أحالت عرس عمّي إلى قضة شيّقة، تحدّثت بها الضفاف حتى سنوات لاحقة. قبل عرسه بأسبوع، منح عمّي إجازة من مكان خدمته في معسكر الرشيد على أطراف العاصمة، وقد نُقل عمّي ما إن أنهى فترة التدريب في معسكر الحبانية إلى معسكر الرشيد، ومن حينها، تغيّرت حياة عمّي بشكل جذري، وكأن العاصمة حوّلته إلى كائن آخر، لا ينتمي إلى القرية. تغيّرت لهجته في أثناء الحديث، وأصبح يُدخل كلمات جديدة على خارطة كلامه، كما تغيّرت لهجته القروية؛ لتصبح لهجة ذات نبرة رقيقة، وهو رغم أنه يفتعل تلك اللهجة الجديدة في حديثه، لكنها ظلّت تُدهش سامعيه لفترة طويلة، ملابسه المَدَنية، عطره، أفكاره، نوع الأحذية التي يرتديها، الطعام الذي يطلبه للفطور، أشياء كثيرة تغيّرت في عمّي بعد انتقاله إلى العاصمة.

وقيل فيما يشبه النميمة إن عمّي راح يحتسي الخمرة أيضاً، ولا أحد وقع على مصدر هذه التهمة، لكنها سافرت من فم إلى آخر، واستقرّت في وجداننا. ولأننا نلتقي دائماً، أنا وأخي مصطفى وابن خالتي ماهر، عند النخيل، على ضفاف النهر، ونتمشى سوية بين الحقول في الليالي المقمرة، ناقشنا مطوّلاً مشكلة الآفة الجديدة التي أصابت عمّي، آفة شرب الخمر. كان عمّي أول شخص في القرية تلبّسته تهمة شرب الخمر في العاصمة، كذلك ارتياد السينما، ومخالطة شلايتية بغداد، كما قيل وقتها. انتقاله إلى بغداد غيّره كثيراً، وأصبح يتصرّف - بعض الأحيان - تصرّفات شاذّة، وغير مألوفة في القرية، وقد نسب ذلك كله إلى حياة العاصمة، وأفكارها، ودروبها الخفية، وغرائبها التي التهمت عمّي مثل تينة ناضجة.

# الفصل الخامس

بعد ذلك الاجتماع الشهير مع الجنرال الأميركي ديفد بترايوس الذي عُقد في صالة المختار حسن الملا خضر، الملاصقة للمستوصف، وحضره وجوه القرية والقرى المجاورة، وتكلّم فيه عمّي - بوضوح - عمّا يجري في المدينة وقُراها، وضع اسم عمّي رشيد في قائمة التصفية والقتل. وحوش التنظيم الصغار سجّلوا اسمه في المقدّمة، تلاه أكثر من عشرين اسماً آخر، نعرف بعضهم، ونجهل البعض الآخر؛ لأنهم من مناطق بعيدة عنّا. ثبتوا القائمة على عمود المدخل في جامع الزبير، وكان ذلك في يوم الجمعة، قبل سويعات من بدء الصلاة. عادة ما يجتمع عشرات الأشخاص لتأدية الصلاة. يأتي المصلّون قبل الصلاة بربع ساعة فقط، معظمهم ممّن لا يؤدّي الصلاة سوى في أيام الجمع، كما لو يرغب في أن يُثبت للآخرين أنه متمسّك بالفروض، وملتزم بأصول الدين، خاصّة الجيل الجديد. لم أعرف أنا سوى القلّة منهم؛ لأن جيلاً كاملاً نشأ وترعرع قبل أن أعود الى القرية. كنتُ أشارك في صلاة الجمعة فقط، يقرأ البعض ممّن يمتلكون أصواتاً جميلة آيات من القرآن، تلتقطها السماعة المثبتة أمام القارئ، وتبثّها مكبّرات الصوت المعلّقة في المئذنة القصيرة؛ لتصدح في سماء القرية حتّى تصل الطريق الدولي. كما تسمعها الآذان في القرى المواجهة لنا على الجانب الثاني للنهر.

يلقي أخي الصغير أحمد خطبة قصيرة، لا يريدها أن تُثقل على الشيوخ في جلوسهم، ولا على الشباب الذين جاءوا لإظهار ورعهم أمام الآخرين، وكانوا عادة ما يتذمّرون في مجالسهم الخاصّة من طول الخطبة، ومواضيعها. وتعمّد أخي أحمد أن تكون خطبه - عادة - مبتسرة، تتكلّم عن قضايا عامّة ذات علاقة بالشؤون الدينية، ويتجنّب الخوض في الأحداث التي تشهدها القرية كالاحتلال الأميركي، والتفجيرات، والجهاد، والعبوات اللاصقة، وحصار المُدُن، والحكومة، والشرطة المحلّيّة، والتنظيم. ونعرف جيداً أن الخطيب يتجنّب المواضيع الحسّاسة خوفاً من نفوذ التنظيم السرّيّ، وسطوته على الجميع؛ إذ يمتلك شبكة من المؤازرين والجواسيس والراصدين والمتعاونين، لا أحد يعرف - بالضبط - مَن هم بالتحديد، ولا

عددهم. وتلك فترة، اختلطت فيها الأوراق، بشكل، لم يحدث سابقاً في القرية.

قرأنا المنشور المعلّق على العمود بعد خروجنا من الصلاة، وثقة مَن ألصقه، بشكل يجذب النظر، وهو ما حصل فعلاً، فما إن خطا أول المصلّين محاولاً الخروج من الباب حتى جذبت عيناه تلك الورقة العريضة البيضاء المرفرفة في الهواء. قرأ المقدّمة الصغيرة التي تعلي مرتبة الجهاد، عبر آية قرآنية، إلى أعلى مراتب الدين حتى بدأ يصيح بصوت عال: تعالوا، تعالوا، انظروا هذه البلوى. وتجمعنا حول العمود، وكنا نقرأ الأسماء غير مصدّقين، وكان اسم عمّي هو الأول. تهديد من هذا النوع معروف جيداً، فهو دعوة صادقة للقتل، والتهديد جدّي لا يمكن التغاضي عنه، لكن عمّي مرّ من جنب الورقة، ولم ينظر فيها، واستمرّ ماشياً بدشداشته البيضاء، وكوفيته البيضاء، وعقاله الأسود، ورائحة الكولونيا تفوح منه، ثمّ اتّجه نحو سيّارته الكامري الحديثة، وركبها متّجهاً إلى البيت. تحدّث الجميع عن تلك الأسماء، في المحلات، وخلال السهرات الليلية، وعند اجتماع المصلّين في الجامع، وقد وضعوا في المنشور فقرة، تطلب التوبة العلَنية لهؤلاء المتّهمين أمام الملأ، في أول صلاة جمعة قادمة، وهو الإجراء الوحيد الذي يجنّبهم القتل. إلا أن عمّي لم يغيّر كثيراً من عاداته بعد ذلك اليوم، ظلّ يجلس أمام البيت الفخم الذي بناه قبل سنوات على كرسي من البلاستك، أمامه طاولة صغيرة، يضع عليها استكان الشاي، ويتأمّل بالنخيل المزروع بامتداد السياج. يتأمّل في الحمام المحلّق فوق بيت أخي بشير عبوراً نحو أفق النهر، أو ينظر إلى واجهة بيته، بإعجاب، الواجهة الملوّنة التي تضيء ليلاً، كأنها كوكب من الضوء. وحين يحسّ بالضجر، يجلب مسحاته، ويبدأ بتنظيف التربة حول أشجار الرمّان، والبرتقال، والتين، راضياً عن الحياة التي عاشها، واستطاع خلالها إنجاب عشرات الأبناء والأحفاد من خالتي سميعة. يعمد بعض الأيام إلى إشغال نفسه بتنظيف السيّارة، وتلميعها مثل مَن يزيّن عروساً قادمة إلى الزواج، وحول ذلك التهديد، وطلب التوبة العلَنية عن جريمة التعامل مع الأميركان، عادة ما يردّ على السائل بالقول: أريد الخير لهذه القرية، لقد وقع المحظور، واحتلّنا الأميركان، لكنْ؛ يجب الخروج من هذه المعضلة. لم يسألنا أحد عن رأينا، بالحروب السابقة ولا اللاحقة كلها، لكن حياتنا ينبغي أن تستمرّ. ينبغي على المدرسة أن تفي بواجبها، وكذلك المستشفى والدائرة الهندسية، والمرور وصيانة الطرق والأسواق. الحياة لن تتوقّف، وينبغي أن نظلّ نأكل، ونتزوّج، ونداوي مرضانا، ونستقبل المواليد الجُدُد، ونمارس أعمالنا. أمّا التوبة؛ فلا نقدّمها

إلا للخالق.

لم تمز سوى بضعة أسابيع على تعليق التهديد، وفي ذلك الصباح، الهادئ بعض الشيء، خرج عمّي بسيارته متجهاً نحو الشمال، إلى الشارع الدولي القريب من المقبرة، وقصد محطة الوقود التي أنشئت بعد الاحتلال، وهي لا تبعد سوى كيلومتر واحد من النقطة العسكرية التي أقامها الأميركان فوق الجسر المارق من تحته الطريق. خرج أنيقاً كعادته، متفائلاً كعادته، يعيش يومه، كما لو كان هو اليوم الأخير له في هذه الحياة. عمّي يعشق التجوال في أسواق المدينة، يتجوّل في سوق المخضرات، وينتقي الخيار والطماطم والباذنجان، ويعرج على باعة الخضرة المتواجدين جنب السينما، فينتقي الطازج من الرشاد، والفجل، والكزاث، والكرفس، ومن هناك، ينحدر في الشارع العام نحو سوق اللحوم، يتأمّل في الأفخاذ المعلّقة والرقاب والضلوع والهبر، فينتقي من قصّاب يعرفه كيلوين من اللحم، أو يشتري رأس خروف مع المقادم والكرشة، يضعها له القصّاب في كيس من النايلون. وحين لا يرغب في زيارة ابنه، الملازم في مركز شرطة القطّانة، يجمع عمّي مشترياته بكيس من الحجم الكبير، ويمضي نحو سيّارته الكامري المركونة في الكراج المكشوف جنب السينما المغلقة. يشعر عمّي بالفرح يملأ صدره، وهو يشتري طعاماً للعائلة، يحسّ بأنه حيّ، كما دأب على القول. ذلك هو روتين عمّي في المدينة.

في ذلك الصباح، كان عمّي يفكّر بأمر آخر، لن يشتري فواكه من السوق، ولا لحماً من المقصبة، بل سيمضي إلى دائرة الأوقاف الموجودة في الطرف الشرقي من المدينة، سيناقش مع المدير احتياجات جامع الزبير من مبرّدات وسجّاد ومبالغ لتعمير المماشي، وحنفيات المياه، وترميم الباب الكبير للسياج الخارجي. بعد وفاة أبي، أصبح عمّي هو الراعي للجامع رغم أن الجميع يعرف أن عمّي خفيف التديّن، ومارس في حياته موبقات كثيرة، في العاصمة خاصّة، ظلّت حديث القرية سنوات وسنوات. قبل توجّهه نحو المدينة، انعطف عمّي إلى اليسار نحو محطة البانزين، ووجد زحمة شديدة، وتلبّث دقائق حائراً بين أن يقف في الطابور، أو يواصل سيره إلى الجسر، وتطلّع إلى مؤشّر البانزين، فوجده على الخط الأحمر، وهذا ما اضطرّه لأخذ دوره في سيل السيّارات الطويل المنتظرة للوصول إلى ذراع التعبئة. أزمة البنزين تفاقمت بعد سنوات الاحتلال والفوضى التي رافقته في التكرير والنقل والتوزيع؛ إذ دأب الوحوش الصغار على مهاجمة ناقلات البنزين القادمة من بغداد بين فترة وأخرى، واستهدافها

بالبنادق الثقيلة، أو الهاونات، أو قذائف الآر بي جي عند الطريق الريفي المتجه نحو الفلوجة. كان سوّاق السيارات يتجمّعون ثلاثاً ثلاثاً، للحديث وتزجية الوقت لحين الوصول إلى ذراع التعبئة. كالعادة رأى عمّي اكتظاظ الطريق الدولي بالسيارات والشاحنات وأرتال الجنود الأميركان، وفكّر في نمط هذه الحياة الجديدة عليهم بعد سنوات قاحلة من الحصار والعوز. كل شيء تغيّر من وجه البلاد خلال السنوات القصيرة الماضية. صحيح أن الغذاء توفّر بعد مرحلة الحصار، ودخلت التكنولوجيا إلى كل بيت، وتوفّرت الوظائف والأعمال للمواطنين، إلا أن النفوس لم تعد كما كانت، لقد انكسر مفصل مهمّ فيها، دون أن يدرك - بالتحديد - ما هو. هل يعود الأمر إلى أنه صار من جيل آخر، جيل وقعت عليه هذه المصائب كلها، وهو غافل عن دوافعها، وأسبابها؟ وقبل أمتار من فتحة التعبئة، وقعت المفاجأة. هزّ انفجار ضخم سيّارة عمّي بقوّة، وكادت المحطّة أن تشتعل. لا أحد يعرف كيف حصل الأمر، تكسّر الزجاج، وتطايرت شظايا الباب الأمامي المجاور لعمّي، وشاهد الجميع الدماء تنزف من رجله، بعد أن تلاشت كرة اللهب. عندها أدركوا أنها عبوة لاصقة، زُرعت تحت مقعد عمّي. أذهل الانفجارُ الجميعَ، لكنهم بادروا - بسرعة - إلى إخراج السيارتين المحترقتين خلف عمّي بعيداً عن محطّة البنزين، وفي لحظة خاطفة، دخلت سيّارتا همر أميركيتان ساحة المحطّة، وضربتا طوقاً مسلّحاً حولها، وتأهّب الجند لإطلاق النار، فيما راح الضابط الذي يلبس خوذة غريبة، والمدجّج بالسلاح يستجوب الموجودين.

تم نقل عمّي بسيّارة همر أخرى إلى مستشفى المدينة. لم نسمع الانفجار في القرية، ربّما لأنه بعيد، أو يختلف عن الانفجارات التي تُحدثها العبوات الناسفة الضخمة المدفونة في الأرض. وَصَلَنَا الخبرُ، بسرعة البرق، فركبتُ مع أخي بشير السيّارة، وتوجّهنا إلى المستشفى، ووجدنا عمّي في غرفة الطوارئ. كان يبتسم، فالإصابة خفيفة، كما قال، في الريش، فلا تقلقوا، وكان يستلقي على السرير، ورجله اليسرى ملفوفة بالشاش الأبيض، وثمة بقع من الدماء نزّت من القماش. وسط رائحة اليود والكحول والنفتالين والأمصال والسوائل، عرفنا أن الجرح ليس عميقاً، وأن عمّي نجا بأعجوبة من الانفجار. أية أوقات كانت، أية شدائد لا تُطاق، وأية فوضى حكمت حياتنا، أفكّر بها الآن، وأشعر بالرعب. لو وضع المجرم العبوة اللاصقة تحت جسد عمّي تماماً؛ لتناثر إلى قطع من اللحم، ولو تمّ تفجير العبوة حين وصل عمّي إلى مأخذ البنزين؛ لاحترق عمّي مثل ثمرة من البطاطا، أو عرنوس من الذرة. لكن الحظّ كان بجانبه. نعم، كانت أوقاتاً

مختلطة، قاسية، لم يعد أحد يثقُ بأحد، فكيف وضعوا القنبلة لعمّي؟ ومَن وضعها؟ أمّا لماذا وُضعت؛ فهذا أمر معروف، أدركه أهالي القرية جميعهم، فذلك التهديد لم يُمهل عمّي سوى أسابيع، وعرفنا أن أربعة من الذين وردت أسماؤهم في الوثيقة قُتلوا، أحدهم اختُطف صباحاً من قِبل ملثمين حين كان يقف على الطريق باحثاً عن سيّارة، تقلّه إلى المدينة. والآخر قطعوا عليه الطريق، في أثناء ما كان يتّجه إلى الأوتوستراد الدولي نحو العاصمة، وأُطلقت النار على رأسه، والثالث ضُفّي بعبوة لاصقة تحت مقعده في السيّارة، والرابع أطلقوا عليه النار، وهو يقود سيّارته قرب الجسر الكبير الواصل بين الضفاف الشمالية والمدينة من قِبل أشخاص ملثمين. أمّا الخامس، وهو عمّي؛ فنجا، ولم يلبث سوى أسبوع في المستشفى حتّى شُفي تماماً، وأصبح قادراً على المشي مرّة أخرى، ولم يبق سوى أثر صغير لجرح في بطة الساق اليسرى.

العاملون في المستشفى من أطبّاء وممرّضين ومناوبين يتعجّبون من كثرة الناس الذين زاروا عمّي في غرفته، شيوخ عشائر، مديرو دوائر، أساتذة جامعة، عمّال، أصحاب محلات. كيف لشخص يتمتّع بكل هذا الرصيد من الإعجاب والحبّ، ويمتلك شبكة واسعة من المعارف والعلاقات يتعرّض لمحاولة قتل؟ لم يمرّ علينا نزيل مثله، يقولون بفخر. عمّي شجاع، لا يخاف من الموت، وهذه حقيقة، آمنتُ بها منذ رأيتُه قبل خمسين سنة أمام بيت عفرا زوجة حمّادي وحتّى اليوم. هو التجسيد الطبيعي لفرد، ارتدى حجمه كما هو دون زيادة أو نقصان. ابن زمنه الذي بدأ بطيئاً، ثمّ انطلق راكضاً، ثمّ في الفترة الأخيرة أخذ يسابق الريح نحو هاوية غامضة، انتهت - كما نعلم - بجثّته وحيدة في أرض المقبرة المرملة.

هل انكمش عمّي على نفسه بعد حادثة العبوة اللاصقة؟ هل تقوقع في محيط سياجه، وكرّس يومه للاهتمام بالنارنج والنخيل والتين؟ هل استغنى عن صلاة الجمعة في الجامع، أو الذهاب إلى المدينة للفرجة والتسوّق؟ هل انقطع عن أصحابه ومعارفه وعلاقاته الواسعة، أو التهى بمشاكل أولاده الذين يعيشون سوية في البيت ذاته، بعد ذلك الجرح العميق الذي تركته العبوة في روحه؟ كلا، فالأزمان صعبة، والقادم أعظم، كما كان يردّد. بدأت الإشاعات تحيط بعمّي، دون أن يعرف أحد مصدرها، من ذلك أن شخصاً ما شاهد عمّي، وهو ينزل من سيّارة همر أميركية قرب الطريق الدولي، ورآه يتّجه نحو القرية، وهذه الإشاعة الذكية توحي للسامع أن عمّي جاسوس للأميركان، وهي تهمة كانت قاتلة في تلك

السنين.

والإشاعة الثانية تقول إن عمّي اجتمع مع الجنرال الأميركي ديفد بترايوس وآخرين، ووضعوا ترتيبات سريعة للقضاء على التنظيم، وقبض عمّي ملايين الدولارات على هذا الدور. إشاعة أخرى تقول إن عمّي أقام في بيته مأدبة ضخمة للضبّاط الأميركيين المتواجدين في قصر الرئيس السابق على كتف الجسر الكبير، ذُبحت فيها الخرفان بالعشرات، وأُسيحت فيها عشرات قناني الويسكي، ويسمّونها بالاسم: الجوني ووكر، والريد ليبل، والشيفاز ريكار، والأغرب من ذلك أن مَن كانت تخدم هذا الحشد الكافر من الضبّاط هي خالتي سميعة، ونظّمت المأدبة في حديقة عمّي الواسعة الممتدّة من أمام قصره وحتى الطريق الفرعي. إشاعات لا نعرف مَن يطلقها في أفق القرية، وفي متاهات المدينة. إشاعات مثل تلك تتفاعل في الأفق الضّاج، وتوغل في العقول، فتُبلبلها، ويصبح الشخص، كما لو كان يمشي على حدّ موسى رفيعة.

أعداء عمّي أصبحوا كثراً، بعض منهم لا يعرفونه حتى لو جلسوا معه وجهاً لوجه. وصفه البعض بالكافر والزنديق والجاسوس والمرتدّ، وعمّي يسمع بأذنه اليسرى، ويخرج الكلام من أذنه اليمنى، حتى تلك الظهيرة الساخنة من الصيف، وكانت الشمس فيها تذيب أسفلت الشارع، وتجعله رجراجاً، تنطبع عليه عجلات السيّارات وأحذية المارّة، وشوارع المدينة خالية إلا من أفراد قليلين، يتّجهون إلى بيوتهم متعجّلين. لا هواء في الكون سوى سخونة القير، وسنى الجدران المطلّة على الشارع، جدران السينما، العمارات السكنية القريبة من مطعم البلدية سابقاً، أعمدة الكهرباء الرمادية، والواجهات المفتوحة على الشوارع، كأنها قبور. آثار الرصاص والقذائف على الواجهات تحدّق في المارّين، كما لو كانت عيوناً سِخرية تطلّ من صحاري الجنون. لم تعد شجاعة عمّي تجدي نفعاً، فالخطر صار جدّيّاً، يشي بأنه مراقب أينما يذهب، وأن عيوناً مجهولة تترصّد سفراته في القرية والمدينة، في الطرق والأسواق، وأن مخططاً ما وُضع، وينبغي أن ينفّذه أشخاص ملثمون، لا يمكن تحديد هويّتهم، أو أسمائهم.

يتذكّر ابن خالتي ماهر تلك الظهيرة بدقّة؛ إذ كان الناجي الوحيد من الهجوم: جاء بسيّارته الكامري في الضحى، وأفطر معنا أنا وملازم أول يوسف، ابنه، وعند الظهيرة، تركنا الكامري أمام البيت، وركبنا سيّارة الشرطة، التي قادها يوسف، ركبتُ أنا في الحوض الخلفي، بينما ركب رشيد جنب يوسف، واتّجهنا من حي الأندلس نحو مركز المدينة، ومن

هناك، عند الاستدارة، رجعنا إلى صوب المدينة الغربي، وأمام السينما القديمة حدث الأمر. لاحظتُ سيارة نقل صغيرة من نوع كيا تتقدّم نحونا، وكان يوسف يسوق ببطء، والشوارع خالية من السيارات، وقبل لحظات - فقط - مرّت دورية أميركية مؤلّفة من ثلاث عربات همر، اتّجهت نحو مبنى المحافظة. بعد ذلك بدقائق، واجهتنا السيارة، كما لو كانت تريد الاصطدام بنا عمداً، وبقصد واضح، فبادر يوسف إلى الانعطاف إلى اليمين، وكبس على عتلة الوقوف، بارتباك. في هذه اللحظة المفاجئة، في طرفة العين تلك، ومثل كابوس قبل الصحو، رأيتُ، كالحلم، شخصاً، يُخرج بندقية كلاشينكوف من النافذة اليسرى للسيارة، ويحكم على وجهه لثاماً، غيّب ملامحه عنّا، ثمّ انهال الرصاص علينا مثل مطر شتائي. لحظة خاطفة، لكنني أحسستُ بها، كما لو كانت دهراً كاملاً، فالرصاص يخترق الزجاج الأمامي، ويختلط بصرخات يوسف ورشيد، بينما خفضتُ رأسي إلى الأسفل، واختفيت في أرضية الحوض الخلفي، ثمّ غبتُ عن الوعي. ظلام. حقيقةً ذكّرني الموقف بنوبات الصرع الحادّة التي كانت تعتريني قبل أن أتماثل للشفاء. كم استغرق الوقت؟ لا أعرف. فتحتُ عينيّ، ووجدتُ غبشة تحيطني، وكنتُ أسمع أصواتاً، تهمس، وتصيح، وتصرخ، قُتلوا، قُتلوا، وميّزتُ ذلك من خلال الزعيق المرتفع حول السيارة. تخيّلتُ أنني في مكان ما من مدينة صبراتة الليبية، وقد وقع لي حادث ما، ثمّ تخيّلتُ نفسي في غرفة سلام في دمشق، وتخيّلتُ نفسي تحت ذلك اللوري منضغطاً بين العجلات والشوك، وهذه الخيالات كلها مرّت في رأسي مثل برق لامع في بزّيّة الجزيرة، وحين رفعتُ رأسي، كانت الوجوه تحدّق بنا من خلال النوافذ المفتوحة، وتمدّ أذرعها لانتشال الراكبين في الحوض الأمامي. نسيتُ للوهلة الأولى أين مكاني، ومَن يركب معي في السيارة، إلى أن سمعتُ البعض يشخّص القتلى عبر قراءة الهويات التي استخرجوها من وسط الدماء وشظايا الزجاج والحديد الذي خلّفته الطلقات. يبدو أن الموجودين لا يعرفوننا، لذلك بادر واحد منهم، وبمساعدة الآخرين، إلى إخراج يوسف ورشيد من السيارة، ووضعهما في سيارة تاكسي، كانت متوقّفة على حافة الشارع بمواجهة السينما. سحبني شخص من يدي، وراح يتلمّس جسدي، وينظر إلى ملابسي، وكان يفتّش عن بقع دم نافرة من جسدي، وحين بدأتُ الكلام معه، سألني عمّا إذا أصبتُ أم لا، فقلتُ له أعتقد أنني سالم. طلب مني الركوب مع القتيلين في السيارة المتّجهة إلى مستشفى المدينة العام.

الحقيقة أن عمّي لم يمتْ في ذلك الهجوم رغم أنه كان يشبه القتيل

حين أوصلوه إلى طوارئ المستشفى. يوسف مات، وتأكّد الأطباء من موته حين رأوا رصاصتين اخترقتا قلبه، لكن عمّي رشيد ظلّ يتنفّس، وإن كان تنفّسه بطيئاً، خافتاً، يكاد ألا يُلحَظ . مثل تلك الحوادث المفاجئة لا تمرّ دون أن يكون للأميركان علم بها، فتلك الفترة كانوا هم المتحكّمين بمفاصل البلد كلها، ميزانية الصرف، المرور، الجيش، تصريف شؤون الناس في الدوائر الحكومية والمدارس والمستشفيات، أوقات الدوام الرسمي والساعات المسموح بها في التجوال ليلاً، وفتح الجسور، أو غلقها، وأخبرنا ماهر أن سبب تواجدهم في تلك الظهيرة كان بنيّة الذهاب إلى مقرّ القائد الأميركي في قصر الرئيس، على كتف الجسر، لاستلام رواتب الدائرة الهندسية للمدينة، بعد أن أصبحت الرواتب تُدفَع بالدولار الأميركي، لا بالدينار. كيف عرفوا بوجودنا في تلك السيّارة، وكيف حدّدوا الوقت الذي نكون فيه في ذلك المكان، ومَن أخبرهم أننا على موعد مع القائد الأميركي لاستلام رواتب الموظفين؟ يتساءل ماهر بعجب من أمور، صارت تحدث خفية، وبشكل غير منطقي، لم يعد يستطيع إدراكه.

ملازم أول يوسف، وهو خرّيج كلّيّة الشرطة قبل الغزو الأميركي، عاد إلى الخدمة، ما إن تشكّل فوج الشرطة، ورُقّي - فوراً - إلى رتبة ملازم أول، وأصبح دوامه في قيادة عمليات شرطة المدينة، ثمّ نُسب إلى مركز شرطة القطّانة، وهي محلّة قديمة في قلب المدينة، وسكنها أخي مصطفى مع زوجته قبل أن يشتري شقّته قرب معمل الزجاج، وشيّعته القرية تشييعاً مهيباً نحو المقبرة. موت يوسف - ربّما - هو الذي آلم عمّي هذا الألم كله، وحوّله إلى شيخ طاعن خلال سنة واحدة فقط. أمّا عمّي؛ فقد جهّز له الأميركان طائرة مروحية صغيرة، حطّت في ساحة المستشفى، ونقلته مع أنابيبه، وأمصاله، والأجهزة الضابطة للنبض والضغط، وبمرافقة طبيب أميركي وممرّض من المستشفى، إلى مدينة الطبّ في العاصمة.

الآن، وأنا أكتب هذه الأحداث أستغرب فعلاً من نفسي، هل - حقاً - عشتُ تلك الساعات المثقلة بالأحزان والمآسي كلها؟ هل كانت عودتي مقدّرة لي؛ كي أكون وسيطاً لنقل ما جرى في القرية؟ هل هي مهمّة رسولية، كُرّستُ لها، من أجل تدوين تاريخ سيُمحى ذات يوم، إن لم يُصبّ مثل عجينة كونكريتية على الورق؟ ربّما، لقد كُتب لي أن أدوّن دخان التنانير وهواجس البنات ونداءات الجامع في نعي لأحدهم، أدوّن قصص التلاميذ في المدارس وآثار الطلقات على أجساد موتانا، وصرخات النساء وهنّ يستقبلنّ جثث أبنائهنّ وأزواجهنّ وأقربائهنّ. ولأنني لم أشارك في

الأحداث كثيراً، بقيتُ حياً لهذه المهمة الثقيلة، التي تتطلّب سهراً وقلقاً وذاكرة حادّة، لا تُهمل التفاصيل، مهما ضؤلت، أو تماوجت في أغوار الزمن. كلّما نامت زوجتي نادية، وبقيتُ وحيداً ساهراً وسط هدوء المدينة الغريبة يزورني هذا الهاجس، وإلا لمَ لمْ أقتل بواحدة من الانفجارات الكثيرة التي حدثت قربي، أو جنبي، أو أمامي، أو خلفي؟! لمَ لمْ أقتل في رصاص طائش لجندي أميركي؟! لماذا عدتُ، وتركتُ ريم خلفي دون مبرّرات مقنعة؟! ولماذا تزوّجت زوجة أخي الأصغر؟! ولماذا كُتب عليّ أن أتحمّل عبء زوجة مصابة بالسكّر، وتعيش أيامها في استذكار زوج، غادر الحياة، ولا تراه سوى في أحلامها؟! وكيف انتُدبتُ؛ كي أستعيد حياة شاسعة، تمتدّ لنصف قرن وأكثر، كان عمّي رشيد هو بطلها الوحيد، بطل ذاكرتي الفائرة بالروائح، والهمسات، والكلمات، والوجوه، وتحوّلات القرية العجيبة. هل يمكنني نسيان المعاناة التي عشناها على جسر بزيبز، ونحن نقطع النهر في هروب جماعي نحو العاصمة بعد أن هاجمتنا الوحوش، من كل صوب وحدب؟

قسم كبير منكم لم يسمع بجسر بزيبز، وأنا من بينكم، بعض الأماكن تظلّ مهملة، مَنسية، إلى أن تدفعها إلى الواجهة أحداث جسام، فتبعث فيها الحياة، والحضور، مثل أليعازر الذي قام من موته. جسر بزيبز الذي قطعناه نحو العاصمة صار أشهر من نار على عَلَم، بظرف أيام معدودات، راح يتصدّر شاشة السي إن إن والبي بي سي والعربية والجزيرة، وقناة دبي، وهو يحمل بجرمه الرفيع تلك الحشود المتدافعة الخائفة على حياتها وممتلكاتها، الباحثة عن بقعة آمنة، تجد فيها مأوى لأطفالها ونسائها. كان الجميع يصيح برعب: الوحوش قادمون، الوحوش قادمون. لا أمل، لا أمل. ومن شدّة السواد الذي غطّى على حياتنا، لم تعد زوجتي نادية، وطوال سنة كاملة، ترى سوى الكوابيس. الطرق تمتلئ بالأفاعي، وهي تسير بينها، الأبقار تلفظ الدود من خياشيمها، وهي تجلس بين قوائمها تمخض الحليب، أبوها سليمان البنّا يبني الجدران بعظام بشرية، وسيكارته تبتسم لها، وهكذا، أحلام تسألني عن فحواها كل صباح، فأقف عاجزاً عن قراءتها، رغم قراءاتي المتعدّدة ومحاولاتي في فَهم الكائن البشري، لكنني كنتُ أقف عاجزاً عن فَهم رموز تلك الكوابيس. وبما أنها تُبرمج مزاجها وحركتها واتصالاتها مع المعارف والأقرباء على ضوء تلك الأحلام، تحوّلت حياتنا إلى كابوس، إلى فيلم رعب نادر، قلّما عُرض مثله في دور السينما.

عمّي لم يمتْ في ذلك الهجوم، لكنه أرسل قبله إلى الموت ابنه يوسف

وأخي بشير. عمّي مثل قطّة، تمتلك سبعة أرواح، كما نقول في القرية، وكأنه يحدس الدور الذي كان ينبغي أن يؤديه لاحقاً؛ كي أستطيع، أنا، في هذا المكان الغريب، استعادة حياته، كما لو كانت شريطاً سينمائياً لمخرج بارع. نُقل بمروحية أميركية إلى مدينة الطّبّ في العاصمة، وانتشرت إشاعة في القرية تؤكّد على أن مَن أرسل المروحية هو الجنرال ديفد بترايوس ذاته، بعد أن تذكّر الرجل الشجاع الذي خاطبه بنبرات صريحة، وصوت جهوري، عمّا يجري في المدينة والبلد، وما هي الأولويات التي ينبغي التفكير بها.

في اللحظة التي دخلتُ فيها عليه، وهو ممدّد في سريره الوثير، والآلات تتغلغل في جسده وشراييه، والشاشات تدوّن خفقات قلبه وشدّة ضغطه، وكل تلك المؤشّرات المرتبطة بالجسد، طبعتُ قبلة على جبينه، ورأيتُ عينيه تنفتحان، وتحدّقان في وجهي، ودمعة صغيرة انسابت من عينه اليمنى، وتعبيراً بالراحة كسا وجهه الشاحب الغاطس بين المخدّات دون أية حركة. لقد أُصيب عمّي في رأسه، واحدة من الطلقات اخترقت جمجمته، ومسّت دماغه، لكنها لم تُحدث فيه تشوّهات خطيرة، وهذا ما جعل عمّي يتشبّث بالحياة. هذه المرّة لم تكن الإصابة خفيفة كسابقتها، لم نُخبره بموت يوسف، لكنه حين شاهد ماهراً في الغرفة، عرف - بحدسه الثاقب - أن يوسف غادر الحياة. كان عمّي ذكياً، ذكاء الفطرة، وذكاء توازن الخلقة الذي يوهب لبعض الأشخاص، ولا علاقة له بالتعليم، أو القراءة، أو التجربة الواسعة، مع أنني أميل إلى أن عمّي امتلك تجربة واسعة في حياته. الحكمة متغلغلة في روحه رغم أنه غير متعلّم. خرج من حالته الحرجة خلال شهر واحد فقط، ونُقل إلى غرفة واسعة مع أشخاص آخرين. وصار يستطيع الكلام، ويتحزك بصعوبة، ويتناول الطعام الخفيف، ويستقبل المعارف والصحاب. بدأ يسأل الزائرين عن أحوال البلد، وما يجري في القرية والمدينة. وعرف بدقّة كيف قتل يوسف، وعدد الطلقات التي أصابته، وأين دُفن - بالضبط - في المقبرة. لم يشاهده أحد يبكي، لكنني متأكّد أنه - وحين يجنه الليل وحيداً على سريره - لا تنقطع عيناه عن الدموع. مظهره القوي والصارم لا يمكنه حَجْبُ تلك العاطفة المتوهّجة في قلبه. أعرف عمّي جيداً.

زاره عدد كبير من أهالي القرية، نساء ورجالاً، وكان آخرهم أخي بشير وزوجته نادية. الزيارات في مثل هذه الظروف تُعدّ واجباً، تتجاوز مسألة الحبّ والكره، رغم أن أغلب الزائرين قاموا بالواجب، بسبب حبّهم لعمّي.

طبعاً، لا يمكن لشخص لم يعش هذه الأحداث التي أدوّنها - هنا - أن يصدّق بالمصادفات، والطوالع السيئة التي تجابهنا بها الحياة، ولكنْ؛ في السنوات التي عشتُها يمكنني أن أقول - بثقة - إنه ليس هناك مستحيل في وجودنا الضاجّ والعَبَثي هذا، كل شيء يمكن أن يحدث حتّى الخوارق. تعافى عمّي، لكن أخي قُتل. قُتل بسبب عمّي. أو كان عمّي دافعاً لمواجهة مصير غريب مثل الذي واجهه أخي الأصغر بشير زوج نادية، العائلة التي قطنت في بيتها منذ أن رجعتُ من دمشق.

ذات ليلة صيفية ناعمة، وكنا جلوساً في حديقة بشير الأمامية، على كراسي البلاستك، ونادية تجلس على الأرض، مريم وعلي يجلسان على مفرش من الصوف، جاء الحديث عن عمّي الراقد في المستشفى، فقال لي بشير إنه يرغب في زيارة عمّي غداً، وبإلحاح من نادية طبعاً، فهي تحبّ عمّي، لدرجة كبيرة، فهو صديق لأبيها سليمان البنّا منذ أن أشاد لنا بيتنا السابق قبل عشرات السنين. وكثيراً ما حدّثتنا عن ذكرياتها البعيدة عن عمّي حين كان يزورهم في بيت أبيها. هو مَن زوّجها إلى بشير. كان عمّي يقول عن ذلك إنه ما إن رأى تلك الفتاة ذات العينين الزرقاوين حتّى اشتهاها؛ لكي تنضمّ إلى نسيج العائلة. تذكّرتُ سيّارة عمّي الحمراء، وتذكّرتُ الصخور التي كان يجلبها من المقالع البعيدة، وسيجارة البنّا سليمان، وهي لا تفارق شفتيه، وكان يعتلي الجدار، والفأس الصغيرة بيده، وظهره المنحني على الصخور يرثبها، يُنجّرها، يكسر من هذا الطرف أو ذاك؛ كي يعدّها؛ لتجلس بانتظام جنب الخيط الطويل الذي يسير البناء على ضوئه. نعم، رأيتُني وأنا أتنقّل بسطل الماء بين العاملين، أصيح بملء صوتي عن المياه الباردة، وأخوض برجليّ الحافيتين، ودشداشتي البوبلين الملوّثة بعصير التمر الخستاوي، في الجصّ وكسر الصخور والأسس المحفورة المعدّة للبناء. أتذكّر سليمان بعينيه الصغيرتين ووجهه الأسمر الفأري وقامته القصيرة، وأقارن بينه وبين ابنته نادية زوجة أخي بشير. القامة الممشوقة السامقة، العينان المتألّقتان دائماً في الحزن والفرح، الشفتان الطريّتان الشهيّتان والأسنان الياقوتية، والشعر الأشقر الطويل الذي كانت تُخفيه تحت ملفعها البريسم. هل كانت تحبّ عمّي هذا الحبّ كله كونه هو السبب في زواجها من أخي بشير؟

قال لي بشير سنسافر غداً إلى العاصمة لرؤية عمّي رشيد، نادية في شوق لرؤيته، وطلب مني البقاء في البيت مع مريم وعلي. ووافقتُ، ويا ليتني لم أوافق؛ إذ لم أر بشير بعدها على قيد الحياة. قتله ذلك الجندي

الأميركي في مدينة الشعب دون رحمة. شُفي عمّي، وقُتل أخي بشير، هل يصدّق أحد هذه المصادفات؟ إنها لا تجري إلا في بلدنا، في أوقاتنا الملتبسة، الأوقات التي اختلطت بها الأوراق مثل قدر يغلي. زار عمّي في مدينة الطّبّ، واطمأنّ على صحّته، ثمّ تركه ظهراً لزيارة صديق، يسكن في مدينة الشعب جنب سوق المنطقة الشعبي، المسمّى بسوق شلال، ثمّ حدث ما حدث. ذلك الجندي الأميركي الأسود، الواقف متأهّباً في سيّارة نقل الجنود الضخمة، حسبه سيّارة مفخّخة، يستهدف الرتل المارّ، فأطلق الرصاص. وجاءنا الخبر مساء. جاء إلى بيوتنا مثل غمامة سامّة. لم يمت عمّي رشيد، بل فاجأنا أخي بشير بموته، ونزل ذلك الاتّصال من نادية مثل صاعقة شتوية. نزل مثل مياه ساخنة في صيف حارّ. مثل انفجار مهول في ليلة مقمرة. مثل فيضان النهر في شتاء ممطر. مثل بصقة هاطلة من سماء صاحية. مثل منجل في ساق شجرة الرمّان. مثل طلق مخفق، لامرأة شابة.

في الزمن الداكن هذا، عليك أن تتوقّع حدوث كل شيء، حتّى المعجزات. ليس مصادفة أننا جيل، استدار به الزمن من القرن العشرين إلى القرن الواحد والعشرين، وحملثه أمواج الألفية الثانية، وأسلمثه إلى أمواج الألفية الثالثة، فالاستدارات عادة ما تحمل معها الكوارث، كما قرأتُ ذات مرّة في كتاب عن الزمن وطيّاته. مقتل أخي بشير كان مصيبة. كان حفرة في طيّة الزمن الداكن ذاك. تجمعنا قرب الجامع، شباب، كهول، نساء، أطفال، أمّي، خالتي، أولاد عمّي رشيد، أولاد المختار حسن الملا خضر، والمساء تحوّل إلى يوم حشر. لم أجرؤ حتّى الليلة على سؤال نادية عن حياتها الزوجية مع أخي بشير. كانت هذه المنطقة مليئة بالألغام، والحفر، والفخاخ، لا أرغب أن أضع نفسي في مواجهة أخي الذي أحبّه ضمن دائرة الهوى الأنثوي وتفاصيله. أرتجف كلّما لمعت الذكرى في خاطري، ورصدت المفارقة الحياتية التي أعيشها. كنتُ أجد بصمات أخي على كل بقعة من جسدها، وروحها. وقد يكون الشبه الكبير بيننا هو الذي جعلها تتقبّلني زوجاً لها.

انتُدب ثلاثة أشخاص للذهاب إلى العاصمة من أجل إحضار أخي من الطّبّ العدلي، لم يتجرأ أحد على سؤالي؛ لأنني كنتُ في القاع من روحي. لم أتخيّل حتّى في الأحلام أنني سأدفن أخي بيدي، جلستُ أمام الجامع صامتاً، المُعزّون يقفون أمامي، ويرطنون بكلام، لا أفهمه، عيناي شابحتان في السماء، الثريّا والدبران، القمر والمجزات، الميزان بنجومه الثلاثة يتلألأ

فوق ذرى التوت والنخيل، الأضواء مجسّات لعالم غريب، السيّارات تأتي وتذهب، تختلط الأماكن في رأسي، وتتداخل الأصوات، والصراخ يتصاعد من البيت. كنتُ أتخيّل عويل نادية، وهو يرتفع نحو السواد المشبوح قرب النجوم، الثعالب تعوي في مكان ما من ضفاف النهر، البؤس يُهيمن على السّدّة، والعاقول، والشوك، وحياتي تتمثّل لي عبر شريط فجّ، بين الأمكنة والمُدُن، بين الشوارع والبلدات والطرق الموحشة، أخي الذي سكنتُ في بيته مات.

أخي مصطفى كان يقطن في المدينة، اشترى شقّة صغيرة في الأطراف، أخي الأصغر مؤذّن الجامع سَكَنَ مع أمّي بعد موت أبي بالسرطان، عمّي ابتنى قصره المنيف قرب بيت بشير، بشير أشاد بيته قبل أن أعود من غربتي. غبتُ أكثر من عشر سنوات عن القرية، وحين عدتُ، قال لي بشير اسكن معنا، هناك مكان واسع، وأفرد لي غرفة الضيوف، التي ملأها بالأرائك والسجّاد والمرايا والصور، ومن بينها صورة أبي الراحل، اللحية البيضاء والعقال الأسود المنتصب على كوفية بيضاء، وذلك التعبير الصارم في الوجه. مات أبي بالسرطان حين كنتُ أنا في الخارج، وأخبرني ابن خالتي ماهر بالموضوع بعد أن مرّ عليه أكثر من سنة، وكنتُ انقطعتُ عن أخبار الأهل تماماً. لكن موت أبي لم يزلزل كياني مثل موت عمّي، وكثيراً ما فكّرتُ بهذه المفارقة، ووصلتُ إلى نتيجة أن أبي كان يغيب كثيراً عن البيت، والوحيد الذي ظلّ أمام باصري هو عمّي، وكان يحبّني مثل ابن له. قال لي بشير بعد عودتي اعتبر البيت بيتك، ونادية هي أختك وأمّك، ولا تتحرّج من أيّ طلب، لم نصدّق عودتك سالماً من الغربة، وهكذا عشت السنوات الماضية مع أخي بشير وزوجته نادية وابنته مريم وابنه علي. كل ذلك رأيته وأنا جالس أمام باب الجامع منتظراً تابوت بشير القادم من العاصمة.

عشتُ ليلة غريبة، ففي الساعة العاشرة من الليل البهيم، جلبوا التابوت، ووضعوه في الجامع. أتذكّر تفاصيل الليلة، بوضوح، وكيف عدّ بشير شهيداً، باعتباره قضى بيد واحد من الكَفَرَة، لذلك ظلّ التابوت مغلقاً في انتظار الصباح؛ كي يشيّع إلى المقبرة. ما إن تمّ دفن أخي بشير في المقبرة حتّى انعطفت حياتي انعطافتها الحادّة، وأخذتْ مساراً، لم يكن يرد على ذهني مطلقاً. أول خطوة لذلك الانعطاف الحادّ، والجذري، هو انتقالي للعيش في بيت أهلي، بيت أخي الآخر أحمد، وهو لا يبعد سوى عشرين متراً عن بيت بشير، ويفصل بين البيتين الشارع المبلّط الضيّق الممتدّ من

نزلة الجامع حتى الطريق السريع. ظلّ المُعزّون يتواردون على بيوتنا أكثر من أسبوعين، وتحوّل بيت بشير إلى نهر من الدموع، دموع النساء القادمات من قرى أخرى، ومن قريتنا ذاتها، أمّا دموع نادية؛ فلم تنقطع، لا في الليل، ولا في النهار. احتجبت خلف جدران البيت، مثل حمامة خائفة، ودخلت العذة بروح سوداء مثل ملابسها.

# الفصل السادس

أتذكّر اليوم مثالاً واحداً، جسّد فيه عمّي غرابته وشذوذه الملحوظ من قِبل الجميع. اقترح عمّي - ذات مرّة - علينا اقتراحه الغريب، وغير المتوقّع، وهو مرافقته إلى المقبرة. كان ذلك في وقت ما بعد الظهيرة، وظننتُ أنه يرغب في زيارة الأموات وقراءة الفاتحة على أرواحهم، علماً أن المعروف عن عمّي نفوره من هذه الأعراف، وتحسّسه من القبور. أحضر مسحاة البيت والمنجل، وجلب حمار بيت خالي المربوط في البستان، ثمّ طلب من أمّي جلب برميلي مياه من الساقية، ووضع البرذعة على ظهر الحمار. طلب مني حمل المسحاة، بينما حمل ماهر إبريقاً من الماء الصافي للشرب خلال الرحلة، جلبه من الزير المنصوب في حوش بيتنا، وركب أخي مصطفى على ظهر الحمار بعد أن أوثق عمّي البرميلين على جانبي الحمار، بحبل من الصوف. سار عمّي أمامنا، والمنجل بيده، واتّجهنا نحو الشمال، عبر الطريق الذي يخترق بساتين النخيل. جدّي كان يشرب القهوة في مضافة المختار حسن الملا خضر، وجدّتي ميّاسة جالسة في المجاز تغزل الصوف، بمغزل خشبي، وأمّي سألت عمّي عمّا ينوي فعله، فلم يجبها بشيء. أمّي لا تناقش عمّي كثيراً، فيما يفعل، أو يتصرّف من غرائب، وفي قرارة نفسها، تعدّه شاباً طائشاً، سيكون للزواج أثر كبير في شخصيته، وسيعيده إلى جادّة الصواب بعد أن يتأهّل بزوجة وأطفال لاحقاً. كنتُ أفكّر بما يريد عمّي فعله بالمسحاة والماء والمنجل، ولماذا يأخذنا إلى المقبرة، لكنني لم أجرؤ على سؤال عمّي عن مشروعه، تعوّدتُ مع عمّي، وأبي أيضاً، أن لا أبدأ معه الكلام. عكس جدّي. جدّي ما إن يجلس وحيداً في المضافة حتّى يناديني؛ لأجلس جنبه على الفراش، ثمّ يبدأ بسرد طفولته حين كان راعياً للغنم قبل عشرات السنين.

مشيتُ في تلك الظهيرة خلف الحمار واضعاً المسحاة على كتفي، أنقلها بين فترة وأخرى من كتفي اليمين إلى كتفي اليسار. بمحاذاة بستان النخيل بدأ عمّي يغنّي، ونحن نُنصت، ووقع حوافر الحمار يتردّد في الهواء بانتظام، والسدّة مهجورة، لا يمرّ بها سيّارات، فقد عاد باص ابن المختار منذ أكثر من ساعة، والهدوء مهيمن، وفي الأعلى من بين السعف، كانت

الفاختات تهدل بصوت منغم، وثقة غربان تحلّق فوق حقول الجت والذرة والبرسيم وبساتين النارنج. هو نهار كأيّ نهار آخر، يمرّ علينا في حياتنا البطيئة الكسولة التي لا تعير أهمّيّة للزمن، لولا الرحلة المجهولة التي نقوم بها. أخي مصطفى يبدو فرحاً بوجوده على ظهر الحمار، يطلق أصواتاً، تحثّ الحمار على المشي، ويجذب الرسن إلى صدره، إذا ما بدأ الجري، وكان ماهر يلتقط - بعض الأحيان - تموراً متساقطة من العذوق، يضعها في جيبه، ويلتهمها لحظة بعد أخرى. سنشجّر المقبرة، قال لنا عمّي دون أن يوجّه كلامه إلى أحد منّا، يدرك هو أننا مجرّد صبية صغار، لا نفقه شيئاً بهذه الأمور. لم يجرؤ أحد على الاستفسار من عمّي عمّا يقصده بتشجير المقبرة.

تطلّعنا إليه مدهوشين، فاغري الشفاه. منذ أن وعينا على الحياة ومقبرتنا عارية، رمال الصحراء المحيطة تضربها كل صيف، وتترك طبقة خفيفة من ذرّاتها على القبور والأرض المليئة بالحصى والتراب الناعم. مقابرنا - دائماً - موحشة قاحلة، يضعها الناس في الصحاري البعيدة والتلال النائية، كما لو أنهم يخشون وجود الموتى قربهم، عدا ذلك، فمَن يفكّر بتوفير بيئة خضراء، ويانعة لأكداس من العظام والجماجم والجنّ والشياطين؟ لكنّ؛ رغم ذلك، كنّا متحمّسين لمرافقة عمّي، مع جهلنا بما ينوي القيام به. العاقول والشوك إلى يمين الطريق ويساره، يحتكّ بدشاديشنا، ويخز سيقاننا، وتطير - بعض الأحيان - فراشات بيض فوق رؤوسنا قادمة من حقول الجت، وأزهار الفجل، كما لو تستكشف هذه المجموعة المثجهة إلى المجهول. حدستُ أنها - ربّما - تلاحق ماهر؛ لأنه يملأ جيبه بالتمر. الفراشات تحبّ كل ما هو حلو وسكّري.

سنجعلها خضراء مثل مقابر أوربا، قال عمّي موجّهاً حديثه إلى الفراغ، ولم نفهم ما الذي يعنيه، كيف يجعل عمّي المقبرة خضراء؟! ومَن هي أوربا؟! وكيف عرف عمّي أن مقابر أوربا خضراء؟! هل سمع ذلك عبر الراديو؟! أم أن أحداً ما أخبره بالأمر؟! لم نردّ على كلام عمّي، لكنه تابع، كما لو أنه يتحدّث لشخص آخر غيرنا، لقد رأيتُ مقابرهم في السينما، هناك في أوربا، إنها تشبه الجنّة، السرو والصفصاف والثيل والممرّات والشواهد المرمرية والقبور الأنيقة. الأموات هناك سعيدون، وهم يرقدون في تلك الجنّة، لماذا تظلّ مقبرتنا جرداء، لا نرى فيها سوى الرمال والغبرة وأشباح الجنّ والشياطين والوحوش؟!

لم يكن أحد منّا يعرف ما هي السينما! قال جدّي ذات مساء، وهو

يحذث واحداً من جلاسه إن المدينة فيها سينما، تعرض رسوماً لأشخاص، يتكلّمون، ويتقاتلون، ويعرضون أجسادهم العارية، ولكنْ؛ لا يذهب إلى هناك سوى الطائشين والسرسرية والفاسدين. كانت السينما - بالنسبة لنا - مكاناً مرعباً وغامضاً، كل مَن يدخله يودّع الفضيلة إلى الأبد، يصبح منبوذاً من الناس. صورة السينما تضمّ - كذلك - الخمرة، والقحاب، ومغتصبي الأولاد، والشحّاذين، وقوّادي البيوت السرّيّة، وسُكارى الحانات، والحرامية، لهذا ترتسم في مخيّلتنا باعتبارها صورة فاضحة مثل مؤخّرة لعنز. ما إن حاذينا بيوتنا القديمة المهدمة حتى طلب منّا عمّي التوقّف، قال إنه سيدخل بستان إبراهيم لساعة، وينبغي انتظاره بجانب الطريق. إبراهيم واحد من أقربائنا، ما يزال يسكن بيتاً من الطين، ولم يدخل إلى فضاء الحضارة الصخرية التي دخلها أغلب أسر القرية، كونه لم يستطع توفير نقود كافية لبناء منزل من الصخر.

بستان إبراهيم يقع خلف البيت، مسوّر بسياج من الطين، خفيض، ثبّتَ عليه إبراهيم قطعاً من السعف ذي السلّ لدرء اللصوص الصغار والحيوانات؛ كي لا تهاجم الأغصان المتدلّية نحو العشب. أشجار رمّان وتين ونخيل قصير، لم يمرّ على زراعته سوى سنوات، أشجار برتقال وتفّاح، أشجار ورد الجوري تحاذي السياج، وبعضها مقابل شبابيك البيت الخلفية، وتين ينتأ في الهواء، يشبه الأصابع القديمة. ترك إبراهيم - وهو المشهور بحرفيته كفلاح - ممرّات بين صفوف الشجر، بينما أحاط كل شجرة بحوض، يأخذ ماءه من سواقي، تتخلّل البستان مثل شبكة عنكبوت. غاب عمّي في البستان. انتظرناه، بصبر وخوف، وبدأنا نتاهمس عن مشروعه غير المفهوم، وقال أخي مصطفى إن عمّي جنّنته العاصمة، وإلا مَن يقدم على زرع المقبرة بالأشجار والثيل؟ قال ماهر فكرة عمّي فكرة عظيمة، فالخضرة تطرد الجنّ والشياطين من المقبرة، وهذا الأمر لا يتناقض مع الدين، وهو - على كل حال - أكبر منّا، ويعرف أكثر ممّا نعرف. كنتُ أنا خائفاً من أن يتعرّض ماهر إلى نوبة صرع خلال الرحلة، ويقضي على متعة هذه المغامرة.

أفكّر اليوم بتلك الرحلة، ويعود خيالي إلى صورة عمّي المغمورة بالأحلام؛ أي قبل خمسين سنة من اليوم، يقيناً أن عمّي فقد عقله وقتها؛ لأنه سيتزوج خالتي سميعة، وحركته تلك ما كانت سوى حركة ديك ينفش ريشه تفاخراً أمام بقية الدجاج. يريد أن يقول إنه ومنذ - أن عاش في العاصمة - أصبح كائناً آخر، كائناً غير هؤلاء الفلاحين البسطاء الذين لم يرَ

أحدهم في حياته سوى مدينتنا الصغيرة، مقارنة مع ضخامة العاصمة. أجل، تغيّر عمّي كثيراً منذ أن غادرنا نحو العاصمة. كلامه تغيّر، ولهجته بدأت تتقفص إيقاعاً ثانياً. يرتدي البنطلون والقميص والسترة، يتعطر بعطر نفّاذ، لا يفارق المشط البلاستيكي جيبه، واشترى نظّارات شمسية سوداء، يضعها على عينيه - أحياناً - حتى في المساء. صار يضع معجوناً أبيض على وجهه قبل الحلاقة، ويستخدم فرشاة صغيرة من الشعر، وعمّي لا يدخّن، لكنه بدأ يحتفظ بباكيت من نوع فاخر، يسمّيه كريفين، أو، أبو البزون، كون الباكيت رسم على صفحته قطّة سوداء، مع قدّاحة مذهّبة، تشتغل على الغاز، يقدّم منه سجائر لأصدقائه، إذا ما زاروه في البيت، أو حين يجلس على الأرائك، في دكّان زابط المضحي للعب الدومينو. أول مَن استخدم فرشاة الأسنان والمعجون كان عمّي، وكنتُ أراقبه متعجّباً، وهو يمدّ تلك العصا الصغيرة المنتهية بكتلة من الشعر في فمه، ويحرّكها يميناً ويساراً، أعلى وأسفل، والفقاعات البيض تُبقبق من زوايا شفتيه. يا للذكريات البعيدة! أرى عمّي من هنا، من هذه الغرفة المعلّقة في الطابق الأعلى، في بيتنا المستأجر وسط مدينة غريبة، كما لو أن عقلي تحوّل إلى عربة للزمن، تنقلني إلى الماضي؛ لأعيش فيه، أراه، وأتنفّسه، وأسمعه. استنتجتُ في حكمة، وصلتُها ببطء، بعد نار العمر ومآسيه، أن تذكّر ذلك الماضي وتدوينه، يمنحني عمراً آخر، ولذّة مُستعادَة. صحيح أن أمامي خطّ النهاية، لكن خلفي كتلة زمنية هائلة أتغلغل بين طيّاتها، بهذا - ربّما - أضاعف عمري، وأوسّع من تخومه، رغم أن الموت هو ما ينتظرني.

على ذلك الشريط المستعاد، على نيكاتيف الماضي المزعج، عبر سينما أعمارنا الكئيبة، والقاحلة مثل صحرائنا المرملة، رأيتُ عمّي كيف قطع رزمة من قضبان الرمّان، ووضعها قربنا، ثمّ عاد - ثانية - إلى البستان بحيوية الشباب، وعزيمته، وبعد دقائق، جلب فسيلتين من النخيل، يبلغ طول الواحدة متراً فقط، وما تزال العروق عالقة بالتراب والرطوبة، ثمّ جلب شجرتين صغيرتين من اليوكالبتوس، وعجبنا من أمر عمّي كثيراً حين عاد - أخيراً - بكتلة كبيرة من الثيل ملفوفة بقطعة رطبة من الجوت، تساءلنا عمّا ينتوي فعله مع كتلة ثيل مثل هذه في مقبرة، لا تضمّ سوى الحصى والعرفج والرمال الجافّة مثل عظام الجرابيع. وطلب منّا حمل ما نستطيعه من الأشجار والفسائل، ووضع الباقي على برذعة الحمار أمام أخي مصطفى. أبقى لنفسه شجرة صفصاف يانعة ذات عروق سوداء، يتفرّع منها شرايين ناعمة، ثمّ سار أمامنا كالعادة. الطريق معروف لدينا، طالما اخترقناه، ونحن نذهب إلى المدرسة، بستان نخيل حمادي، السّدّة

الخفيضة المازة من خلال المستنقع، ثمّ الطريق المحاذي لبيت كامل أبو الغزلان، ودكّان زابط. من هناك، بانت لنا المدرسة التي ما تزال من الطين، وشجرة اليوكالبتوس العملاقة ترفرف في السماء، وبدأنا ننأى قليلاً قليلاً عن تخوم القرية.

لم يعد حولنا سوى الحقول البور والأراضي المتروكة، التي قادتنا إلى كتف الصحراء؛ حيث المقبرة. القبّرات تهرب من ضوضائنا، الأرانب تفز من وسط حقول القمح المحصود، الحشرات الصغيرة تتقافز بين مخابئها، والشمس خفيفة، والهواء فيه برودة ناعمة. وكان هناك غيمة من الفرح تلفّنا كلنا، وإن لم نصرّح بها. سار الحمار أمامنا بصبر ونباهة، كما لو أنه عرف أفكارنا، وتيقّن أننا نتجه إلى مكان ما، هو المقبرة، لا غيره. الصحراء هناك، الكمأة والفطر والأرانب وبيوت البدو، الصحراء بغدرانها وبيض نعامها وعواء ذئابها، السراب ينهض من الأفق، ويتلوى أمام عيوننا، والبدو غائبون، والمُدُن التي حكى عنها جدّي ذات مساء، تتوارى خلف الرمل، والسراب، وطيور القطا. وكان عمّي - بين فترة وأخرى - يسألنا بصوت مرتفع هل تعبتُم؟ فنردّ عليه بصوت واحد، كلا، كلا، يمكننا حتى قطع الصحراء كلها، والوصول إلى سامزاء دون تعب. يبتسم عمّي، يتراقص شارباه الكثّان، تهتزّ كتفاه من السعادة، ويواصل سيره حاملاً شجرة اليوكالبتوس.

المقبرة تسبح في السراب، الجراد يتطاير فوق القبور، وأرواح الموتى لها حضور كثيف، فهنا يرقد أبو جدّي، والمختار محمود ذو العين الزجاجية، وشيوخ آل طه الكبار وجدّتي لأمّي دلّة التي ماتت قبل أن أولَد بسنة، والغرقى الذين ماتوا في أصياف سابقة، والنساء المتعسّرات بالطلق، والمواليد غير الأصحّاء الذين دُفنوا دون أسماء. معظم القبور بلا شواهد تدلّ عليها، في الفترة الأخيرة، بدأت الأسر تكتب أسماء موتاها على حجر أبيض، وتضعه عند رأس القبر، وقد اختار عمّي فسحة واسعة بين القبور. بدأ الحفر بالمسحاة، قال سنزرع هنا النخلة، ثمّ حين انتهى من الحفر، وضع الفسيلة حتى سعفها في الحفرة، ثمّ جمع التراب حولها، وأحاطها بسور صغير، وسكب المياه من أحد البرميلين. تخيّلتُ العروق، وهي ترتشف الماء، وتخيّلتُ النخلة طويلة، ستأكل العصافير من تمرها في السنين القادمة، وأكّد عمّي أنها من نوع البربن. وهو نوع نادر في القرية. فكّرتُ ملياً بنخلة وسط القبور، عروقها ستتغذّى من دماء الأموات ونخاعهم، وقرّرتُ أن لا أتناول من التمر في المستقبل. وهكذا على بُعد

أمتار، فعل عمّي مع الصفصافة واليوكالبتوسة، ونساعده نحن بالحفر وجمع التراب وإزالة الحصى. زرع قضبان الرمّان على حافة المقبرة، وقال - بفرح - سنضع اليوكالبتوسة الأخيرة في الوسط، وستكون الشاخص القادم الذي سيراه المرء من مسافات بعيدة. نشر كتلة الثيل قرب قبر جدّتي دلّة، وسقاها بالماء، وأكد أن جدّتي ستفرح بخضرة الثيل، وستدعو له بالتوفيق. أنجزنا العمل، وجلس عمّي راضياً سعيداً على قبر دارس، هو قبر جدّه شيحان، وكان رافعاً دشداشته البيضاء حتى الركبتين، وعيناه تنظران في وجوهنا، كما لو كانتا تباركان الجهود التي بذلناها في تحويل المقبرة إلى جنّة.

في دكّان زابط المضحي، كافَأنا عمّي بدورة من قناني المشن البارد، وطلب منّا الرجوع إلى بيوتنا، بينما لبث هو في الدكّان للعب الدومينو. لم ندرك - وقتها - أن ما قام به عمّي أحدث رجّة في بيوت القرية ورجالها، من الشيوخ خاصّة؛ اذ عدّ البعض منهم أن فعل عمّي لا يتناسب مع روح الشرع، فالمقبرة ينبغي أن تبقى موحشة، قاحلة، تضيق بها الروح، وتقلق العين لمرآها؛ كي تذكّر البشر الفاني كل يوم، وساعة، بالموت، والدار الآخرة، وعذاب القبر. ما فعله عمّي عكس هذه الحكم تماماً. جدّي لم يعلّق كثيراً على ما قمنا به، وعدّ أن أيام الطيش ستنتهي قريباً، ما إن يدخل عمّي على خالتي سميعة. عدّ ما قام به سفاسف، لا تستحقّ الكلام. الشباب الذين يعرفون عمّي فسّروا الحكاية على أنها لا تعدو أن تكون منفخة، يقوم بها شخص، يعتقد أنه أصبح متحضّراً، كونه صار من روّاد العاصمة وحياتها الخليعة الفاسقة. وظلّت جدّتي ميّاسة صامتة كالعادة، تسمع التعليقات، وتبتسم، كما لو كانت تقرّ بأن أيام طيشه معدودة، وسيعقل ما إن يجرّب لذّة النكاح.

كم سنة مرّت على ذلك التاريخ؟ أفكّر، وأنا أستعيد صورة الشجيرات الخضراء بين القبور، أن عمّي عاش حياته كلها، وهو يروم الخروج من شرنقة القطيع الذي يعيش وسطه. كان يسعى إلى الفرادة، المشط البلاستيكي، النظّارات الشمسية، المصباح اليدوي الذي جلبه من المعسكر، راديو الفيلبس ببطّاريته الثقيلة، اللوكس الذي جلبه للعرس، وكان أول آلة تدخل القرية؛ لكي تجعل من الفانوس آلة عتيقة. جلب عمّي اللوكس مع السبريتو، وبضع فتائل بيضاء ذات ملمس حريري ناعم، محاولة منه لدخول عهد جديد في حياة القرية. جدّي ظلّ كعادته يحضّر للعرس، كلّما اقترب يوم منه، تذكّر أنه بحاجة إلى النزول إلى السوق، الثياب الجديدة

للنساء، الخرفان، الرزّ، الشاي، جمع القدور الضخمة لطبخ الرزّ، واللحم، الاتفاق مع الطبال، والتفاهم مع اللّص لافي، وتحضير المفارش التي ستمتدّ في الفسحة لجلوس الضيوف، وسطول المياه، وأدوات القهوة المرّة من نجر، ودلال، وبن، وهيل، ومناديل، وأباريق، يغسل بها الضيوف أياديهم. زرع عموداً من الصفصاف لتعليق اللوكس في الفسحة الواقعة بين بيتينا. كتب أخي مصطفى لأبي بضع كلمات، طالباً منه المجيء لحضور العرس، والبريد كان يقع قرب مبنى البلدية في المدينة، وقد أوصل المكتوب حسن ابن المختار إلى هناك، ووضع عليه الطابع، ولم يأخذ نقوداً من جدّي. عَدّ ذلك هدية زواج بسيطة لعمّي، وكان أبي لا يزورنا إلا مرّة واحدة في الشهر، يضع النقود في كفّ جدّي، ثمّ يبقى يوماً، أو يومين، ويعود إلى عمله. كنتُ - وقتها - أتساءل لماذا لا تشتاق له أمّي سلمى، كما تشتاق خالتي سميعة لعمّي رشيد؟ عمل أبي في شركات أجنبية ومحلّيّة، وتجوّل بين المُدُن وفي القرى، وعُدّ بين أقرانه من أمهر سائقي الحفّارات الذين شقّوا طريقهم في المهنة نتيجة لذكاء ربّاني، يُمنح لأشخاص معدودين فقط. وبالتعاون مع عمّي وخالي وأخي مصطفى وعمّي فاضل وأنا، مهّدنا الساحة، بشكل سويّ، ووضعنا المسمار الغليظ في العمود وسط الساحة؛ كي يتحمّل ثقل اللوكس، وشققنا أخدوداً في الفسحة بين بيت عمّي فاضل وبيتنا؛ لكي تُوضع عليه القدور، قدور اللحم والرزّ.

كانت رسائل جدّي الشفهية تصل معظم البيوت في القرية، تُخبرهم بالخميس الذي سيتزوّج فيه عمّي. معظم زيجاتنا تتمّ في يوم الخميس، باعتباره يوماً مباركاً. احتجبتْ خالتي سميعة قبل يومين من العرس. لم تعد تظهر على التنّور، وغابت عن الحشيش وملء براميل المياه من الساقية، وكفّتْ عن زيارة بيتنا، ورأيتُ الحنّاء تلوّن قدميها وكفيها، ولاحظتُ الفرح في وجهها، كما صارت أكثر ودّاً معي أنا، بل وأطعمتني قبل يوم من العرس قبضة من الزبيب. وبعد ليالي من الغناء والحنّاء والتطريز والخياطة وحفّ الشعر ومراكمة مستلزمات الفرح، حلّ يوم العرس. طُبخ الرزّ واللحم بقدور ضخمة، وجُهّزت الصياني وأباريق الغسيل، ورُصّت استكانات الشاي في صواني كبيرة من الفافون، تُستعمل - عادة - لوضع الوجبات في أثناء الفطور، ومُدّت البسط والمفارش في الفسحة الواقعة بين بيتنا وبيت خالتي سميعة.

عصراً، وسط نهار خريفي صاف وهادئ، أخذ رجال القرية يتوافدون إلى العرس، وجاءت النساء إلى بيتنا؛ حيث اكتظّ الحوش ذو الأرضية

الإسمنتية بهنّ، وراحت تنبعث في فضاء الحوش رائحة السعد، وماء الورد، والديرم، مختلطة برائحة العَرَق والأنفاس، ممّا جعل الهواء وخماً ثقيلاً، يُجبر بعض النسوة على الخروج والتجوّل حول البيت، ثمّ الرجوع - ثانية - إلى الحوش. جهّز عمّي اللوكس، ما إن اختفت الشمس خلف غابة النخيل الغربية المحاذية لضفّة النهر البعيدة، وأنهى الضيوف تناول طعامهم، وغسل أيديهم، وشرب الشاي، أمّا الصبيان؛ فقد احتلّوا أطراف المجلس، والجميع يترقّب لافي الحرامي، وأماثيله المشهورة في القرى. لافي الحرامي لا تُخطئه العين. وجه أصفر اللون، شعر اللحية خفيف، وعينان حاذتان ضيّقتان، وضحكته سريعة، لا يمكن التمييز بين صِدقها وافتعالها. العهد الذهبي للافي، وشمعته التي ملأت الآفاق كان في أيام المرحلة الطينية من عمر القرية، حين كانت الجدران من الطين، يسهل خرقها. في تلك السنين، اشتُهر لافي بسرقة البيوت، بواسطة برينة حديدية، يخترق بها الجدار، يصنع كوّة صغيرة، تُمكّن جسده النحيف من التسلّل إلى البيت. قرى الضفتين عرفت لافي وقصصه، لكنه لم يشكّل خطراً على أعراض الناس وممتلكاتهم الحقيقية؛ إذ كان يسرق ما تقع عليه يداه من ظروف دهن ودبس وملابس وأغطية وغرابيل وطحين، وغير ذلك من مؤن يومية، يبيعها في المدينة بأثمان ضئيلة، لكنها كافية لمعيشته. وحين دخلت القرية في المرحلة الصخرية، صارت البرينة لا تجدي بثقب الصخور، غادر لافي مهنة اللصوصية، واشتغل في تجارة الدواب، بيعاً وشراء، ثمّ تزوّج، وأنجب، وسكن في إحدى قرى الجانب الثاني من النهر القريبة من التلّة التي تقع على مشارف المدينة، وتحوّلت إلى مقبرة منذ نهاية الخمسينيات. رغم سُمعة لافي السيئة كونه لصاً، لكن معظم الناس يحبّونه، ويحبّون سماع نكاته وقصصه ومغامراته في الليل، المغامرات التي يختلط فيها الواقع بالخيال، ممّا يترك السامعين مذهولين من أية حكاية، يحكيها. نهاية لافي كانت مُحزنة. أتذكّرها الليلة، بوضوح. نهايته المحزنة حصلت بعد عرس عمّي بتسع سنوات تقريباً، وكنتُ تأخّرتُ عن باص القرية، فاضطررتُ إلى عبور النهر، بواسطة البلم، وأخذتُ من هناك باصاً نحو المدينة، حين سكنّا في بيتنا الذي اشتراه أبي لنا، ويجاور بيت سليمان البنّا. اقترب الباص من الشارع العامّ، بمواجهة تلّة المشيهد، وعند واحد من البساتين الكثيفة النخيل، وجدنا جثة لافي الحرامي مطروحة بين النخيل، وقد اخترقتْ رصاصتان رأسه، وسال دمه على التراب. كان يشماغه محلولاً، يطوّق رقبته، وعيناه ثابتتان، تحدّقان في النخيل. وقيل - وقتها - إن لافي قُتل بسبب علاقته مع امرأة متزوّجة من جيرانه، لكنّ؛ لم

يثبت - لاحقاً - صِدقَ تلك الإشاعة، فسُجّلت الجريمة ضدّ مجهول، ونُسي لافي بعد سنوات من موته.

ضوء اللوكس يحيل الجلسة إلى بقعة متوهّجة في ليل القرية العميق، دائرة مضيئة، يحتلّ اللوكس مركزها، وحول تلك الدائرة بيوت الفلاحين، تنتشر بين البساتين، وتربط فيما بينها الدروب، البيوت كلها معتمة، سوى ذبالات صغيرة واهنة، يبثّها فانوس صغير هنا، أو قبس من نار موقد هناك. أحلام الفلاحين مثل قبسات الضوء، واهنة، سرعان ما يبتلعها ظلام الليل، وتوحّش الحقول. حول اللوكس المعلّق في العمود تتطاير الحشرات من كل صنف ولون، وفي الأرض، تدبّ ديدان ليلية سرعان ما تدعسها الأرجل دون رحمة، ثمّ تُلتقط من قِبل الشباب، وتُلقى في الحقل المجاور للمجلس.

يغنّي واحد من الرعاة وصلة من العتابا، والنايل، والأبوذية، يُسكِر حزنها السامعين، وتنطلق الآهات من الصدور. راع مشهور بحُسن صوته، خاصّة حين يكون وحيداً مع أغنامه في البرّيّة، وهامت بصوته كثيرات من فتيات القرية ونسائها، حتّى إنهنّ كنّ يدعونه في ليالي الشتاء؛ ليغنّي لهنّ حول الموقد، والشاي يدور بينهنّ، يحتسينه بعيون متلامعة من الشهوة والهيام. الجالسون على الفُرش، الأطفال الرائحون والغادون بين مجلس الرجال ومجلس النساء، المعازيب، عيون الجميع مشدودة إلى الطبل والراقصين، وهم يدورون حول اللوكس مثل مجاذيب. وتثور بين الحين والآخر طلقات من بندقية برنو، أو أم كعيب، فترتدّ البساتين والأشجار صداها، وتهتزّ سعفات النخيل تحت ثقل الطيور النائمة، وهي تتأهّب للطيران مذعورة من الأصوات الثاقبة غير المألوفة. عفّي يشارك - أحياناً - ببعض الرقصات، ومنظره يُشعرني بالفخر، يلبس الدشداشة البيضاء، ويرتدي فوقها جاكيتاً أسود اللون، وتتطاير - حين يقفز مع الراقصين - لفّة شعره المدهونة بالبريلكريم، وعيناه تعكسان وهج الأشغة الحادّة المنبعثة من اللوكس. تحت الجاكيت، يرتدي عفّي المسدّس المعلق بحزام مذهّب، يطوّق جسده، بينما قراب المسدّس يتدلّى على خصره، ويترنّح كلّما قفز في الهواء، وأشاهده يُخرج مسدسه، ويسحبه بيده اليسار، ثمّ يوجهه نحو النجوم. يُطلق طلقة، أو طلقتين، كلّما ارتفعت حمى الرقص والهلاهل القادمة من الشبابيك المطلّة على المجلس. يتعب الراقصون، ويبدأ البعض يطالب بحضور لافي، ولكن لافي يظلّ مختبئاً حتّى اللحظة الأخيرة. يجهّز نفسه في مضافة أخوالي، وقد مُنع الأطفال والفضوليون من دخولها.

من الباب، يظهر لافي. يرتدي ثوباً نسائياً، يُسمّى ضلوع بنت الريف،

استعاره من إحدى نساء أخوالي، خيوط القماش الرفيعة الفضية والذهبية تتلاصف، ما إن تقع عليها أشعة اللوكس، بطنه الكبيرة تندلق أمامه، وهو يمثل دور الحامل، ويمشي بصعوبة. يرتكز مزة على رجله اليمين، ومرّة على رجله اليسار، ويغطي وجهه حتى العينين ببرقع أبيض شفّاف، فيما يضع يديه الاثنتين على كفله. يدخل الساحة صامتاً، ويسكت الجميع من الدهشة. لم يتخيلوا أن لافي سيمثل دور المرأة الحامل. أريد حامضاً، الولد يرفس، يصيح بصوت عال، فيضجّ الحاضرون بالضحك، ثمّ يصيح ثانية: رشيد، يا رشيد، وكان يقصد عمّي، اجلب لي سيخين كبدة مشوية للطفل، إنه جائع، ولا تنسَ الكرفس والطماطة المشوية والطرشي والبصل، فيضجّ الحاضرون بالضحك ثانية. كان لافي يجسّد رغبات البيئة الفلاحية، كما أفسّر أمثولته الآن؛ إذ كان مطمح الفلاحات حين الذهاب إلى المدينة لزيارة طبيب، أو للتسوّق النسائي، هو تناول وجبة من الكباب، أو الكبدة المشوية في أحد مطاعم المدينة. وهكذا راح يمثّل دور الحامل، وهي تطبخ، أو تكنس، أو تغزل بالمغزل، أو تحاول الصعود على حمار وَهمي، ومثل دور شخصيات معروفة في القرية مستحضراً، أبرز صفة لديهم سواء بالكلام، أو الحركة، ثمّ أنهى الوصلة بنمرة بذيئة، وهي كيف تضاجع الحامل زوجها، لكنه لم يتمّها، بل أوحى بها - فقط - وسط ضجيج الضحك والصياح ونداءات الإعجاب والاحتجاج المفتعل.

واصل تلك الليلة أمثولاته على ضوء اللوكس، وتحليق البقّ والفراش على رؤوس الجالسين، فاتّخذ شخصية جدّتي ميّاسة، وهي تتكلّم مع جدّي، وكيف يتعامل المضمّد مع مراجعاته من النساء، وخاصّة عفرا، التي يزرقها بإبرة من المياه، أو يعطيها حبوب وجع الرأس، أياً كان المرض التي تشكو منه. مثّل دور بدوي، يبيع الملح، ودور المدير حامد، وكيف يأتي على فَرَسه إلى المدرسة، ودور زابط المضحي صاحب دكّان الدومينو، وأنهى الوصلة، بصورة عمّي، وهو يستعدّ للدخول إلى عروسته، خالتي سميعة. أحسّ لافي نفسه مثل إله، يستطيع تجسيد صورة مخلوقاته، وأحاسيسهم ورغباتهم، فكان وجهه يتألّق بمياه سرّيّة، تجري في عروقه، دافعاً ماضيه، كَلِصَ إلى سنوات من النسيان. وسط ذلك الضحك، وتلك المتعة، وسط منات العيون التي ترقبه بفرح، شعر لافي أنه روح، تتمتّع بنبل عميق، بتسامٍ عالٍ، جعله يحلّق في ذلك الليل فوق الهموم اليومية للقرية. ورغم مرور سنوات طويلة على ذلك العرس، إلا أنه لم يغب من ذاكرة الجميع، حتى حين رُزق عمّي بأطفال، ظلّ الجميع يذكّره بليلة الدخلة تلك، وما جرى فيها من ألاعيب وسِخر، وكلّما مرّ ذِكر لافي، ومقتله،

كانت ليلة العرس، عرس رشيد، تنظ من الكلام؛ لتحضر في الحديث.

في الصباح، وجدتُ عمّي جالساً مع خالتي سعيداً، راضياً، ذا تعابير طفولية، يمسك يدها، ويحدّق في عينيها دون أن يعيراني أيّ انتباه. ورائحة غريبة تهيم في فضاء الغرفة. طوال أسبوع من إجازته، ظل عمّي يُغلق باب غرفته بعد العشاء، ولا يفتحها سوى في الصباح، وكأنه وجد - في النهاية - جميع النساء اللواتي حلم بهنّ متجمّعات بامرأة واحدة، هي خالتي سميعة. رُزق بالطفل الأول، وسمّاه قيساً، على اسم ابن الرئيس، وحين رُزق ببنت، سمّاها سميرة، على اسم المطربة البدوية سميرة توفيق، وبدأ عمّي، بعد أن سُرّح من الجيش، وأصبح سائق حفّارة مثل أبي، يفكّر ببناء بيت خاص به، واختار الحقل خلف البيت؛ ليكون مكاناً لحلمه القادم. لم يعد يذهب إلى دكّان زابط المضحي للعب الدومينو، ولا يتسكّع في طرقات القرية لمغازلة النساء، كما أنه ابتعد عن مخالطته لمعلّمي المدرسة، ولا يخرج ليلاً في غزواته الغامضة، ومغامراته التي لم تخلّف وراءها سوى الإشاعات.

# الفصل السابع

أفيق في الفجر، وأسمع نواحها، تجول وحيدة في المماشي المحيطة بالبيت، وهي تخبز، أو تتمشى، تفطر، أو تكنس، وهي تقلّب ملابسه بين يديها، أو الصور القليلة التي وُضعت في ألبوم أنيق، وشاهدتُها أنا عشرات المرّات أيام كنتُ أسكن في بيتهم. همست لي أمّي في تلك الليلة الكابوسية بأن أنتقل إلى بيتها، فعقب ذهاب بشير، لا ينبغي لي البقاء هناك، خاصّة ونادية ستدخل في شهور العدّة؛ أي الاحتجاب ثلاثة أشهر عن رؤية الرجال سوى المحارم، ممّا سيشكّل لي إحراجاً هائلاً أمامها وأمام الآخرين. عمّي الذي تعافى من إصابته، وخرج من المستشفى عائداً إلى بيته، لم يهتمّ به الناس ذلك الاهتمام المتوقّع، انزوى في بيته، كما لو كان يراجع تفاصيل الحدث الذي عاشه، وما العمل الذي ينبغي عليه القيام به. أظنّ أن مقتل ابنه يوسف طعنه في قلبه طعنة فاتكة، رغم أنه يحاول أن يتشبّث بالصبر، ويُظهر القوّة أمام الآخرين، ونحن نعرف أن التجلّد والصبر وعدم إظهار الخوف تُعدّ من سمات الرجال الأشدّاء. حتى في أثقل لحظات الحزن والفجيعة لم يرَ أحد دموع عمّي. الكلام الخارج منه مغلّف بغضب داخلي عميق، على ما آلت إليه الأوضاع.

موت أخي بشير طغى على محيطنا مثل غيمة سوداء. يغيب المعزّون، وهو ما صار شائعاً في الأسابيع الأخيرة، أجلس وحدي على الأريكة المقابلة للشبابيك المطلّة على الحديقة، وأستطيع أن أرى السياج المصنوع من البلوك الفاصل بين بيتينا، ويتراءى لي السطح، فأستعيد الليالي الماضية التي نمتُ فيها هناك مستمتعاً بمرأى السماء اللاهثة بنجومها، متأمّلاً بمصيري الغريب الذي وصلتُ إليه. في بعض الأوقات، أحسّ بالندم لرجوعي وتركي مدينة دمشق التي كانت تعني ريم، بالتحديد، وأتخيّلني، وقد أصبحتُ زوجها، وكيف أنجبنا أطفالاً، وعشنا حياة أنيقة مليئة بقراءة الكُتُب، والخمور، والرقص، والتجوال. أستعيد البيوت التي سكنتُها في مساكن برزة وجرمانا والزاهرة وقدسيا، والمغامرات التي عشتُها في ليالي تلك المدينة وجبالها. لكنه ندمٌ، لم يعد يجدي نفعاً، فقد دخلتُ نفق هذه البلاد، وهو ما قادني إلى ما أنا فيه.

مضافة أهلي مكتظة بالأثاث، خزانة للصحون الفرفوري، أرائك على امتداد الجدران، صورة كبيرة لأبي بعقاله ولحيته البيضاء وعيناه الصغيرتان الحادتان، اللتان تتحوّلان إلى مصدر رعب للمقابل، كلّما اجتاحه الغضب، وضعها أخي أحمد بعد أشهر من موته فوق خزانة الصحون. إنها الصورة نفسها موضوعة في مضافة بشير. في الطرف الشمالي من المضافة، تنتصب صوبة الغاز المشتعلة التي تُدفئ المكان، وتجعل الجلوس مريحاً في الشتاء. ورغم أنه بيت أهلي، لكنني لا أحسّ فيه بالألفة التي كانت في روحي حين كنتُ أسكن في بيت بشير. ربما جاء هذا الإحساس من المتعة المصاحبة لشخصية أخي بشير وزوجته نادية ذات العينين الزرقاوين، ومن لطافة علي ومريم، وأحاديثهما عن المدرسة، وما يدور في المحلات من طرائف ومستجدّات. هنا في بيت أمّي، أشعر بالغربة. كما لو كنتُ ضيفاً عليهم. فأمّي مغلّفة بأحزانها القديمة، وتلك التعابير المغلقة التي هيمنت على وجهها منذ رحيل أبي، ونزول الكارثة الجديدة، ألا وهي موت بشير. أمّي عادة ما تجلس في المجاز المفتوح وسط البيت، تتطلّع إلى التلفزيون، أو تطلّ بين فترة وأخرى؛ لتسألني إن كنتُ بحاجة إلى شاي، أو ماء، أو أي شيء آخر، يكون عذراً لها؛ كي تتكلّم معي، كما لو كانت تتلمّس الضيق الشديد الذي يملؤني بعد وفاة أخي. من سيدة البيت بوجود أبي، إلى عنصر فائض في بيت أحمد، أخي المشغول بعمله في معمل الزجاج الواقع على أطراف المدينة الغربية، وكُتُبه القديمة التي يستلّ من بطونها أفكار خطبه ليوم الجمعة في جامع الزبير. في فترة الحصار، وهي الفترة التي تخرج فيها أحمد من كلّيّة الهندسة الميكانيكية، حدثت ردّة هائلة في منطقتنا نحو الدين، ممّا جعل أحمد يتّجه نحو ذلك الطريق، فلازم الجامع، وانغمر في قراءة كُتُب أصول الدين، ورغم أنه حصل على وظيفة مهندس في المعمل، لكنه صار أقرب إلى شخصية رجل الدين منه إلى شخصية المهندس، وهذا ما جعل منه بديلاً؛ ليؤمّ الصلاة في الجمع التي يغيب فيها الشخص المكلّف من دائرة الأوقاف، ممّا انعكس على جوّ البيت أيضاً، وهو ما لا يلامس قبولاً في روحي أنا. بشير كان رجلاً منفتحاً، يؤدّي الصلاة في الجامع في أيام الجمعة فقط، دون أن يدع حياته وأسرته تنقاد من قِبل المحرّمات والمحلّلات مثل أحمد.

رشيد يسأل عنك، قالت لي أمّي ذلك الصباح، وهي تمضي إلى الداخل، ثوبها الأسود يخطّ على البلاط المرقّش بنقاط سود وصفر. وبقيتُ أنا ساكتاً، أحدّق في السماء خلف الشبابيك. ليست لدي أية رغبة بلقاء أحد، أو التكلّم مع أحد. أمّي سلمى التهمتها السنون، وغادرها الفرح، وتحوّل

وجهها إلى كتلة جامدة من اللحم، حتى حين تبتسم، أو تضحك، وهذا نادراً ما يحدث، لا يتحرّك في وجهها سوى شفتيها. بعد عرس عمّي ودخول خالتي سميعة إلى بيتنا، كنتُ ألمس التغيّر الكبير في حياة أمّي، أراحتها خالتي من الخبز والعجين وملء براميل الماء من السواقي البعيدة والكنس والطبخ، لكنْ؛ بمرور الأيام والسنين، ومجيء مزيد من الأولاد، غابت تلك البهجة عند أمّي. أصبحنا عائلتين في بيت واحد، أمّي وأولادها وخالتي وأولادها. مرّات كثيرة حدثت مشاحنات بينهما، بسبب الأولاد، أو بسبب أمور صغيرة، كشراء ملابس جديدة، أو تقسيم اللحم بين أعضاء الأسرة في الوجبات، أو حتى حين تحدث مشاحنات بين عمّي رشيد وأبي نتيجة العمل المشترك بينهما، فينعكس ذلك على العلاقة بين أمّي وخالتي داخل البيت. سنة بعد سنة، لاحظتُ أن خالتي سميعة صارت غريبة داخل الأسرة، أو هكذا كنتُ أحسّ بعض الأيام في العلاقة بين الأختين. حتى حين أسّس عمّي له بيتاً جديدة خلف بيتنا، بالضبط؛ أي في الأرض التي كانت ذات يوم حقل ذرة وجت وأشجار تفّاح ورمّان، ظلّت العلاقة باردة بينهما، ولا أعرف ما هو السبب.

ما إن غادرتْ أمّي نحو عمق البيت الداخلي حتى غزاني شعور غريب، أمّي لم يعد أمامها مشوار طويل في هذه الدنيا. أمّا أنا؛ فكنتُ أحسّ، في فوضى الأيام تلك، وأحداثها المتلاحقة، أنني تحوّلتُ إلى كائن غير مرئي، إلى شبح، يطوف بين البيوت، يسمع اللغط والحوارات بين الناس في ليالي الفاتحة التي أعقبت الدفن، أو في النهارات الغاصة بالطعام، على روح الميّت، وتوقّعات المستقبل للمنطقة بعد أن قويت شوكة التنظيم، وأصبح يهدّد حياتنا، دون أن تراه العيون. كان الجميع مشغولاً بأموره الخاصّة، بينما كنتُ أنا فائضاً عن الحاجة، لا مستقرّ لي سوى مضافة أهلي في بيتنا الجديد. أسمّيه جديداً؛ لأن ذلك البيت القديم الذي بناه سلمان، أبو أرملة أخي، نادية، وزوجتي لاحقاً، هُدم منذ زمان، رغم أنه ظلّ قائماً مثل عمود من ضوء، في رأسي. مثل ذلك اللوكس المشعّ الذي التهب قبل سنين في الفسحة بين بيتنا وبيت خالتي سميعة في عرس عمّي. أرى برغش ذلك العرس مثل غيمة على قبّة اللوكس، وأسمع دويّ الطبل تُرجعه غابات النخيل والحور وشوك الضفاف، وأستعيد هيئة لافي الحرامي، وهو يجسّد دور الحامل، وأشمّ رائحة اللحم الذي وُزّع - بشكل مفرط - على المَدعوّين. زال الحوش الواسع الذي شهد زواج عمّي، والغرف العديدة، والمضافة التي كان جدّي ينام فيها، قاضياً ساعات في مراقبة حقل الذرة عبر الشبابيك الضيّقة، كما لو كان يتنبأ بالسنة التي سيفارق بها القرية. بصره كان يثّجه

إلى الشمال دائماً؛ حيث المقبرة التي حاول عمّي رشيد تحويلها، عبر ثيله ورمّانه ويوكالبتوسه ونخيله، إلى جنّة، مثل مقابر أوربا. اختفت رائحة جثّتي ميّاسة من الهواء، وتلاشت قصص كثيرة، حدثت فيه. بيتنا اليوم يختلف - تماماً - عن السابق. خارطة البيت حديثة، وصار يتألّف من ثلاث غرف، ومجاز مفتوح لجلوس العائلة، ويحتلّ التلفزيون جداره الشرقي، وفي الوسط من البيت، يتسلّل الدرج نحو السطح؛ حيث الغرفة الوحيدة التي يحفظون فيها مؤونة البيت. فيما ينفتح شبّاك عريض في المجاز على حديقة داخلية مسوّرة بالبلوك، ويحتلّ تنّور قديم زاويتها البعيدة. صار البيت من النمط المغلق، وليس المفتوح، كما ألفت العوائل ذلك خلال المرحلة الصخرية.

عائلة بشير انكمشت على نفسها بعد الحادث، وعمّي ما يزال يقضي أوقات نقاهته في بيته الفخم، وأنا أجلس - عادة - في المضافة، أستعيد دقائق السنين التي مرّت. الحياة لم تعد رخية، مفاجآتها أصبحت لا تُعدّ، ولا تُحصى، وكأنها انقلبت رأساً على عقب بعد مجيء الأميركان إلينا دون استئذان. خفّفت زيارة مصطفى مع زوجته وابنه أحمد الوحشة عنّي، وصرفت عيناي من التحديق الثابت والفارغ بستائر الشبابيك الثقيلة، وسعف النخيل المحاذي للسياج، والزنابير الطائرة المتنقّلة من شجرة تفّاح إلى أخرى، وقطرات المطر الشتوي التي تتساقط رغم طلوع الشمس بعض الأحيان. خولة، زوجة أخي، سلّمت عليّ بسرعة، وضعت حقيبتها في غرفة أمّي، وذهبت - بعد رؤية أمّي وزوجة أخي الأصغر أحمد لمياء - إلى بيت نادية، وجلسنا نحن - مصطفى وابنه أحمد وأنا - على الأرائك المتوزّعة على أرض الصالة. احتسينا الشاي، ودخّنا السجائر، وانتبهتُ إلى أن البيت صار هادئاً، وأدركتُ أن أمّي ولمياء لحقتا بخولة لزيارة نادية. النساء جميعهنّ في العائلة يرتدينَ السواد. وهو أمر، لم يحدث حتّى حين مات أبي قبل سنوات.

أخبرني مصطفى أنهم شاهدوا جثّة رجل قرب الطريق في أثناء المجيء، من جهة النهر، وكان مصطفى يمضّ سيجارته، وينظر بعينيه الحادّتين إلى وجهي، وكأنه يقول انظر، الأحداث تتصاعد. لمستُ نبرة من الرعب في صوته. هو يبالغ في قراءة الأحداث منذ سنوات، يقرؤها من جانبها السلبي، يفتّش عنه حتّى لو لم يكن موجوداً. في حيّ التأميم، تابع مصطفى، لا يمرّ ليل دون سماع دَويّ المواجهات والانفجارات والقذائف، مَن يقاتل مَن؟ لا أحد يعرف. أخبرتُه من جانبي كيف أن الوحوش الصغار

استعرضوا قوّتهم عَلَناً على الشدّة، سيّارات كيا وسيّارات لاندكروس حديثة مليئة بشباب مسلّحين وملثمين، كانت أسلحتهم مُشهَرَة من النوافذ، وكانوا يرددون شعارات الجهاد ضدّ المحتلّين. قبلهم بنصف ساعة، مرّت دورية أميركية من ثلاث سيّارات همر، متجهة إلى المقرّ الرئيس قرب الجسر. خفتُ كثيراً على عمّي، أ لم يضعوا اسمه في قوائم الخَوَنَة؟ هم لا يتورّعون عن قتلنا واحداً بعد الآخر. في التأميم، الحي الذي يسكن فيه مصطفى، وضعوا قوائم بأسماء (الخَوَنَة من أهل المنطقة)، كما عبّروا، كتبوها على أوراق، وألصقوها على أعمدة الكهرباء، والشرطة في حالة استنفار. لا أستطيع نسيان بشير، يتراءى لي وجهه أينما حدّقتُ، قال مصطفى وعلامات الحزن في وجهه، وأفكّر بمصير مريم وعلي، وكيف يمكن لنادية أن تؤمّن لهما حياة طبيعية بعد رحيله. كانوا سعداء، بشير رجل، لا يمكن لك أن تجلس معه، ولا تحبّه، شهم، شجاع، وكريم، الحقيقة أن رحيله أحزنني أكثر من الجميع، أمر عائلته يُقلقني أنا أيضاً، همستُ لمصطفى.

منذ دخول هؤلاء الملاعين، انتكست حياتنا. منذ دخولهم، عمّت الفوضى، أمّا أحاديثهم عن الديمقراطية؛ فما هي سوى هراء. هل سمعتَ بديمقراطية تأتي مرزومة على دبابة؟ انظر المهزلة، حلّوا الجيش السابق، وبدؤوا بتشكيل جيش جديد. الآن، همّهم متجه نحو تشكيل صحوات تقاتل التنظيم، وكأننا كنّا نياماً، وجاء الأميركان لإيقاظنا. هل سمعتَ بحياتك تخريفاً مثل هذا؟ أعرف رأي أخي مصطفى بالأميركان، سمعتُهُ أكثر من مرّة، كونه ظلّ حتى اللحظات الأخيرة مناصراً للنظام السابق، يأتي خلال النقاشات المستمرّة طوال السنوات الماضية بالحجج، والأسباب، والذرائع، التي تسوّغ له رفض ما جرى، ممّا جلب له عداوة كثير من الأقرباء، ومنهم عمّي، الذي يذكّره - عادة - بماضيه، حين كان يدبّج القصائد في مدح الرئيس. من عائدات تلك القصائد، استطاع شراء شقّة صغيرة في المدينة، قطن فيها مع زوجته خولة قبل أن ينهار النظام. وحين سقط النظام، ودخلت الجيوش الأجنبية إلى البلاد تحسّنت رواتب المدرّسين، واستطاع بناء بيت جديد في حي التأميم بعد أن باع شقّته السابقة، ومنذ سنة، لا غير، اشترى سيّارة خاصّة من نوع كورونا يابانية، تقف - الآن - أمام ساحة البيت، وأصبح يدخّن سجائر أجنبية فاخرة، وترك كتابة الشعر. هو - اليوم - يدرّس اللغة العربية في ثانوية الصناعة، هو وزوجته، أمّا ابنه أحمد؛ فيدرس في متوسطة الأحرار، ويطمح أن يكون طبيباً. خمس سنوات من فترة الحصار، كتب مصطفى عشرات القصائد

العمودية في مدح الرئيس، كان ينشرها في جرائد العاصمة، ويتقاضى على كل قصيدة مليون دينار، قصائده تداعب مخيلة الرئيس في القوة والجبروت، وتجعل منه رمزاً، لا للشعب فقط، بل لأمة بكاملها. وحين أناكفه حول تسخير قلمه لطاغية، يردّ عليّ بأن هذه القصائد هي التي جعلته يمتلك سقفاً لأسرته، وجعلته يستطيع إشباع نهمه للسجائر، وملء بطنه بالطعام في سنوات الحصار. كان مصطفى يقول ذلك بألم وإيمان كاملين، فلا أستطيع الردّ عليه، فأصمت. ومن أجل كسر الحزن الذي هيمن علينا في الصالة، بسبب موت أخي بشير ومصير عائلته، حاولتُ تغيير جوّ الكآبة، فقلتُ له، بصورة مفاجئة: منذ فاتحة بشير، لم أره. هل ترك ماهر الشعر هو الآخر؟ زرتُه البارحة في بيتهم، كئيب كعادته. ما إن يخرج من الدائرة الهندسية حتى يجلس في البيت، ولا يخرج أبداً. يقضي نهاره محدّقاً في شاشة التلفزيون متابعاً الأخبار. مرأى السيارات المفخّخة في الشوارع والجثث المتفحّمة والبنايات المهدّمة والشعارات المنادية بالموت، جعله هذا كله ينتكس. لم يعد يؤمن بشيء، وهو اليوم أقرب إلى اليأس من أيّما يوم عرفتُه فيه. هو نادم؛ لأنه ترك ليبيا، وعاد إلى العراق. الشيء الجيد أنه بدأ يؤلّف كتاباً، سمّاه المختارات، مقاطع من الشعر التراثي. عاد إلى حسّان بن ثابت، والشنفرى، وعنترة العبسي، وتأبّط شراً، جرير والفرزدق، وذع هريرة إن الركب مرتحل، ويقولون ليلى في العراق مريضة، يجد في ذلك الماضي واحة من الأمان. رائحة البعر في الصحراء، وعواء الذئاب في الليل، والضعون العابرة للصحاري، يعدّها أجمل من رائحة البارود وأصوات الانفجارات ومرأى الدبّابات الأميركية العابرة في شوارع المدينة. أظنّه يحارب طواحين الهواء مثلنا جميعاً. قال لو أنه عرف ما ستؤول إليه الأمور؛ لأخرج عائلته من البلد بدلاً من العودة إليه. هل - حقاً - اتّجه إلى الصلاة؟ يذهب إلى الجامع بين فترة وأخرى خاصّة في صلاة الجمعة. فعلاً، لو بقي في ليبيا، كان أفضل له. مثلي أنا، هل هذه حياة مقارنة، بما كنتُ أعيش في دمشق؟ لكنّ؛ من البلاهة التفكير باستعادة الماضي، الماضي ذهب، ولن يرجع. ثمّ قال مصطفى - فجأة - وهو يُهيّئ جسده السمين للنهوض: أريد وضع رصيد في تلفوني من المحلات، هل تأتي معي؟ أجل، قلتُ له، وخرجنا من البيت باتجاه السّدّة، وفي السماء، نتف من الغيوم.

أتخيّل نادية واقفة في المطبخ، وهي تراقب الزرّ في القدر الموضوع على الطبّاخ الغازي، وأتخيّل ساعديها الأبيضين يتنقّلان من قدر اللحم بالمرقة إلى مصفّي الخضرة الممتلئ بالفجل والرشاد والكرفس والكرّاث،

رغم حزنها، لكنها تظلّ - دائماً - مرهونة لتأدية الواجب تجاه الأقرباء. أتخيّل مريم تلعب تحت شجرة التين مع أطفال أخي أحمد، وأتخيّل علي وأحمد بن مصطفى يجلسان قرب الباب الأمامي، يتأمّلان في التلفون الجديد، باحثين عن لعبة من اللعب، أو فيلم إباحي، أرسله لهما واحد من أصدقائهما. الأطفال يلعبون في الفسحة الأمامية، وهم يترقّبون زخّات المطر، ويشاهدون قوس القزح الذي يرتسم في الغرب، فوق غابة النخيل البعيدة المحاذية للنهر، أسمع غناءهم الخافت، وهم يردّدون: مطر، مطر، يا عاسي، بلّل شعر راسي، الأغنية التي كنّا نغنّيها منذ طفولتنا قبل نصف قرن، كلّما نزل المطر، أو البَرَد. الشتاء في أوجه، ونسمة برد ناعمة، تسري في الهواء، تأتي محمّلة بأريج الحنطة والشعير وحقول الجت الواقعة خلف السّدّة على امتداد ضفاف النهر. هذه الرائحة أعشقها منذ الطفولة، حين يختلط ماء المطر بالعشب والتراب والتبن وجذور الثيل. أخي مصطفى بان عليه الكبر، وجلّل الشيبُ رأسَه، وتثاقلتْ خطواته، ولم يعد يستطيع إخفاء البؤس الذي وهبته له السنون.

حول الطريق تناثرت عشرات البيوت الحديثة، البقر اختفى من البيوت، وأعمدة الكهرباء تتلوّى محاذاة الأسيجة والحدائق والطرقات الرفيعة المخترقة لجسد القرية. زالت بساتين النخيل الكثّة، مثلما زال آخر بيوت الطين منذ سنوات، وتأسّست دكاكين كثيرة على الشارع الرئيس الذي يحتلّ قمّة السّدّة الترابية. كلّما شاهدتُ جامع الزبير، جنب السّدّة، تذكّرتُ أبي، هو مَن ابتكر فكرة تأسيس جامع للقرية، فما إن سلّم قيادة البيت لعمّي، في بيتنا السابق، حتى جلس أبي في البيت، واتّجه إلى الدين. جال على وجوه القرية محدّثاً بالفكرة، طلب منهم التبرّع بمبالغ حسب القدرة، ثمّ اتصل بدائرة الأوقاف، فشجّعته، ومدّته بقليل من المال. بدأ بتأسيس الجامع لبنة لبنة، تحوّل إلى شخّاذ في خدمة الدين، كما دأب على القول. أتذكّر ذلك جيداً، ولم تمرّ سوى سنتين حتى نهضت قاعة كبيرة من الحجر، تعلوها منذنة صغيرة من الخشب، ثمّ جلب أبي مايكروفوناً، وضع سمّاعاته على المنذنة، ورحنا نسمع الأذان خمس مرّات في اليوم، وخطبة لصلاة الجمعة، كُلّف بإلقائها واحد من طَلَبَة العلم الدارسين في معهد الشريعة في المدينة؛ ليؤول مصيرها تالياً، إلى أحمد منذ عشر سنوات.

ثلاث قرى تتقاسم مخيّلتي في هذه اللحظة، احتفظ - بوضوح - بصورة كل واحدة منها، صورتها وحكاياتها وشخوصها وبيوتها. قرية الطين، قرية الحجر، قرية التكنولوجيا، حين دخل الموبايل والفضائيات

والكومبيوترات، بشكل، لم يسبق له مثيل في ذاكرتنا. وأنا أكتب الآن، وأنبش في السنين، أعجب من حجم التغيّرات التي حصلت لنا، وهي تغيرات هائلة، رافقت سير القرية خلال عقود، لا في جانب الطرقات والبناء والكهرباء والمياه المعقّمة فقط، بل في ذلك التطوّر المذهل الذي سار به وعي الناس وطرق تفكيرهم وأخلاقهم وقِيَمهم. المفصل الحيوي الذي فقده البشر في نسيج أرواحهم ظلّ ماثلاً للعيان، وكأننا استبدلنا بشعب آخر. مرّات أفكّر أن مَن تغير هو نحن، وليس الأجيال الجديدة، فهؤلاء مشوا بثبات مع إيقاع التحوّلات، ليس إلا، التحوّلات التي نريد أن ننسبها ونقيسها على ما عشناه نحن من قِيَم، وتقاليد، ومُثل، ألقى بها الزمن إلى سلّة المهملات. وسط هذا الهدوء المستولي على بيتي الصغير، على النائمين في الأسفل، وقد أسلموا لي قياد حياتهم وموتهم ومصيرهم، أحسّ بالفخر؛ لأنني عشت ذلك كله، وفي ظرف قصير من الزمن، مع أن ذلك كله قادنا إلى الهجرة والهروب، وترك جثمان عقي رشيد في العراء؛ لتأكله الوحوش، أو يحرقه القَتَلَة بالبانزين والنار. إذن؛ لترقصي، أيتها الروح على مذبح الماضي، وتلاشي، أيتها الذكريات، ودعيني، أنام بسلام مع زوجتي نادية. ابتعدي، يا وجوه الزمن الغابر؛ لأنني رأيتُ منك الكثير، أمطري، ياغيوم، على شعري، وتعال، يا قوس قزح؛ لكي أستمتع بألوانك، وهي تمتدّ من بيت آل طه وحتى زور الحلفاء عند جسر طارق. انهضي، يا جحافل الجراد، ويا ذئاب الصحراء، ويا جرذان الحقول، انهضي، يا عقارب السّدة المختبئة في الشقوق، ويا بنات آوى السارحات في السواقي، وحاربي أولئك الوحوش الملتحين الذين ألقونا خارج بيوتنا. أيتها الريح المدومة، أيتها السوارات المائية في النهر، أيتها الزنابير الصفراء والسوداء، أيتها العناكب البانية أعشاشها تحت أوراق التين، يا غراب، يا فاختة، يا حنافيش، يا طناطل، يا شياطين، يا أشباح المقابر والطرق المهجورة والمستنقعات الغاصّة بالبردي، انهضوا، وقاتلوا الوحوش؛ كي نعود إلى تلك القرية الخائفة، الموؤودة، النائمة بين ألسنة الرمال ورذاذ النهر.

في زمن الحصار الذي أكل عقد التسعينيات، نهض عدد قليل من المحلات قرب الجامع، لكن؛ ما إن دخلت البلاد في الزمن الأميركي الجديد، زمن التكنولوجيا، حتى توسعت المحلات؛ لتصبح بالعشرات، فأصبحت الفسحة الواسعة أمام الجامع، فوق السّدة، تغصّ بالعشرات منها، ولأغراض مختلفة، حتى وصفها مصطفى ذات يوم بأسلوبه الشاعري، إنها مدينة صغيرة، ويقصد تجمّع المحلات ذاك. محلّ حيدر للموبايلات، محلّ سامي للصرافة، محلّ الاعتدال لتبديل دهن السيّارات، محلّ الزبير لبيع الملابس،

محلّ عبيد للبذور الزراعية وآلات تأجير المكائن، محلّ مارلبورو لبيع الدخان، محلّ الشريعة لبيع المخضّر، محلّ النزاهة لبيع الدجاج، قضابة حاتم، وهكذا، تلك المحلات كلها تنتصب في جانبي الطريق الواسع قرب جامع الزبير.

شباب من مختلف الأعمار رأيناهم يجلسون، أو يشترون في تلك المحلات، يلبسون الدشاديش، أو البناطيل الحديثة، والسيارات تجري مثل نهر في الطريق نحو المدينة، أو آخذة الطريق المعاكس نحو القرى النهرية الموغلة في البساتين والحقول والبيوت الحديثة. سيارات، ودزاجات نارية تصطفّ أمام تلك المحلات، ونسمع ضحكات تفرقع بين الحين والآخر. هناك في الهواء البارد معالم ابتهاج بالحياة، ومَن يقف في مرتفع السّدة يمكنه رؤية الجانب الجنوبي من القرية، بوضوح، تلك الحقول، تلك البيوت التي انتقلت حديثاً من الشمال إلى المنطقة المحصورة بين السّدّة والنهر، المنطقة التي شهدت سنوات من الفيضانات، غمرت مياهها الحنطة والشعير والنخيل، ويمكنه رؤية جسر طارق المنزوي قرب بستان نوري المكتظّ بالمشمش والتوت والليمون والنخيل والبرتقال. كم سنة مرّت على تلك الرحلة مع عمّي حين حملنا راديو الفيلبس، وتجوّلنا بين تخوم القرية؟ كم سنة مرّت عليّ، وأنا طفل يمشي في السّدة الترابية المحفوفة بالعاقول والشوك، بدشداشة ناعمة وحذاء بلاستيكي؟ أين بيت الملا علي الشاعر؟ الذي علّم أبي وعمّي حروف الهجاء، وقرأ لهم سور القرآن، وهو يمسك خيزرانته، ويردّد أمام التلاميذ آيات من جزء عمّ؟ أين مقبولة؟ البنت الحلوة، التي كانت ترتدي الثوب المشجّر، وتلفّ وجهها بملفع، يثبته على صفحة الخدّين كلاّب من الذهب؟ حلّ محلّ بيتهم معمل صغير لصناعة البلوك، أمّا عائلة الملا؛ فقد تركت القرية بعد فضيحة ابنتهم مقبولة، وسكنوا في المدينة بمنطقة نائية عن المركز، اسمها الملعب.

ذهب مصطفى إلى محلّ حيدر، لوضع رصيد في التلفون، ووقفتُ أنا على حافة السّدة أتأمّل ببيت الملا، أو خيال بيت الملا المرتسم في رأسي. رغم الفضيحة، أوصى الملا علي أن يُدفن في مقبرة القرية. ودُفنت حكاية مقبولة تحت طبقة صلدة من السنين العابثة. عبأ مصطفى رصيداً بعشرة دولارات من محلّ حيدر، واقترح النزول نحو الحقول القريبة من النهر، وقال إن وقت الغداء بعيد، دعنا نُمتّع أبصارنا بالنبات، الطبيعة تبقى بريئة وطاهرة، وبكلمات شعرية، وصفها بالأمّ الحنون التي تحتضن الجميع، السيئ والجيد، الرديء والأصيل، المريض والناقه، فوافقتُ. نزلنا إلى

طريق ضيق ترابي محاط بالعاقول، يتبع الساقية التي تجلب الماء من النهر عبر محرّك، يشتغل على الكهرباء. بعد صمت قصير بيننا، قال لي بصوت هامس: نحن أربعة أخوة، مات واحد منّا بطلقة غادرة من ذلك الأميركي الأسود القذر، المحتلّ، القادم من خلف البحار والمحيطات، وقُتِلَ أخانا بدم بارد، بحجّة امتلاك البلد أسلحة محزمة دولياً، الكيمياوي والنووي والبايلوجي، ثمّ صمت لحظة، فيما كنّا نسير بين الحشيش الطازج المشبع بمياه المطر، وبسخرية واضحة، واصل كلامه، ونحن نتابع توغّلنا بين حقول الحنطة والشعير، تطير فوق رؤوسنا القبّرات ذات الأجنحة الرمادية، وتتحرّك الغيوم الخفيفة ذات اللون الأسود في السماء كاشفة عن بقع زرقاء عميقة الزرقة: مات أخونا بشير، وبقينا ثلاثة، أنا وأحمد وأنت، أنا لديّ أسرة، وأحمد كذلك، وبقيتَ أنت الوحيد الحُرّ، ليس لديك زوجة وأطفال. أعتقد من الواجب عليك أن تكون راعياً لأسرة بشير. ما ينبغي عليّ القيام به؟ نادية خرجتْ منذ فترة قصيرة من شهور العدّة، ولا يمكن لي الرجوع إلى البيت دون وجود بشير، الألسنة لن ترحم سلوكي ذاك. أنا أحبّ علي ومريم، وأرتاح جداً لنادية، لقد عاملتني مثل أخ أيام ما سكنتُ عندهم، ولم أسمع منها أية كلمة تدلّ على الضيق من وجودي في البيت. كثيراً ما كانت تجهّز لي الحمّام، وتعدّ ملابسي النظيفة، تعلّقها هناك، وتغسل ملابسي المتّسخة دون حرج. تجلس معي في غياب بشير داخل الصالون، وتحدّثني عمّا يستجد في القرية، ونميمة الأقرباء وأسرارهم. لكنّ؛ أجد صعوبة وحرجاً من الرجوع إلى السَّكَن في بيتها.

اقترحتُ علي خولة اقتراحاً قد تجده غريباً، قال مصطفى. ما هو؟ تتزوّجها. لا، لا يمكن، لا أستطيع، إنها زوجة أخي بشير، كيف تستقيم الحياة معها؟ أنت شخص واعٍ، ومطّلع، وعقلاني، بشير مات، هذه حقيقة ينبغي أن لا تنساها، فكّر بأسرته، ستقدّم له خدمة كبيرة في قبره، إذا ما حقّقتَ ذلك. كلا، لا أستطيع، نفسياً، لا أتقبّل ذلك، أرجوك، أغلق الموضوع. صمت مصطفى، مسح الجهات بعينيه، تنحنح بصوت خافت، وقطف زهرة كعوب صغيرة ذات زهرة بنفسجية نبتت جنب الطريق بين نباتات الحنطة اليانعة. مدّ يده إلى بنطاله، وأخرج علبة السجائر، وأشعل واحدة، وقدّم لي أخرى. صَمَتُ مصطفى مخيف، مع أنه يبدو بسيطاً في أحاديثه، لكنه مبطّن، وملغز الكلمات، على شاكلة معظم الشعراء في زماننا. كائن يمتلك - بعض الأحيان - قدرة هائلة على المراوغة، وتمرير أفكاره. له صلة عميقة بالمياه الجوفية المتحرّكة بيننا كأسرة وأقرباء، بحكم زوجته، فالنساء - كما عرفتُ خلال حياتي - لديهنّ الموهبة والقدرة على ملامسة عُمق الأحداث

والتصرّفات التي لا نراها نحن الرجال سوى من الخارج. عكسنا نحن الذُّكور، فهنّ يضعنَ الشخص تحت عدسة مكبّرة لفحص أدقّ التفاصيل. خولة تُخبره بما يدور في جلسات النساء. هل يعود السبب كونها من مدينة بعيدة، ولا تمتّ بصلة للمنطقة؟ تزوّجها أخي عندما كان مدرّساً للغة العربية في تلك المدينة، الناصرية، وأوشكت علاقته مع أبي أن تنقطع، بسبب هذا الزواج. ترى هل ناقش موضوع زواجي من نادية مع زوجته خولة؟ وهل تعرّضت خولة لهذا الموضوع مع نادية خلال الزيارات السابقة، أو مع أمّي وبقية العائلة؟ هل استحصلوا موافقة نادية على الزواج، وعلمتْ أنها ردّدت أكثر من مرّة أنها لن تنام بعد بشير مع أيّ رجل؟ ذلك يعني أنني كنتُ تحت مجهر البحث من قبلهنّ دون أن أدري. حتى أمّي كانت تلمّح حول الموضوع، وأتذكّر حوارات سابقة معها، وجدت اللحظة أنها تصبّ في المجرى ذاته؛ أي تهيئتي لقبول الفكرة، الفكرة التي نوقشت - كما أخمّن - مع نادية وعمّي، وربّما أخوتي، في أثناء ما كنتُ أنا منزوياً في مضافة البيت، أجترّ أحزاني، ووحدتي، وسنوات عمري الذهبية مع ريم، بعيداً عنهم.

نقترب من ضفّة النهر، يدوّي انفجار رهيب، يتلوه ثان وثالث، نخمّن أنه ينطلق من ساحة الجامع، ونشاهد فوق النخيل غيمة من الدخان ترتفع، وتتصاعد فوق المنذنة والمحلات. تتصاعد ببطء في الأفق لحظة الانفجار؛ لتختلط - بعد قليل - بالغيوم السود المحلّقة فوق البيوت والنخيل وطيور الزاغ المرفرفة بأجنحتها السود. إنها صواريخ المجاهدين، قال لي مصطفى، ونحن نقف على كتف الساقية، هي تتّجه - حتماً - نحو القاعدة الأميركية، على أطراف المدينة.

رأينا حركة غير طبيعية على السدّة، فرّت السيّارات مسرعة من المكان، وامتطى أصحاب الدرّاجات النارية درّاجاتهم، وتفرّقوا في الاتّجاهات كافّة، ونزل قسم منهم إلى أقرب طريق، يتوغّل في جسد القرية، وقلتُ لمصطفى، بصوت راجف، سيأتي الردّ الأميركي سريعاً، رصدهم دقيق، يلتقطونه من خلال طائرات بلا طيار، ومناطيد محلّقة في السماء، عدا عن الأقمار الصناعية المدوّمة في مدار الأرض دون توقّف. وهذا ما حصل. لم تمضِ دقائق على إطلاق الصواريخ حتى سمعنا دويّ الانفجارات قريباً من الجامع، وعلى أطراف الحقول، ردّوا من القاعدة الواقعة على كتف الجسر على مصدر النيران، ممّا دعانا إلى الجلوس في عمق الساقية، بين حشائش الحلفاء والكعوب، انتظاراً لما تُسفر عنه المواجهة. من بستان نوري،

شاهدتُ الطيور تفزّ من بين الأشجار، وتغور في السماء، الزاغ والحمام والعصافير والبوم والقبّر، كما طار الدرّاج اللابد بين سيقان الحنطة، واتّجه نحو النهر، وهو يروم - كما قدّرتُ - العبور إلى الضفّة الثانية طامحاً للوصول إلى برّ الأمان. الطيور لا تمتلك ذاكرة مثل البشر، وإلا لتحسّرت على حياتها الماضية مثلنا، فهي لم تتعرّض طوال تاريخها الطيري إلى مفاجآت هوائية قاسية مثل هذه، وأظنّ أنها لو امتلكت القدرة على تدوين الأحداث مثلنا، لكتبت ملايين الصفحات عمّا جرى لها ولفراخها عبر العقد الأخير. أن لا تمتلك الطيور ذاكرة يعدّ مزية لها، علينا نحن البشر، الذين تُعذّبنا الذاكرة مثل أشعّة حارقة. فانتازيا، ما حياتنا سوى فانتازيا، راح مصطفى يكرّر جملته، فيما أقفر الشارع من السيّارات والمارّة، وفاحت رائحة البارود في الهواء الرطب، وأغلق أصحاب المحلات أبوابهم، ورأيناهم يغذّون السير نحو بيوتهم. قد لا يقتصر الردّ الأميركي على الصواريخ، وهذا ما ندركه من خلال الخبرة المتوافرة طوال سنوات الاحتلال، ربّما يعقب ذلك وصول دوريات من سيّارات الهمر وحتّى الدبّابات، ممّا يقود - ربّما - إلى مواجهات بالأسلحة كافّة. عادة ما يزرع المجاهدون - الوحوش الصغار حسب تعبير عمّي - عبوات ناسفة على جنبي الطريق قبل القيام بالعمليات؛ كي يفجّروها لاحقاً حين تصل الإمدادات الأميريكة، وهذا يجلب رعباً جماعياً، يستولي على البيوت، خاصّة تلك القريبة من موقع الحدث.

دعنا نعد إلى البيت، قال لي مصطفى، بصوت خائف. أجل، أخشى أن تكون قذيفة سقطت في محيط بيوتنا. هذا ما جنته براقش، قال بصوت صلصالي قاس، وفهمتُ ما يقصده، فهو يعرف جيداً ما كان عليه تفاؤلي بزوال ذلك النظام والحياة الرغيدة التي ستجلبها لنا المرحلة الجديدة، فكلمة الديمقراطية كانت تخلب لبّي وعقلي وكنتُ ذات يوم أعدّها هي المفتاح السّحري لنقلنا من جحيم الحصار والحروب والموت إلى جنّة التطوّر والسلام والوفرة. كم كنتُ واهماً حينذاك! كم كنتُ ساذجاً! وكم كان مصطفى أكثر حصافة مني رغم أنه ظلّ عشر سنوات يمدح الرئيس، من أجل الحصول على بيت، يؤويه. رئيسه الذي دبّج له القصائد، وكان من مناصريه رغم ما ارتكب من مجازر وحروب ومخاز.

يترسّب الغبار على حافات الشبابيك، تتقافز القوارض المختبئة تحت جذور الحلفاء من الأصوات المصمّة، تستولي غيمة الخوف على الساكنين، فيحتمون خلف الأبواب، تتطاير في السماء الغائمة قصاصات ورق وريش،

ويعمّ الجميع هاجس الانتظار لحَدَث جَلَل، وتنقصف في مكان ما سعفة نخل، ثمّ تتهاوى نحو أرض مالحة. لم تشهد هذه الأرض سلاماً طوال عشرات السنين. هل يفكّر مصطفى بما أفكّر أنا؟ أم يبدأ تاريخ العنف لديه منذ دخول الأميركان إلى البلد فقط؟ لا أرغب في استجلاء أفكاره وهواجسه، أنا أعرفها جيداً. إضافة إلى أن الكلام، والأفكار، والتحليلات، لم تعد تجدي شيئاً.

عدنا من الطريق الترابي ذاته. اقتصر الردّ الأميركي على الصواريخ تلك، لم تصل دورية إلى مكان إطلاق الصواريخ العدوّة، لكن السير في الشارع توقّف تماماً، وجاء مَن أخبرنا - حين صعدنا السدّة قرب المحلات - أن الأميركان أغلقوا الجسر المؤدّي إلى ضفاف النهر، وانطلق التذمّر عالياً من مصطفى، فكيف سيعود إلى بيته؟! لديه غداً دوام في المدرسة، هو وخولة، ولا بد من الرجوع إلى المدينة. أخبرتُه أن عليه العبور من جسر طارق، إذا أُقفل الجسر، والمضي في الطرق المؤدّية إلى المدينة عبر الضفاف المقابلة، لكنه استبعد الخيار هذا، كونه محفوفاً بالمخاطر، عبوات ومسلّحون ودوريات أميركية ومواجهات، عدا عن كونه يستغرق زمناً أطول، إذا ما سعى نحو طريق الجسر، فعليه اختراق المدينة كلها حتى الوصول إلى حي التأميم الذي يقطنه، ويقع على أطراف المدينة الغربية القريبة من معمل الزجاج. وجدنا البيوت سالمة، سقط واحد من الصواريخ على مجمع كتّ للنخيل، فلم يحدث ضرراً، فيما سقط آخر في الفسحة القريبة من معمل البلوك، والثالث لم ينفجر. جلبوا لنا الطعام في بيت أمّي، لي ولمصطفى فقط، بينما تناول الجميع الغداء في بيت بشير. مرّت بضع ساعات، وبدأت السيّارات تمرّ ثانية في الطريق، وعرفنا أن الجسر قد فُتح، ورحل مصطفى وعائلته قبل الغروب بقليل، وبقيتُ أنا أشاهد التلفزيون وحدي. نامتْ أمّي باكراً. أخبرتني لمياء زوجة أخي أحمد أنها فرشت لي فراشاً في المضافة، وأشعلت الصوبة لتدفئة المكان، ويمكنني النوم هناك في أي وقت أشاء. ذهبتُ إلى غرفتها مع الأولاد. وقرّرتُ أنا أن أغادر جلستي، وأمضي إلى المضافة، علّني أجد رغبة في النوم.

رفع أخي أحمد الأذان فجراً من الجامع، حينها - فقط - أغمضتُ جفنيّ، ونمتُ. انصرمتْ ليال عديدة، وأنا أتأمّل بفكرة الزواج من نادية، معظم تلك الليالي غادرني فيها النوم بعد، أن وجدني مشغول الفكر بالموضوع، كمَن يُقدِم على التوغّل في أرض موحشة، لا يعرفها، وهو يجهل ما سيُلاقيه هناك. أقلّب الموضوع من وجوهه كلها، وأسترجع السنوات السابقة التي

عشتُ خلالها في بيت أخي بشير قبل موته. في ما جاء من أيام لاحقة، كما لو كنّا ننتظر معجزة ستحصل، أو حَدَثاً جَلَلاً سيقع، لاحظتُ أن أشجار التفّاح في الحديقة بدأت تظهر زهورها البيض المشربة بالحمرة، وتباعدت عواصف الشتاء الرعدية حتى اختفت نهائياً، وأصبح النسيم أكثر دفئاً، وبدأت عذوق النخيل تُخرج ثمارها الزرقاء، وبدأ علي يهلّز النخيل في حديقتهم، بمنجل، استعاره من بيت عمّي، وصار الناس يتخفّفون من ملابس الشتاء الثقيلة، والجلسات المفتوحة في الحدائق والفسحات تصبح أكثر متعة، وخرج عمّي رشيد من أزمته. شرع - كما في أزمنته الذهبية - يتنقّل بين البيوت، محرّضاً على قتال التنظيم، محشداً الشباب بالتنسيق مع الأميركان والسلطات المحلّيّة في المدينة، ورغم ذلك كله ظلّ موضوع نادية يشغل عقلي صباحاً ومساء، وكلّما اقتربتُ من حسم قراري يرتسم في داخلي وجه بشير الأسمر، وضحكته، وصوته، فأدفع القرار بعيداً عنّي، كمَن ينتظر إشارة تسقط من الفضاء؛ لتقودني إلى الطريق الصواب الذي لن أندم - بعدها - إذا ما مشيتُه. ضحكتُ على روحي حين تصوّرتُ أن زواجي من نادية هو خيانة لريم وحبّها. لقد صارت ملايين السنين الضوئية تفصلني عن رائحة ريم وشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين وسريرها الواسع الذي تتقاسمه - بالتأكيد - مع رجل غيري.

أنا - اليوم - أمام امرأة، اسمها نادية فقط. بسبب ذلك، لذتُ مثل الخلد إلى نفسي وجدران عزلتي، بل وكنتُ أتحاشى النظر في وجه نادية التي خرجتْ من عدّتها، واستعادت شيئا من التوازن النفسي في بيتها، وفي حركتها بين الأقرباء، بدأتْ تخبز على التنّور، وتزور أمّي ولمياء بعد انتهاء الفطور الصباحي، وتكنس ممرّات البيت الخارجية، وتقصّ الثيل في الحديقة، وخلال ذلك لا أغفل التلميحات والحوارات الملغزة التي تدفعني كلها في المشي نحو طريق الزواج. لكنني أعود إلى عزلتي، وأتخيّل ليلة الدخلة، وكيف أنفرد مع نادية في غرفة واحدة؟! وكيف أنام في الفراش ذاته الذي نامت فيه مع بشير؟! وهل أجرؤ على التواصل الجسدي معها؟! وما هو الكلام الخاص الذي يفترض أن أبوح به لها، في تلك اللحظات الحميمية والفريدة، الكلام الذي يوجّهه الذَّكَر للأنثى في لحظة الوصال؟! وما إن أنتهي إلى هذه الأفكار حتى أحدّق في صورة أبي على الجدار، وأمسح ببصري فراغ المضافة المحيط بي، كما لو أنني أروم الغياب عن البيت، والقرية، للوصول إلى جزيرة بعيدة، لا يثقل عليّ تاريخها القديم وذكرياتها.

المواجهات تتصاعد بين التنظيم والجيش الأميركي. القصف المتبادل يحدث في أماكن وأزمان غير متوقّعة. الحديث عن تشكيل جديد، يُسمّى الصحوات يتردّد في كل مكان. لم يمضِ يوم في نهاية ذلك الشتاء إلا ونسمع عن اغتيال، أو تفجير، أو هجوم. ورغم تلك الأيام المكتظّة بالهواجس والأفكار والتردّد، إلا أنني بقيتُ متابعاً لأخبار عمّي، وتحرّكاته وغيابه المريب في بعض الليالي حتى إنه لا يعود إلى البيت، وحدستُ أن عمّي حسم أمره، وقرّر تكريس نفسه - تماماً - لهذه المهمّة، مهمّة تحشيد القرية والقرى المجاورة لطرد التنظيم من المنطقة كلها. تردّد في المجالس الخاصّة والحوارات غير المعلنة، والمسارّات بين الأصدقاء والموثوقين، سواء في جلسات الليل، أو عند محلات السدّة، أن عمّي وآخرين استطاعوا الوصول إلى أسماء عدد كبير ممّن يُشكّ بولائهم لذلك التنظيم، أو ممّن أصدروا قوائم الخيانة، كما سمّوها، وعلّقوها، في الجوامع وبعض الأماكن العامّة في القرى والمُدُن.

لا أستطيع، قلتُ لعمّي ذات عصر، ونحن نجلس قبالة واجهة البيت، على كراسٍ من البلاستيك، وقد تحرّر عمّي من ملابسه التقليدية، وهي العقال والغترة، وارتدى دشداشته البيضاء حاسر الرأس، وهو يعرض عليّ الموضوع، بشكل جادّ، وعيناه مثبّتتان في وجهي، دون أيّ تعبير بالمجاملة، أو الرقّة. بل تستطيع، ليس بالأمر الجديد في تقاليدنا وحياتنا، ردّ عليّ، بشكل قاطع، ولاحظتُ تساقط الكثير من شعره الذي كان ذات يوم كثّاً، ويميل إلى الشقرة، وقد غزا الشيب رأسه كثيراً، لكنه ظل يوحي بالشباب أكثر ممّا يوحي بالشيخوخة. وأعاد على سمعي الحجج ذاتها التي سمعتُها من مصطفى وأمّي، فأولاد بشير ما يزالون صغاراً، ويحتاجون إلى رعاية، ونادية ما تزال شابّة، قال لي بصوت صارم وصلد، كما لو أنه لا ينتظر الرفض مني على الإطلاق. سيكون العرس فضيحة، ربّما هي المرّة الأولى التي تحدث في منطقتنا. لا أتخيّل نفسي أدخل على نادية، أكلتُ من خبزها، وغسلتْ لي ملابسي، وفرشتْ لي فراشي حتى صارت مألوفة لي؛ لدرجة أنني لا أفكّر بها زوجة لي. أنهى عمّي شايَه، مسح شاربيه الشائبين، ووضع الاستكان المذهّب على طاولة صغيرة بيننا، ثمّ قال لي بعد دقيقة من الصمت: نحن مقبلون على معارك مع هؤلاء الوحوش، ولا أحد يعرف ماذا ستكون النتائج، قد أُقتل أنا، لكنني لن أكون راضياً عنك، إن لم تتزوّج. ثمّ مَن قال إننا سنقيم عرساً؟ لقد ولّت أيام الأعراس، ونحن اليوم نعيش في لجّة الكارثة، في الزمن الذي لن نخرج منه سالمين.

# الفصل الثامن

جدّتي ميّاسة لم تزر المدينة سوى مرّة واحدة، رافقتني مع جدّي إلى المستشفى حين احترقت رجلاي في تلك النار الخامدة أمام بيت عفرا. كلّما شفّت رائحة البنزين تتقيأ روحها. أبي في مدينة بعيدة يشارك بإشادة أحد الجسور، وعمّي يشتغل في بغداد. ليلة صيف حارّة، والنجوم تطلّ علينا من رقعة الحوش العليا؛ حيث بانت مجرّة التبانة كأنها طريق ملوّث بالقشّ. خالتي سميعة تجلس على الأرض، وأمامها لفّة الخوص، وهي تحوك مسجداً للصلاة، من أجل الضيوف. تضع الخوص الملوّن بالأصباغ وسط الخوص الطبيعي؛ لتصنع سجّادة ذات زخارف جميلة، ما إن تنتهي منها حتّى تخيط عروة في المسجد؛ لتعلّقه في المضافة. أمّي تعدّ الحليب مع الخمرة؛ لكي يصبح لبناً رائباً، وفي الصباح، نفطر به كلنا، مع الخبز الحارّ الخارج توّاً من التنّور. جدّتي ميّاسة تجلس أمام خالتي قرب الفانوس الخافت الضوء، الذي يتصاعد منه الدخان، ويلوّث أنوفنا، عمّي فاضل أغلق باب بيته، ونام في الحوش، هو وزوجته صبرية ومصطفى. أجلس قرب جدّتي، أحاول تفسير ظلالنا المنعكسة على الجدران.

جدّتي ميّاسة تتحوّل إلى ثمرة باذنجان كبيرة، خالتي تُلقي ظلّها على شكل نخلة صغيرة ثابتة، ترتسم فوق الزير المركون جنب الباب الحديدي الخارجي، وأخوتي الصغار ينامون في السرير الخشبي الذي جلبَهُ أبي لأمّي. تتحرّك جدّتي حركة مفاجئة، ربّما؛ لتعدّل من فتيلة الفانوس، أو كي تريح ظهرها، وفجأة ينبثق الدم من أنفها. تحاول جدّتي إيقافه بيدها، لكن الدم يستمرّ بالجريان، ويلوّث دشداشتها السوداء المفتوحة الصدر. ترى خالتي النزيف، فتحفز من مكانها، وتجلب ماعوناً عريضاً، وتضعه تحت وجه جدّتي، ويبدأ الدم ينزل إلى الإناء. جدّتي تظلّ ساكنة، كما لو كانت تتحمّل ألمها بروح قانعة بالمكتوب لها في هذه الحياة. كعادتها لم تصرخ، وهي ترى الدم يسيل من أنفها، كلّ ما فعلته أنها انحنت أكثر إلى الأسفل؛ كي لا يطرطش الدم حول الماعون. أحسستُ بالخوف. كلنا شعرنا بالخوف، وتحوّل لون سحناتنا إلى الأصفر الشاحب، وهي المرّة الأولى التي نواجه بها حَدَثاً مثل هذا. الدم الخارج من الجسد علامة على موت وشيك.

جلبت خالتي سميعة مياهاً من الزير، وبلّلت شعرها، قالت خالتي: كله بسبب الحرارة، بينما تركت أمّي قدر الحليب، وهبّت راكضة نحونا، ثمّ جلست قرب جدّتي، وأمسكت يدها، وراحت تحاول إيقاف النزيف، ممسّدة على ظهرها وساعديها، وهي تقرأ آيات قرآنية معتقدة أنها ستُوقف النزيف. لكن شيئاً من ذلك لم يحصل، واستمرّ النزيف أكثر من نصف ساعة، وجدّتي مستسلمة، لا تتفوه بكلمة، سوى التحديق بدمها المتجمّع في الماعون، تنعكس عليه أضواء الفانوس الخفيفة؛ لتحوله إلى كتلة سوداء رجراجة.

كنتُ أحدّق بجدّتي خائفاً، صامتاً، ذلك الخوف المختلط بالأسف. منذ أن وعيتُ على الحياة، وأنا أنام في حضن جدّتي، هي مَن يحمّمني، ومَن يطعمني، ومَن يسأل عنّي، إذا تأخّرتُ في المدرسة، أو لم أعد من النهر في أيام الصيف. تجنّب الأماكن الغميقة في النهر وسوارات الماء والتيار السريع، عودك لا يساعدك على السباحة في هذه الأماكن، تنصحني جدّتي عادة. تخاف عليّ، إنْ صعدتُ شجرة توت عالية، أو نخلة معمّرة، وتشوي لي البيض خلسة من أخوتي، وتتفقّد رأسي وجسدي من أجل تحميمي. لاحظتُ أن جدّتي ذبلت منذ أن انتقلنا إلى بيتنا الصخري، وانزوت أكثر حين تزوّج عمّي من خالتي سميعة، وبان على جدّتي الكبر، كما لو أحسّت أنها زائدة عن الحاجة. عمّي لم يعد يأبه لها كثيراً حين يكون في إجازة، تشغله خالتي برائحتها وملابسها وغنجها والتماعات عينيها ويديها البضّتين وأظافرها المصبوغة بالأحمر دائماً، وعمّي يلقي على جدّتي السلام، ما إن يصل، ثمّ يسألها عن صحّتها بواجب الأمومة، لا غير، فتردّ جدّتي - دائماً - بأنها بخير. لا تحتاج إلا إلى سلامته وسلامة الأولاد. أصبح الجميع يُطلق عليها اسم العجوز. اختفى اسمها من ألسنة الجميع حتّى بيت خالتي سميعة، في وقت الطعام، يقول واحد منّا: نادوا على العجوز؛ لتأكل، أو أين العجوز؟ أو هل نامت العجوز؟ عمّي هو الآخر تبنّى الاسم، وصار يناديها بالعجوز، بدلاً من أمّي. ولم أر أيّ أثر في وجهها المتعب للغضب، أو الأسف، أو الانزعاج من التسمية الجديدة التي لحقتْها.

قبل أن تصبح جدّتي زائدة عن الحاجة، كان حلمها الوحيد هو أن تحجّ إلى مكة، لكنه حلم، لم يتحقّق، وأعتقد أن جدّتي ميّاسة لم تستطع التآلف مع بيوت الصخر الجديدة، ولا صوت الراديو ورائحة البنزين المنتشرة في الهواء بعد أن صار بيتنا لا يبعد عن الطريق سوى خمسين متراً. حتّى أنا تركتُ حضنها، وصرتُ أنام في فراش وحدي، وفي صباحات كثيرة، أفيق، فأجدها ممدّة على مفرش نحيف من الصوف، تتغطّى بعباءتها البنية ملتفّة

على نفسها كأنها طفل. صغر جرمها حتى بات يضيع بين الأغطية والملاءات.

في تلك الليلة، لم ينقطع النزيف - تماماً - إلا في وقت متأخر من الليل. خرجتْ أمّي بصحن الدم، وسكبته في الحقل المجاور للفسحة الأمامية، وهي تدردم بكلام غير مفهوم، وجهّزتْ لجدّتي فراشاً من الصوف، جنب الجدار، وسألتها إن كانت بحالة جيدة، أو ترغب في أن تنام قُربها، جدّتي قالت إنها بخير، لا تحسّ إلا بتعب قليل في جسدها، وهي بعد أن تنام، ستصبح بحالة جيدة. لكن جدّتي لم تستطع تجاوز الأزمة التي ألمّت بها، وكان ذلك النزيف إشارة لزوبعة قادمة، ستطيح بها، وترسلها - لاحقاً - إلى القبر. حدث الأمر في الشتاء، ذلك الشتاء البارد ذي الرعود، وكنّا في غرفة أمّي ملتمّين حول منقلة النار، ورائحة الدخان تتغلغل في الأنوف، وصوت قطرات مطر خفيف يضرب السقف ومسطح الإسمنت في أرضية الحوش، مالت جدّتي عن جلستها، ووقعت على الفراش فجأة، وحسبنا أنها فارقت الحياة. تخشّب جسدها، وفقدت أطرافها الحركة، وغرقت عيناها في متاهة عميقة، ولم يبقَ من دلالة على الحياة فيها سوى نَفَس ضعيف، بالكاد يُسمع.

ماذا حصل لجدّتي؟ وكيف دخلتْ في تلك الغيبوبة غير المتوقّعة؟ وهل قرّرتْ - أخيراً - الموت؛ كي تلتحق بزوجها السابق؟ هل كانت راضية عن حياتها؟ هل أحبّتْ جدّي؟ وكانت تصفه بالحامض حين يأتي الحديث حول هذه الأمور؟ كيف استقبلت الحياة الجديدة في بيتنا الصخري وزواج عمّي وانتقالي للنوم في فراش وحدي، ومجيء بنات وأولاد؛ كي يملؤوا حوش الدار بالصراخ والضحك والعويل؟ حدث ذلك ليلة الأربعاء، ولمّا أدرك جدّي أنها لم تمتْ في الليل، ذهب منذ الصباح إلى المستوصف، وجلب المضمّد الجديد الذي حلّ بدلاً عن عبد، كان اسمه سميع، ويقال إنه مُلمّ بالطّبّ، ودرس في معهد العاصمة للتمريض، ويستطيع تشخيص المرض من خلال نظرة سريعة إلى وجه المراجع. جاء الممرض على درّاجة نارية حديثة، وتلمّس نبض جدّتي، وفتح عينها ودقّق في لون بشرتها، ونقر على عضلاتها وأعصابها بمطرقة فضّية صغيرة، ونكش جنبها بإبرة ناعمة، ووضع السماعة على صدرها اليسار، واستنتج - بشكل لا يحتمل الشكّ - أن جدّتي أصيبت، بالشلل. أخبره جدّي عن النزيف الذي حصل قبل أشهر، ممّا سهّل عليه تشخيص الحالة، وأوضح أن سبب الشلل جلطة في الدماغ، سببها ذلك النزيف الحادّ، ربّما بسبب ارتفاع مفاجئ في الضغط، أو انسداد شريان

في المخ.

الغيبوبة استمرّت بضعة أيّام، ثمّ فتحت جدّتي عينيها ذات يوم، وراحت تتطلّع في وجوهنا ببلاهة، كمَن يجد نفسه بين أشخاص، لا يعرفهم. ليست تلك النظرة الحنون التي اعتدتُ عليها في عيني جدّتي. هي في غيمة محلّقة في فضاء هذا الوجود. حاولتُ أمّي مساعدتها على النهوض والمشي، فأخفقت أعضاء جدّتي في القيام، وتهاوت على السرير مثل كتلة كبيرة من القطن الرطب. زيارات متواصلة من نساء، ورجال، استمرّت أسابيع، يكتظّ الحوش بالزوّار، وتنشغل أمّي بصنع الشاي والحامض، وتحاول خالتي سميعة الحفاظ على نظافة جدّتي، وذلك بغسل جسدها كل يومين، وتنظيف مخلّفاتها، ورش الأغطية والملاءات بماء الورد، وحرق البخور ليلاً ونهاراً، كي تتفادى أيّ تقوّلات تتّهمها هي وأمّي بإهمال جدّتي ميّاسة، المرأة الغريبة على العائلة، ولا تربطها أواصر قرابة بأحد منّا سوى عمّي رشيد. الشهور التي أعقبت مصاب جدّتي كانت مرّة، ومؤذية لنا جميعاً. على أمّي كانت هي الأقسى. اقترحتُ على جدّي وعمّي رشيد وضع جدّتي في مكان خاصّ بها، وهذا حصل بعد أن انقطعت الزيارات، وخفّ الاهتمام بشلّل جدّتي، وتحوّلت إلى عبء حقيقي لنا في البيت. رائحة جدّتي انتشرت بين الغُرف، رغم البخور وماء الورد، ووصلت الفسحة بين بيتنا وبيت عمّي فاضل، ولم يتورّع أخي مصطفى عن البوح بالحقيقة. قسم وصفها بالرمّة، وقسم أفصح قائلاً إنها جيفة حيّة حسب تعبير أخي. جدّتي تبول وتتغوّط في الحوش أمام غرفة المؤونة تلك. وتعرض أعضاءها دون معرفة الحدود بين الخجل والحياء. وصار عمّي رشيد يتحاشى المرور في ذلك الموضع من البيت.

وحين اختلط الليل والنهار على جدّتي، أصبحت تفيق في أوقات غير منتظمة من الليل، تحاول الخروج إلى الحوش، والزحف على أربع مثل حيوان متوحّش، ممّا كان يجلب الرعب لنا، خاصّة بعد إطفاء الفانوس، وسيادة الظلمة على المكان. سنضعها في غرفة المؤونة، قالت أمّي، نرتّب لها فراشاً مريحاً، ونُغلق الفتحة الأمامية ببارية قصب، ونهتمّ بها على مدار الساعة، كما لو كانت واحدة من نسائنا، فوافق جدّي وعمّي وخالتي، ووجدوا أنه الحلّ الأمثل لحالة مستعصية مثل هذه. هذه الروح اليتيمة، الشقية، النائية بعذابات، لم نفهمها في ذلك الوقت، كتبتُ لها، قبل أسبوعين مَرثية على ورقة بيضاء، وجدتُها مَنسية على مصطبة، تواجه نافورات ساحة القلعة. كتبتُ المَرثية، وسط هدوء الليل، وغربتي في هذه المدينة

البعيدة عن قريتنا، وخاطبتُها عبر طيّات السنين، بحزن وتأسٍ وفراق: أفتقدكِ، أفتقدُ ذراعيك الدافئتين حين تضمّانني في ليالي الشتاء الباردة، منذ بيتنا الطيني وحتى بيتنا الصخري. أفتقد الحكايات الساحرة عن الجنّ والنساء والحنافيش والمخلوقات المتجوّلة بين النخيل باحثة عن الأولاد المشرّدين. كلّما شممتُ رائحة السعد، بعد وفاتكِ بعشرات السنين، يحضر في خيالي صدركِ الدافئ الذي أضع عليه وجهي؛ لأنام، في ليالي الشتاء الباردة. المسقول اللذيذ، البيض المشوي، قطع اللحم التي تجلبينها لي من الفواتح والأعراس، ثريد الحليب المخلوط بالزبدة والسكّر صباحاً، النظرة الحنون، وهي تستقبلني ما إن أعود من المدرسة. أتذكّر ذلك وغيره بقلب حزين. ولن أنسى في حياتي المتبقّية لي ليلة موتها الذي حضر بغتة، بعد سنة - تماماً - من ذلك النزيف.

دَفَنّا جدّتي في المقبرة، قرب نخلة صغيرة من تلك الأشجار التي زرعها عمّي، ولم تزل تقاوم الذبول، لكنني أتألّم أكثر حين أفكّر بأنها لن ترقد جنب جسد عمّي رشيد، عمّي المجهول المصير حتى هذه الساعة. يقال: كيف لك أن تعرف بدنوّ الموت؟ عندما يصبح الأموات الذين تعرفهم أكثر من الأحياء، وأعتقد بصواب هذا المقياس، كم شخصاً من القرية واريناه الثرى حتّى الآن؟ المئات، ممّن شكّلوا لي ذاكرة موازية، تنفتح أمامي، كلّما وضعتُ رأسي على الوسادة. لم نألف أنا ونادية النوم سوية في فراش واحد. كلانا يشعر بالخجل من ذلك. هل كان للعمر دور في هذا السلوك؟ هل ورثتُ هذه الصرامة في حياتي من أبي؟ أبي الذي عَدّه جميع مَن عرفه أنه كان صارماً حقاً. لا أتذكّر وجهه ضاحكاً إلا في حالات نادرة. ربّما لهذا السبب، لم تحبّه أمّي رغم أنه تزوّجها، وهي لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها.

حاولتُ كثيراً معرفة السبب الذي دعاها إلى هذا النفور من أبي في بداية حياتها، إلا أنها لم تُفصح عن السبب. منذ بيتنا الطيني الذي عشنا فيه، قبل أن أولد، ظلّت أمّي هي لولب البيت، هذا ما كان جدّي يذكره - دائماً - في أحاديثه، هي تكنس حوش الدار، تخبز الخبز، تطبخ، تذهب إلى السواقي لجلب الماء، تحشّ الجت للبقرة أيام ما كان لدينا بقرة، تحصد سنابل القمح والشعير، تمضي في الصيف إلى مضارب الرعاة لجلب البعرور من المراحات؛ كي يصبح ناراً في التنّور، أو في مواقد الشتاء حين يشتدّ البرد، وهي نادراً ما كانت تتزيّن حين يعود أبي من عمله، كعادة النساء في القرية اللواتي يصبغنّ شفاههنّ بعُود الدارسين، ويتبخّرنّ بعد الحمّام،

ويعلكن القرفة في أيام الخميس. وظلّت علاقة أبي مع أمّي لغزاً، لم أستطع الوصول إليه. مجلّلة بالصمت دائماً، مثل جندي، ينفّذ الأوامر دون مناقشة، ولم تخرج عن ذلك الصمت وتلك الاستكانة إلا حين حلّت خالتي سميعة في بيتنا زوجة لعمّي، وكثر الأولاد في البيت، وبرزت المشاكل على السطح؛ لتطغى على علاقة الأخوّة التي تربط بينهما. أتذكّر - حتّى الآن - تعابيرها الغاضبة، وعينيها المتوهّجتين بالكره في أثناء المشادّات التي كانت تحصل بينها وبين خالتي حول الأطفال وشُغل البيت. قالت أمّي لخالتي سميعة ذات يوم: أنتِ مليئة بالسّمّ، وكان ذلك في صباح عادي من الشتاء، والسبب هو تأخّر خالتي من الاستيقاظ لخبز العجين، وكان من عادة جدّي طلب الفطور باكراً حتّى قبل أن تشرق الشمس؛ كي يبدأ التدخين. لبثت خالتي في سريرها، كونها تنام مع عمّي، وهو يفيق متأخّراً عادة، فجاوبتها خالتي بهمس خفيف ما إن سمعت جملة أمّي: لو لم يكن طولكِ مثل الجزّة ما الذي كنتِ تعملينه لنا؟ وأمّي شهيرة بالقِصَر، ربّما لهذا السبب لم يتولّع أبي بها. كنتُ أسمع أحاديثاً وقصصاً من النساء في مجالسهنّ الليلية عن مقت أمّي لأبي، وكيف كانت ترفض أن تخلّف له مع أنه ابن عمّها، وحين حبلت بمصطفى، حاولت كل ما تملك من طرق للخلاص منه، ولا أحد يعرف - لحدّ الآن - سبب هذا النفور، وقيل إن أبي أجبر على الزواج من أمّي من قِبل جدّي، كون أبي وضع عينه على البنت الكبرى للشاعر ملا علي، المسمّاة علياء، أخت مقبولة، وتعلّق بها، لدرجة أنه ما إن يسمع اسمها حتّى ترتجف شفتاه، ويتغيّر لونه، ويخرج من البيت لرؤيتها، إذا ما مرّت في طريق قريب من البيت. وأمّي تسمع هذه الحكايات، وتتغاضى عنها، بصمت، ولكنها تقبّلت الزواج كون أبي ابن عمّها، وفي مجتمع قروي مثل مجتمعنا، لا يمكن لفتاة - لم تبلغ العشرين بعد - الاعتراض على ما تقرّره العائلة.

سمعتُ جدّتي ميّاسة أكثر من مرّة تذكر واقعة أمّي، وهي تحاول التخلّص من حملها؛ أي من أخي مصطفى، بكرها، وهي لم تتجاوز سنّ السادسة عشرة من عمرها. تتذكّر جدّتي ميّاسة كيف كانت ترى أمّي الحامل بشهرها الخامس أو السادس، وهي تتسلق نخلة من نخيل جارنا حمّادي، وكان النخل في ذلك الزمن لا يتجاوز المترين أو الثلاثة ارتفاعاً، ثمّ تلقي نفسها إلى الأرض، في محاولة منها لإنزال الطفل من بطنها، ممّا عرّضها لانتقادات حادّة من أمّها دلّة، ومن جدّتي ميّاسة، حتّى إن جدّتي لأمّي دلّة ضربتها ذات يوم، بسبب هذه الحادثة، وحذّرتها من أنها ستجلب العار للأسرة، إذا ما مضت بهذا الطريق، طريق النفور من زوجها، دون أن

تدرك مآل ما تقوم به من أعمال صبيانية.

ذلك الطفل الذي رغبت أمّي في التخلّص منه هو مصطفى، البكر في العائلة. مصير أخي تعلّق بمصير عمّي فاضل، الأخ غير الشقيق لعمّي رشيد، عاش في كنفه حتّى مغادرته إلى العاصمة لدراسة اللغة العربية. فأبي وعمّي فاضل يشتركان بالأب والأم، أمّا عمّي رشيد؛ فأمّه هي جدّتي ميّاسة، تزوّجها جدّي بعد وفاة جدّتي ياسة خلال طلق مبكّر لطفل، دُفن معها في المقبرة بعد أن تعسّرت الولادة، قبل أن أولد أنا بفترة طويلة. أين عاش عمّي فاضل قبل أن ننتقل إلى بيتنا الصخري الجديد؟ لا أعرف، هل كان يعيش في بيتنا الطيني؟ أم في بيت ثان قريباً من بيت جدّي؟ اللحظة الأولى لوعيي على عمّي فاضل وزوجته هو أنه بنى بيتاً مقابل بيتنا الصخري، بناه سليمان البنّا أبو زوجتي نادية، ومنذ أن وعيتُ، وجدتُ أخي مصطفى يعيش مع عمّي فاضل وزوجته صبرية، مُدلّلاً موفور الصحة، لا يلتفت إلينا نحن أخوته، كونه يحصل على أي شيء يرغبه، عكسنا نحن.

سليمان البنّا صمّم لعمّي فاضل بيتاً، يخالف خريطة بيتنا تماماً، جعل الحوش في نهاية البيت، ووضع المضافة في جوار المدخل، ووضع دكّاناً صغيراً بمواجهة المضافة، فيما وضع الغرفة والمطبخ في الفضاء الداخلي للبيت. الفضاء الداخلي الواسع دعا عمّي الى زرع نخلة في وسط الحوش. كان مصطفى - عادة - يصطاد منها الحمام، ودكّان عمّي فاضل الصغير يحتوي على الشاي والسكّر والتبغ والصابون والحلويات، تفوح منه رائحة لذيذة، تخرج من الشبّاك الصغير المطلّ على الطريق، وتتغلغل في أنوف العابرين، ولوجود مثل تلك الوفرة من الحلويات، كنّا نحسد أخي مصطفى على حياته في هذا النعيم؛ حيث الطيّبات كلها تحت يديه، عدا عن البيض المقلي الذي تُطعمه إيّاه عمّتي في الصباح، حين يستيقظ في ساعة متأخّرة من النهار.

هناك ثغرات كبيرة في ذكريات تلك السنوات، لكنها تظلّ مثل منجم غير مكتشف، كلّما حفر فيه المرء، يقع على عِرق ثمين من المعادن. أخفق عمّي وعمّتي في انتاج طفل، رغم مرور سنوات على زواجهما، فاتح عمّي جدّي وأبي وأمّي في تبنّي مصطفى؛ كي يكون ابناً لهما؛ فوافق الجميع على ذلك الاقتراح، وتمّ ذلك قبل أن أعي أنا ما يجري حولي. لا أتذكّر سوى اكتظاظ بيتنا بالأولاد، أبناء عمّي رشيد وأخوتي الصغار. أخي بشير يظهر في حوش الدار ببشرته البيضاء، وشعره الأسود المائل إلى الشقرة، فيصبح

الطفل المدلّل للعائلة، ثمّ يعقبه أخي أحمد ما إن تمز سنتان على ولادة بشير. كل أسبوع يذهب عمّي إلى المدينة للتسوّق، يجلب - أحياناً - بضاعة جديدة للدكّان، فتتلاقفها الأيدي بسرعة، فيجلب غيرها في الأسبوع اللاحق، وهكذا، حتّى أصبح عمّي مشهوراً بجلب كل غريب وعجيب إلى القرية.

في تلك السنوات، استطاع عمّي فاضل تسلّم مجد دكّان زابط المضحي حين مات بمرض السّلّ. كان دكّانه مصدر الرزق الوحيد له، فهو لم يعتنِ بالزراعة، ولا بتربية البقر، أو المواشي، كما لم يتاجر بالغنم، أو الدهن الحُرّ أو التمر، كما كان يفعل رجال عديدون من القرية. ولم يمتهن أيّ مهنة حديثة، مثلما فعل عمّي رشيد وأبي؛ ليصبحا سائقي حفّارات ماهرين، ثمّ ملاكين لحفّارات بعد أقلّ من عشر سنوات. تتّفق معظم الآراء حول حقيقة أن عمّي فاضل كسول، لا يهتمّ لزراعة الأرض، ولا تربية البقر، أو جني محصول النخيل، عدا تلك السفرة الأسبوعية إلى المدينة، كان يقضي نهاره جالساً في مضافته مستمعاً إلى الأخبار عبر راديو صغير، أو يجلس مع مصطفى؛ كي يراجعا حسابات الدكّان من ديون على الزبائن، ومصروفات، وحاجات مفقودة، ينبغي تجديدها. عمّي فاضل صار مخزناً لأخبار العالم، يلتقط البي بي سي، وإذاعة بغداد، والقاهرة، وكانت تُدعى صوت العرب، ويجتمع لديه شيوخ القرية لسماع الأخبار كل أسبوع أحياناً. إضافة للحسابات التي برع فيها مصطفى، كان عمّي يأخذه معه في بعض السفرات؛ كي يساعده في حمل الأغراض، وهذا بالذات ما كان يشكّل مصدر حسد وقهر لنا، نحن الذين نادراً ما نزور المدينة إلا في وقت المرض.

نتخيّل أنا وابن خالتي ماهر رحلة مصطفى الخرافية بحسرة: ينزل من باص الخشب المملوك لابن المختار، في ساحة الكراج غير البعيدة عن وقفة الدواب، عند الطرف الشمالي من مركز المدينة، ويضع يده في يد عمّي فاضل، ويتّجهان إلى الشارع، شارع البزّازين؛ حيث يجلس عمّي فاضل في محلّ البزاز أحمد زيدان، وهو قريب لنا من بعيد، غادر القرية منذ شبابه، وتزوّج، ثمّ قطن المدينة، وافتتح محلّه في ذلك المكان بائعاً للأقمشة. أقمشته - عادة - نسائية ورجّالية، موضوعة في رفوف، تبدأ من أرضية المحلّ، وترتفع حتّى السقف. البوبلين والبازة وضلوع بنت الريف والقديفة والململ، وفيها الإنكليزيّ والتركيّ والمحلّيّ والسوريّ، وأصبح محطّ رحال لرجال القرى ونسائها، ويمتلك المحلّ مخزناً معتماً في نهاية

الدكّان، تجلس فيه - عادةً - النساء حين يجئن للتسوّق منه، خاصة في موسم الأعراس.

يجلس عمّي في واحد من الكراسي المصطفّة في المحلّ، ويتبادل الأخبار مع البزاز لبضع دقائق، يحتسي خلالها الشاي على حساب المحلّ، بينما يظلّ أخي واقفاً، إن كان ثمّة زوّار آخرون يحتلّون الكراسي، أو يجلس في كرسيّ صغير، منتظراً بفارغ الصبر الخروج إلى شوارع المدينة. عمّي فاضل في زيارته للمحلّ، يُبلغ عن حضوره، ويُبدي رغبته لشراء القماش، إن كان يرغب في الشراء، ويمضي - بعدها - إلى السوق؛ لكي يعرج عند الظهيرة إلى محلّ أحمد بعد أن يكون جمع أغراضه هناك، ثمّ يتوجّه إلى الباص للرجوع إلى البيت. ما إن ينهي عمّي شايه حتى يغادر الدكّان ممسكاً بكفّ مصطفى خوفاً عليه من الضياع في زحمة المدينة، وهي زحمة معروفة، تبدأ خلال الصباح، وتنتهي عند الظهيرة.

جموع الفلاحين تتدفّق إلى المدينة من القرى التي تحتلّ شاطئ النهر، لقضاء حاجاتها، ومراجعة الدوائر الحكومية وشراء السلع التي لا تتوفّر في الدكاكين الصغيرة المنتشرة بين القرى. يتأمّل مصطفى سلال العنب والتين والتمر أمام الدكاكين، ويمتلئ سمعه بنداءات باعة الكبدة المقلية واللوبياء والطماطم والجواريب والحلويات، ويتفادى الدرّاجات الهوائية المسرعة، أو عربات النقل الخشبية التي تجرّها الحمير. وتمتلئ خياشيمه برائحة الشواء من كباب وتكّة وقلوب، وهي تقطر دهناً فوق مناقل الفحم الموضوعة أمام واجهات زجاجية غاصّة بالآكلين، وتأتيه من بعيد أصوات منغّمة لقرّاء قرآن، أو لأغاني ريفية، يبثّها محلّ للتسجيلات، وتختلط في عينيه أنواع غريبة من الأزياء. هناك الأفندية الذين يلبسون البناطيل والقمصان والجاكيتات، والأربطة بعض الأحيان، وهناك شيوخ القرى وموسروها الذين يرتدون الغترة والعقال والدشاديش البيض، ويلبسون الأحذية الأنيقة، وبعضهم يضع العبي الصوف فوق أكتافهم، وهي تتطاير خلفهم لدى هبوب أيّ نسمة خفيفة قادمة من النهر، وهو لا يبعد عن مركز المدينة سوى كيلومترات قليلة.

وعند الجامع الكبير الكائن في وسط السوق، يعرج عمّي على دكّان آخر، يعرف صاحبه جيداً، ويتعامل معه بالدين بعض الأحيان، بعد أن تمثنث أواصر الصداقة والثقة بينهما خلال سنوات؛ ليشتري الزبيب والتبغ والصابون والحمّص والملبّس والشاي والأمشاط وشفرات الحلاقة الناسيت، وحلويات ذروق الفار واللقم؛ حيث يجلس معه ساعة، أو أكثر،

إلى أن ينتهي من شراء بضاعته. عندئذ يعرف مصطفى أن وقت الطعام قد حان، وهو مركز السفرة كلها، فهو متلهف لتذوق الكباب الذي حُرم منه أكثر من شهرين، منذ السفرة السابقة. أكلة الكباب هي اللحظة التي حلم بها طويلاً، وتمثلت له في خياله قبل أن ينام، وسمع بطنه تناديه نحوها بلهفة. أكلة الكباب ظلّت عشرات السنين مثار خيال، لا لأخي مصطفى فقط، بل للفلاحين جميعهم، كبيرهم وصغيرهم. هل تعبتْ؟ يسأله عمّي فاضل، ويرمقه بوذ، كما لو كان ابنه الذي من صلبه. لا، لكنني جوعان، يجيبه، وهو يعرف أن وجبة الكباب قد اقتربتْ، وعليه أن لا يظهر التعب لعمّه، فربما تحرمه من مرافقته في المرّة القادمة.

وعمّي فاضل رجل قصير نوعاً ما، ضعيف البنية، عادة ما يرتدي العقال والكوفية مع الدشداشة والجاكيت الأسود الذي يظهر واسعاً على جسده النحيل. ذو وجه فأري حليق، على الدوام، وتبرز طبقة خفيفة من الشعر على شفته العليا، هي كل ما تبقّى من شاربه، ومع التعابير المعتكرة في وجهه، يبدو للناظر، كما لو كان في طريقه إلى معركة شرسة مع شخص ما. يدخل عمّي بهذه الهيئة العابسة إلى مطعم العشائر الكائن قريباً من سوق القصّابين، ويجلس مع مصطفى على طاولة بكرسيين، يطلب نفري كباب مع الطماطم المشوية والكرفس وكأسين من اللبن. المطعم يغصّ بالفلاحين، وتطير في جنباته ذبابات قليلة، تجلب التذمّر للآكلين، دون أن تصرفهم عن الوجبة المنغمرين في مهاجمتها، وجبة الكباب أو القلوب أو تكّة اللحم المشوي. يبدأ اللوك والتمطّق والبلع، ومصطفى يدرك أن وجبته من الكباب لن تتكرّر إلا بعد أسابيع ربّما، ثمّ يتناول عمّه كأس شاي، ويدفع الحساب، ويخرجان إلى الشارع مرّة أخرى. ويعرج مصطفى مع عمّه إلى بائع الحلاوة الطحينية، ويشترى نصف كيلو، يخمط قسماً منها؛ ليناوشه إلى مصطفى؛ كي يأكلها، وهما ماشيان باتّجاه الباص، ثمّ يلفّ الباقي في كيس ورقي؛ ليأخذه إلى زوجته العاقر. عفتي صبرية التي تعشق الحلاوة الطحينية، كما لو كانت تتوخم. الرحلة المتخيّلة كانت تثير حسدنا، أنا وماهر، يضيف مصطفى بعض المرّات قصصاً أخرى إليها، لا نعرف إن كانت حقيقة أم خيالاً، مثل حكاية الرجل المجذوب الملتفّ بفروة من الصوف أمام الجامع الكبير، وهو يعرض أعضاءه التناسلية للمارّة دون خجل، أو طشت المقالي الواسع حتّى إن الشخص يمكنه أن يستحمّ فيه، وهو يقوم أمام سوق التبغ، ويجلس عليه شخص، بيده مغرفة واسعة، يقلّب بها الكلى والأمعاء والكروش والرئات في سائل أصفر من البهارات، تفوح رائحته في السوق حتّى تكاد تصل دكّان أحمد الزيدان، وقد وضع حوله كراسي

صغيرة من الخشب، يجلس عليها فلاحون، يتناولون تلك الوجبة بلذة فائقة.

ومن حكاياته المثيرة ذلك الأعمى الواقف في زاوية الشارع يجوّد آيات قرآنية طلباً للرزق، والرزق نقود ضئيلة، يجود بها المارّة، ولا تتعدى الخمسة فلوس، أو العشرة، وطول الأعمى لا يتعدّى المتر، يشبه طفلاً صغيراً، لكنْ؛ بلحية وشاربين. أخبرنا مصطفى - ذات يوم - إنه رأى جملاً يمشي وسط الشارع، يقوده بدوي، بشعر طويل، يشبه شعر المرأة، لكننا لم نصدّق حكايته. فكيف لبدوي أن يتمشى في المدينة مع جمله، ونحن نعرف أن البدو يعيشون في الصحراء فقط؟ نحسده على مغامرته، ونعتقد أنه يتمتع بامتياز، لا نملكه، حتى نحن أخوته. حتى حين عمل عملية للفتق، وتمدّد في فراش وسط المضافة، وكنا نزوره كل يوم، ظلّ الحسد ينهشنا من الاهتمام الفائق الذي شملته به عمّتي صبرية وعمّي فاضل والعائلة جميعاً. عمّي رشيد الذي نادراً ما يشارك في مناسبات مثل تلك، أبدى اهتماماً استثنائياً حين أخبره الطبيب بوجوب عمل العملية، فهو عبر علاقاته بالأطبّاء والمضمّدين في مستشفى المدينة العامّ الواقع وسط غيضة من أشجار اليوكالبتوس والأثل والصفصاف، قريباً من مستودع التدريب، تحمّل العناء الأكبر في أثناء العملية والأيام اللاحقة التي رقد فيها مصطفى في المستشفى. تلك العملية هي التي سبّبت له العقم، كما أفكّر اليوم، وأنا أدوّن عن أيام ذلك الزمن من القرية، العقم الذي دفعه لاحقاً؛ أي بعد عشرين سنة، من تبنّي طفل، سمّاه أحمد، على اسم أخي أحمد، ألحقه بنسبه في دائرة النفوس، واختلقت زوجته قصة طريفة حول تبنّيه؛ إذ أخبرت الجميع أنه ابن أختها، القاطنة في مدينتها الجنوبية البعيدة، لكن أمّي تقول حين تجلس مع النساء أن سبب العقم هو لعنة عمّي فاضل، العقيم هو الآخر، أمّا الطفل أحمد؛ فقد اشترته من مجمع للغجر، كان يخيّم على أطراف تلك المدينة.

كان مصطفى يجيّر كل شيء في حياته لمصلحته، ولإدامة الإعجاب بشخصيته، من قِبلنا نحن، حتى المرض الذي ألمّ به. كان يشعر بأنه أكثر حظوة منّا، وأكثر دلالاً من قِبل الجميع، وهذا ما نما لديه أنا متضخّمة لا تفكّر إلا بنفسها. العزلة التي عاشها في كنف عمّي وعمّتي دفعته للقراءة، ولحدّ هذه اللحظة، لم أستطع تفسير السبب وراء ذلك، كان يهتمّ بالقصص والحكايات والأشعار، وفي أثناء سفراته مع عمّي، خلال سني نضجه، كان يعرج على مكتبة، تقع قرب السينما؛ ليشتري كراريس صفراء صغيرة، هي

قصص، لم نسمع عنها في مناهجنا الدراسية عن الزير سالم، وذات الهمّة، والسندباد، وغزوات الإمام علي، وعنترة العبسي، يجلس في المضافة وحيداً، يقرؤها بمتعة. يحلّق معها في الماضي، كما أخبرني ذات مرّة، ويحسّ بمتعة الخروج من هذه القرية البائسة المصنوعة من نخيل وأشجار ونهر وفلاحين، يولدون، ويموتون دون معرفة السرّ، والغرض من مجيئهم إلى هذا العالم، كما شرح لي بعد سنوات من تلك الفترة. أنا وماهر تعلّمنا قراءة القصص من كُتُب مصطفى تلك. صورة مصطفى ظلّت هلامية في عقلي حتى عشنا معاً في ذلك البيت الصغير الواقع في أطراف المدينة.

قريتنا لا تمتلك مدرسة متوسّطة، طالب عمّي رشيد أكثر من مرّة ببناء مدرسة متوسّطة لنا؛ أي للصفوف السابعة والثامنة والتاسعة، لكنْ؛ لم يهتمّ أحد، لا مديرية التربية، ولا البلدية، متحجّجين أن القرية نائية، ولم تصلها الكهرباء بعدُ، ولا يصلها طريق مبلّط، عدا عن نفوسها القليلة حسب زعمهم. ولكي نواصل الدراسة بعد تخرّجنا في الابتدائية، ارتأى عمّي رشيد على أبي شراء قطعة أرض في المدينة؛ كي تصبح بيتاً للتلاميذ. اشترى عمّي رشيد تلك الأرض عن طريق سليمان البنّا، الذي ظلّ على علاقة صداقة بعمّي حتى وفاته. كانت الأرض الصغيرة المجاورة لبيت سليمان البنّا معروضة للبيت، وحين التقى عمّي صدفة في سوق اللحوم، اقترح عليه شراء تلك القطعة، خاصّة وأن ثمنها بخس، بسبب عدم وجود طرق مبلّطة نظامية في المنطقة، ولا مصارف لتصريف المياه، وتقع على أطراف المدينة. وهذا ما حصل.

مَن زرع صف اليوكالبتوس على امتداد السياج؟ ومتى بُنيت غرفتان في ذلك البيت؟ ومَن سيّج الأرض بسياج عالٍ من الصخر؟ ومَن اختار الباب الحديدي الداكن اللون؛ كي يكون مدخلاً لما سمّيناه بيتنا، أنا وماهر ومصطفى؟ الطلاب الثلاثة المثقّفون، كما يسمّينا عمّي رشيد، الذين قطنوا البيت حتى رحيلهم إلى العاصمة. كان عمّي رشيد يطلق علينا لقب (المثقّفون الثلاثة)، ولهذه التسمية أسباب كثيرة، فنحن لا نفترق أبداً، لكوننا متقاربي الأعمار، نسبح سوية في النهر، نفتش عن الأسماك الطافية والمحار وجذور السعد، ونبني بيوتاً على الضفّة من الرمل، ونناقش الأحداث التي تجري بعيداً عنّا، ونسمع عنها في الراديو، وحين كبرنا، نعبر النهر مرّة أو مرّتين في اليوم، نهتمّ بالكُتُب المدرسية، ومواضيعها، خاصّة التاريخ والمحفوظات الشعرية، ونتبارى في مَن يحفظ أكبر عدد من

الأبيات، مما نال إعجاب الأهل والأقرباء، فكانوا ينادوننا في بعض الأمسيات؛ لنجلس أمام الضيوف، ونلقي لهم تحت أشغة الفانوس المعلّق في الجدار، قصيدة من المعلّقات، أو قصيدة غزل لمجنون ليلى، ويأخذ الحماس ابن خالتي ماهر بعض الأحيان؛ فيبدأ بتنغيم وترنيم الأبيات في أثناء الإلقاء، فتنتفخ أوداجه، ويجلجل صوته، وتزوغ عيناه، وينسى نفسه تماماً، حتى يظنّ الرائي أنه يقف أمام مايكرفون حقيقي في حفل رسمي مثل الذي نسمعه في الراديو. كنتُ كلّما رأيته على هذه الحال، أضع يدي على قلبي خوفاً أن يعاوده الصرع القديم، ويسقط جثة هامدة في المضافة.

هل اهتمّ عمّي رشيد بنا، كوننا أول جيل متعلّم في العائلة؟ هل كان يفكّر أنه وجد له حلفاء من بين الأقرباء، يساندونه في الانفلات من الأسوار الأخلاقية المتوارثة؟ هو مَن وقف بقوّة ضدّ فكرة ترك المدرسة فور إنهاء الصف السادس الابتدائي، وحاول ذلك الوقت بقوّة إقناع المديرية بفتح صفوف متوسطة في مدرسة المعرفة، لكن جهوده أخفقت، فهداه تفكيره إلى البحث عن طريقة لبناء بيت صغير، يكون ملائماً للعيش في المدينة، لمواصلة الدراسة. ربّما تنسّم عمّي بنا، بنظرته الثاقبة، ومنذ ذلك اليوم الذي رافقناه فيه لتشجير المقبرة، أننا سنكون أشخاصاً ذوي شأن في مستقبل الأيام.

سليمان البنّا كان جارنا، ولأنه متزوّج، وله بنات، وضع حاجزاً من القصب، يرتفع عن السياج بين بيتينا عدّة أمتار. نعدّ الطعام على طبّاخ نفطي صغير، نقرأ في الحديقة، أو تحت ظلال اليوكالبتوس، نستمدّ الماء للشرب من حنفية صغيرة قرب الباب، ننام ثلاثتنا في الغرفة الثانية المجاورة للمطبخ، رغم وجود غرفة أخرى؛ لأننا نخاف في الليل، نخرج إلى المدرسة صباحاً، ونعود ظهراً مشياً على الأقدام، نخترق حيّ المعلّمين وساحة المستودع، ثمّ نمشي مركز المدينة حتى نصل المدرسة بواجهتها الصفراء، كل يوم، إلى أن يأتي الخميس، فننزل إلى أهلنا عصراً، ثمّ نعود في عصر الجمعة إلى المدينة. كان طعامنا يقتصر على البطاطا المقلية والبيض والطماطم وبعض الأيام يطبخ لنا ماهر الرزّ، نتاوله مع مرقة الطماطم، عدا ذلك يكون طعامنا الدبس والراشي والزبدة التي نجلبها من القرية، ننام باكراً، وننهض باكراً في الصباح، لا نمتلك راديو، ولا تلفزيون، ولا تلفون، حتى الكهرباء لم تكن سوى خيط واحد، مدّه لنا أبي من الشارع الرئيس، ووزّعه على الغرفتين والمطبخ، وهو حمّام في الوقت ذاته، كنّا

نغتسل فيه بعد أن نسخّن الماء بسطل من الفافون، وهو ما يحصل نادراً؛ إذ نكتفي بالحمّام الذي نأخذه كل أسبوع في القرية. مع النقود الضئيلة التي نمتلكها، كانت حياتنا ضنكة، مقثرة، كئيبة، بلا أحلام كبيرة، رغم أن حلم دخول الجامعة ظلّ هو الحلم الوحيد الذي نسعى لتحقيقه.

نعيش على أطراف المدينة، بحيّ عشوائي، على يسارنا بيت سليمان البنّا، وخلفنا بيت امرأة، لم نعرف أصلها، اسمها جروة، كانت تمتلك بيتاً من الطين، له حديقة واسعة، وتربّي البقر والحمير والأغنام في تلك الحديقة، أمّا أبناء جروة؛ فكانوا بين حمّال في السوق، ومساعد لقصّاب، وأطفال صغار، يهتمّون بالماشية والبقر؛ إذ يأخذونها إلى الفسحات الهائلة الممتدّة حتّى البحيرة النامي فيها العشب والثيل، وبعض أجمات القصب والبردي. في تلك السنة التي قطنّا فيها في ذلك البيت، مات لها صبي بعمر العاشرة، إثر تسلّقه لعمود الضغط العالي، فصعقته الكهرباء، ومات متفحّماً في اللحظة ذاتها.

لمَ أعود إلى تلك السنوات الغامضة من حياتي، في ذلك البيت الملفّق المجاور لبيت سليمان البنّا؟! أفكّر - أحياناً - أن قفزات الذاكرة عبر الزمن لها مغزى ما، حتّى وإن صعب الوصول إلى كنهها. لماذا ينتقي العقل فريسته في نهر الحياة الذي مضى حَدَثاً من الأحداث دون سواه؟ إذا ما عرفنا أن ذلك الحيّز الصغير من الفرد المسمّى ذاكرة، يتجمّع فيها ملايين الثواني والدقائق والأيام والشهور والسنين؛ أي عمر الشخص ذاته، فيصبح من العسير تتبّع الماضي خطّياً، من البداية وحتّى النهاية؛ أي الموت، وهذا ما يجعلني أتفهّم قفزات عقلي، وأنا أستعيد ما حصل لعمّي، لي وللقرية، خلال نكباتنا المتتالية. أعود بذاكرتي إلى بيتنا في منطقة الحصوة. إلى ذلك اليوم الشتائي، الغائم، وكنا نجول أنا وماهر في الحديقة، نقرأ تحضيراً لامتحانات نصف السنة، وكيف جاء مصطفى راكضاً من الدكّان؛ ليخبرنا أنه رأى عمّي رشيد يدخل إلى بيت سليمان البنّا، فلم نصدّق أول الأمر، فعمّي يشتغل في بغداد، وإذا ما حصل على إجازة من عمله، فالأولى له أن يذهب إلى القرية، لا أن يبقى في المدينة. صار عمّي يزور البيت كل أسبوعين تقريباً، وبعض الأحيان، يغيب شهراً كاملاً، دون أن يلقى احتجاجاً من خالتي سميعة؛ إذ اعتادت عليه بعد تلك السنوات الطويلة من العشرة، وتربية الأطفال.

عائلة سليمان كبيرة نسبياً، له ولدان وثلاثة بنات، أصغرهنّ نادية، بعينيها الزرقاوين، وشعرها البنّي القريب إلى الشقرة، ألمحها - بعض

الأحيان - تلعب أمام البيت، أو ترافق أبيها إلى الدكّان القريب من حيّ المعلّمين. تشتري الدوندرمة من عربة البائع، تلعقها بلذّة، نحيفة، تضع ربطة ملوّنة على شعرها، تنزلق عن رقبتها، فتبين طويلة بيضاء. لا أسمع صوتها إلا نادراً، وكأنها تراقب الحياة من مكان مرتفع. تقضي معظم ساعات الصباح، تشطف المماشي الإسمنتية حول البيت بمكنسة من سعف النخيل. يطلق عليها ماهر بعد سنة من سَكَننا في البيت لقب العصفورة، دون أن أدرك السبب وراء هذه التسمية. أمّا زوجته علية؛ فكانت امرأة لطيفة، هي مَن ورّثت ابنتها نادية ملامحها، خاصّة عينيها الزرقاوين. علية لا نراها خارج البيت إلا حين تكنس واجهة البيت في الصباح، أو تذهب مع سليمان إلى الطبيب. ارتبط عمّي بصداقة مع سليمان البنّا منذ أن كان سائقاً لسيّارة الحمل، ويبدو أن صداقته استمرّت منذ ذلك الوقت. لكن هذه هي المرّة الأولى التي نرى فيها عمّي ضيفاً عند بيت سليمان. ولأننا كنّا قليلي التجربة في الحياة، لم نستطع تفسير هذه العلاقة الحميمة.

ساعة فقط، ويطرق عمّي رشيد الباب، ويدخل إلى الحديقة، يسلّم علينا بحرارة، يلبس بنطلوناً وقميصاً وسترة طويلة، تصل حتّى ركبتيه، رائحة الريفدور تفوح منه، وشارباه كثّان، ويبدو الفرح في وجهه، ولم نشأ سؤاله عن سبب بقائه في المدينة، فهو لم يزر البيت منذ أسبوعين، كما قالت خالتي سميعة في الجمعة الفائتة. هل تأتون معي إلى المدينة؟ سألَنا عمّي، وهو يقف جنب حنفية المياء المحاطة بالثيل والنفل، ولم يبدُ عليه أن له رغبة في الدخول إلى الغرفة. عمّي بملابسه تلك، ووقفته الفارعة، بدا مكتمل الرجولة ناضج العقل، وتحيط بوجهه رزانة بادية للعيان، رزانة الأشخاص المنتصرين في معاركهم اليومية. نجح في إكمال بيته الجديد، وعمله في بغداد يسير دون مشاكل، وتجربة الحياة تطلي وجهه بالحكمة، ويبدو للناظر شخصاً، لا يهاب من شيء. ألا تشرب الشاي؟ يسأله مصطفى بارتباك، فيما نقف، أنا وماهر وسط المدخل غير المَبني الذي يقود إلى الغرفتين والمطبخ. كلا، تناولته في بيت سليمان، جهّزوا حالكم، وسأمرّ عليكم في الثالثة والنصف؛ كي نذهب إلى السينما، سنحضر على دور الرابعة. يقول عمّي، ويخرج من الباب متّجهاً إلى بيت سليمان، ويتركنا مذهولين، نتطلّع إلى الفضاء ببلاهة.

سينما، أفلام، نساء عاريات، أضواء وأغاني وصور تتوزّع على الواجهة، وأقوال بذيئة - بحقّ - مرتادي هذه الأماكن المغلقة. وقع الخبر علينا مثل زخّة من المطر، فنحن رغم مضي سنة على وجودنا في المدينة، لم يتهيّأ

لنا مشاهدة السينما، فهي منكر، ولا يرتادها سوى المنحرفين وعديمي الأخلاق، وهي طريق، يقود إلى الفساد والضياع، مثلها مثل الخمرة وسباقات الخيل والقمار وبيوت الدعارة، هكذا هي صورة السينما لدينا، نحن أبناء القرية. سليمان البنّا، وبعد أن كبر في السّن، أصبح جسده لا يعينه على تسلّق الجدران وحمل الصخور والنهوض منذ الفجر لمزاولة مهنته، مهنة البناء، لذلك، وبعد أن استطاع تأمين بيت له، اشترى سيارة تاكسي، وصار يشتغل عليها في المدينة، نراها أغلب الأوقات في الظهيرة حين يعود للغداء في البيت، أو بعد العشاء حين يعود للنوم. يركنها أمام الباب، ويهتمّ بنظافتها كل جمعة، فالجمعة يوم استراحة لديه، ويوم إدامة لسيارته التاكسي. لم يتغيّر شكل سليمان كثيراً عن اليوم الذي شاهدتُه يقعي على جدار بيتنا، السيكارة نفسها، يعضّها بأسنانه، ويتركها هناك، بغضّ النظر عن العمل الذي يؤديه، استبدل ببنطال العمل دشداشة بيضاء، يرتديها دائماً سواء كان في التاكسي، أو البيت، صغرت عيناه، بسبب ظلّ الغترة التي يضعها على رأسه، حتى كادتا تختفيان من وجهه، وتآكلت أسنانه، بشكل واضح، ويقال إن ذلك مرده - إضافة إلى التدخين - تناوله للعَرَق، باستمرار. صغر حجمه حتى يكاد يشبه صبياً، لم تكتمل رجولته بعد.

شاهدنا السيارة واقفة أمام بابنا، بعد أن نبّهنا عمّي بعد ساعة - تقريباً - بواسطة الزمور الحادّ الذي نعرفه جيداً، وجلس أخي مصطفى في المقعد الأمامي، بينما جلسنا أنا وماهر في المقعد الخلفي، وجميعنا يرتدي بيجامات كانت سائدة بين الشباب في ذلك الوقت. لا أحد منّا سأل عمّي عن اسم الفيلم، أو أسماء الممثلين، وهل هو فيلم مصري؟ أم هندي؟ أم أجنبي؟ فتلك الأسئلة كانت خارج حدود تفكيرنا. نحن نتبع عمّي فقط، مثلما تبعناه في ذلك النهار، قبل سنوات طويلة، حين أخذنا معه لتشجير المقبرة. لم أدرك - وقتها - السبب الذي دعا عمّي؛ لأخذنا إلى السينما، مثلما لم أدرك حقيقة مشروعه في تشجير المقبرة، هل يودّ أن يدهشنا فقط؟ أم أن له غرضا آخر نجهله؟ وهل ينبغي علينا أن نبقي الحَدَثَ سرّاً بيننا؟ أم نذيعه بين أقراننا في القرية؟ وهل سنصبح منذ هذا اليوم فاسدين ومنحرفين؛ لأننا سنشاهد هذا المسخ الغريب المرعب الذي يطلقون عليه اسم السينما؟

تقع السينما، وهي الوحيدة في المدينة، وسط المركز تماماً، بناء ضخم، يواجه مطعم وفندق البلدية، ومن جانبها الأيسر، يمتدّ شارع الحلاقين

الذي يتوغّل حتى الساحة الصغيرة التي يطلّ عليها سوق القصّابين وسوق باعة التبغ وباعة المرس والأدوات الزراعية وبراميل المياه، ويواجه السينما، عبور الشارع، جامع المدينة الصغير، وهو جامع قديم، بُني في أيام الملوك. باب السينما عريض، ويُفتح - عادة - قبل نصف ساعة من بدء العروض، وأمامه ساحة واسعة، تمتدّ حتى كتف الرصيف، وعادة ما يقف فيها باعة اللبلبي والباقلاء والبيض المسلوق والدوندرمة، يقفون بعرباتهم الخشبية من مختلف الأحجام، شتاء وصيفاً، فيما تحيل الأضواء الكهربائية المعلّقة على واجهة السينما ليل الساحة إلى نهار.

ركم عمّي سيّارة التاكسي خلف مطعم البلدية في شارع فرعي، ثمّ اجتزنا الشارع نحو السينما، وكان هناك صور كبيرة لممثّلي الفيلم، وعجبتُ من الاكتظاظ الرهيب للبشر، البعض يدخل، والبعض يخرج، أغلب الموجودين من الشباب، بملابسهم الملوّنة، وسحناتهم السمر التي تختلف - تماماً - عن سحناتنا نحن أبناء القرى. أحسستُ وكأنني في عالم من السّحر، العربات، البشر، صور الممثّلين، رائحة السينما القادمة من عمق البناء، وكانت خليطاً من رائحة الطعام وعفن الصالات غير النظيفة وعطور الشباب القوية ورائحة الورق. هل كان لي - وقتها - رؤية المصير الذي واجه عمّي بعد عشرات السنين أمام باب تلك السينما؟ وهل خطر لعمّي تلك الساعة أنه سيكون له ابن، اسمه يوسف، سيُقتل معه في تلك الظهيرة البعيدة؟ بين صورتين لتلك السينما، عصفت بنا أهوال وأهوال، سرت ريح غبراء، وسالت دماء حمراء، تجمّعت سحب، وتبخّرت أحلام.

يُدخلنا عمّي الى الصالة الأمامية، ويمضي نحو اليسار، ويقطع لنا تذاكر للدخول، فيما نتجمّع نحن الثلاثة خائفين في زاوية المكان، يطغى علينا إحساس بالخجل والرهبة، كما لو كنّا قادمين على مغامرة رهيبة، لا نعرف نتائجها، الأمر الذي يجعلنا نصمت دون أن نتبادل الحديث عمّا يجري حولنا. سنصعد إلى الطابق الأعلى، يقول، وحجز عمّي لنا في الصالة العليا، صالة العوائل، وهي أغلى من الصالة الأرضية الرخيصة ذات المقاعد الخشبية الشبيهة بالمصاطب. أصوات هامسة، أو عالية تنطلق من مختلف الأمكنة والزوايا في الصالة، وقرقعة الأحذية وخرخشة الأكياس الورقية المعبأة بالحلويات والبزورات ولفّات البيض مع العنبة وأكياس الباقلاء المرشوش عليها البطنج. نداءات لأشخاص، يبحثون عن أصدقائهم، وضحكات عالية وحوارات مسموعة، لكنها غير مفهومة، وأضواء تتوزّع على محيط الصالات كلها، ناعمة خافتة، لا تكشف ملامح الوجوه. صالتنا

تطلّ على مستطيل أبيض أمامنا، أخبرنا عمّي أن اسمها الشاشة، وسيعرض الفيلم عليها بعد أن تنتهي أغنية أمّ كلثوم، فيما كانت الصالة السفلية مكتظّة بالروّاد من الأعمار كافّة. اختار عمّي لنا ثلاثة كراسٍ في الوسط، ولاحظتُ وجود بعض النساء في المقاعد الأمامية التي سمّاها عمّي اللوجات، وهي أشبه بالغرف الصغيرة مسوّرة حتّى منتصفها، وتسمح بخصوصية للجالسات؛ بحيث لا يتعرّضنَ إلى مضايقات الذُّكُور، لا يمكن رؤية سوى عباءاتهنّ، وتلك البقع البيض المتحرّكة المسمّاة وجوهاً.

وأخرج عمّي من جيبه كيساً من بزر القرع، وزّعه علينا، وبدأنا نفصفص البزر، بصوت مسموع، وننتظر عرض الفيلم. الفيلم أجنبي، همس لنا وسط العتمة. لكنه مترجم إلى العربي، ويمكنكم قراءة الترجمة أسفل الشريط. نلبث صامتين، فعمّي يحدّثنا بأمور، لا نعرف عنها شيئاً، ولم تمرّ سوى دقائق حتّى توقّفت الأغنية، وساد السكون. أظلمت السينما فجأة، خفتت الأصوات، ثمّ انطلق مثل رمح تيار من الضوء، وسقط على ذلك المستطيل، فتحوّل بقدرة خارقة إلى وجوه وعمارات ونساء وأنهار وبحار وخيول، تثير حولها الغبار، حتّى أوشكنا أن نسدّ أنوفنا من كثافة الغبار، وهمس لنا عمّي أن ذلك مقدّمات، والفيلم الرئيس لم يُعرض بعد، فتابعنا وضع عيوننا في الشاشة حابسي الأنفاس، متعرّقين من الترقّب والفضول.

بدأ الفيلم، وسقطتُ في سِحر غريب، وانفصلتُ عمّا يحيطني، وتحوّلتُ إلى مجسّات بصرية، تتابع ما يجري على الشاشة، ذلك السِّحر مَسَحَ من ذاكرتي ساعتين من الزمن، كنتُ - خلالهما - جزءاً ممّا يُعرض أمامي. حاولتُ أكثر من مرّة استعادة أحداث الفيلم، فلم أفلح. ورغم أنني لم أنسَ ذلك النهار الشتوي، ويحضر لي - بعض الأحيان - بتفاصيله كاملة، لكنني أخفق - دائماً - في تذكّر نوع الفيلم الذي عشناه وسط تلك الصالة المعتمة. كان لقطات متعاقبة من هجوم للهنود الحمر على مخيّم للجيش، ومصارعة رومانية عنيفة، حدثت في العهود الغابرة، ورجل أبيض يعيش في غابات أفريقيا، ورجلان من أصول هندية يتعاركان فوق قطار، يسير بسرعة فائقة، ومغامرات قرد كبير، يتقافز بين ناطحات السحاب، وانزياحات أرضية، تكشف عن مدينة مصنوعة من الذهب الخالص، عمائم لحكّام سالفين وسيوف تمتلك قوى سِحرية، ودبّابات تهجم في الصحراء على حصن من الحجارة، تتطاير صخوره حتّى تصل إلى المشاهدين في الصالة، ونساء يتبادلنَ القبل مع رجال أنيقين وسط حديقة غنّاء. ذلك كل ما تستعيده الذاكرة من مغامرتنا السينمائية تلك.

لقد فتح لنا عمّي رشيد ذلك اليوم باباً واسعاً إلى المدينة الفاضلة. آه، من ذلك الإرث الثقيل، المحسوب بالثواني والدقائق والساعات! ويا لتلك السنين، وذلك العالم الصغير الذي كنّا نعيش فيه! نتحول اليوم إلى فيلم سينمائي عالمي، فيلم تشاهده البشرية كلها، وتنقله أهمّ المحطات الفضائية، جموعنا تتشتت بعد أن نمنا طويلاً بين أحضان تلك القرية الوادعة، سنوات وسنوات، وها نحن نصبح ممثّلين مهمّين، لا نحتاج سوى جوائز الأوسكار، تعرض صورنا، ونحن نتدافع على الجسر الضيّق الممتدّ على نهر، باتجاه العاصمة مثل ضفادع، تسعى إلى بركة مياه. يعرضوننا كفيلم مشوّق على السي إن إن والبي بي سي والجزيرة والعربية والقناة الفرنسية الأولى وتلفزيون البرازيل الوطني، وعلى كل ما لا يخطر على بال من الفضائيات المنتشرة في أرجاء المعمورة. لم يكن فيلماً للرعب، أخرجه هيتشكوك، ولا فيلماً مثيراً لرومان بولونسكي، أو فيلماً لفيليني، أو بازوليني، كلا، كان خليطاً من الرعب، والغرائبية، والواقعية الفجّة، أخرجه فنان مجهول، لا نعرف حتّى اليوم اسمه، وما الغرض من إخراجه وتسويقه على هذه الشاكلة. الوحوش كانوا هم المنتجين، والتسويق غطّى العالم كله، بفضل وسائل الاتصالات الحديثة والثورة المعلوماتية، فمصطفى يقطن في مدينة زوجته مع ابنه أحمد، وجد بيتاً رخيص الإيجار قرب عائلة زوجته. وماهر وأسرته حملهم الموج إلى مدينة الجبال الشرقية، مدينة السليمانية، وأنا أقطن في ظلّ هذه القلعة التاريخية التي تشرف على ساحة النافورات، وأخي أحمد مع أمّي استأجر بيتاً في إحدى مناطق العاصمة. عائلة عمّي تقطن في المدينة المجاورة.

بيتنا تحوّل إلى غرفة عمليات تلفونية، لتتبّع أخبار مَن نعرفهم، ورافقونا في رحلة النزوح من القرية. تلفونات ترنّ في الصباح الباكر، وتشيع الرعب في أوصالنا من خبر مؤلم، وفي وقت الغداء، عندما نكون مجتمعين على المائدة، نستمتع بطبخة من طبخات نادية، وعند منتصف الليل في الوقت الذي أتأهّب فيه لاسترجاع تلك الحياة الملوّنة؛ كي أكتبها بحالات نفسية متوتّرة، تصل بعض الليالي إلى تلوين الحروف بدموعي. رنين لا ينقطع. اتصالات تنقل لنا الأخبار بالتفاصيل، وتسأل عمّن مرض، أو مات، وعمّن وجد عملاً، أو سَكَنَاً، وهي تلفونات، تجد فيها زوجتي نادية تسلية وعقاراً للوحدة التي تعيشها بعد أن غادرت ذلك البيت الواسع بأشجاره، وتنوره، وثيله، ومساءاته الرطبة، وحكايات نسائه الممتدّة في الزمن حتّى القرن الماضي.

الزمن غرفة مظلمة، يصعب رؤية محتوياتها، والمستقبل في ضمير الغيب، وأدقّ تخطيط له يمكن أن يلاقي إخفاقاً ذريعاً، خاصّة في هذه المنطقة الرابضة على طبقات زلزالية، عمرها آلاف السنين، ويمكن لها أن تتحرّك، وتقلب الدنيا عالياً سافلاً، في أية لحظة. أفكّر بتلك البنت الصغيرة التي كنتُ أراها تلعب التكيّة مع رفاقها أمام البيت، بجديلتها البنّية، وعينيها الزرقاوين مثل بحيرتنا، مثل نهرنا في الصيف. البنت نادية التي كانت تختبئ في غرفة الزمن، من أجل أن تصبح زوجتي بعد عشرات السنين.

نعم، فتح لنا عمّي باب الخيال واسعاً حتّى صرنا مُدمني سينما؛ أي مدمني أحلام، فتلك البوّابة تقودنا - دائماً - إلى قرى بعيدة، وجبال، وبحار، ومُدُن عملاقة، وغرائب كونية، تجري بعيداً عنّا، وكنتُ كلّما شاهدتُ فيلماً جيداً، أتذكّر قول جدّي إن السينما باب، يلجه الفاسدون وسرسرية البشر. قبل أن ينتقل أخي مصطفى إلى العاصمة؛ ليدرس اللغة العربية في الجامعة، تعلّمنا - إضافة إلى السينما - لعبة الدومينو، والجلوس في المقاهي، ومغازلة البنات، والتلصّص على جيراننا، وقراءة الجرائد. تعلّمنا الذهاب إلى المكتبة الوطنية الواقعة جنب الحديقة العامّة للمدينة، عند حديقة الملاهي؛ كي نقرأ، ونقرأ، ونقرأ، ثمّ نعود منهكين إلى بيتنا الصغير المظلم. البيت الذي تحوّل إلى خلية للنقاشات، والحوارات الصاخبة، والتمرّد على كل ما تعلّمناه في القرية.

# الفصل التاسع

زواجي من نادية غيّر حياتي، بشكل جذري؛ إذ انتقلت بعد ليلة الزواج، الزواج الكئيب، وكان الأكثر حضوراً في تلك الليلة، هو أخي بشير، إلى مكاني السابق، وفضّلتُ أن أبقي على فراشي في المضافة، ولم أنمْ في فراش نادية تلك الليلة. بقيتُ ساهراً بعد انفضاض الضيوف، مع علي ومريم حتّى حان موعد النوم. توجّهتُ إلى فراشي كئيباً خجلاً، كطفل يتلعثم بالحديث، ونامت نادية في غرفتها دون أن نتبادل الكلام. قالت لي في الصباح أرغب في زيارة قبر المرحوم، ولمستُ في تعابير وجهها مشاعر خجل، وإحراج، وربّما تأنيب ضمير، من مضيها في الزواج، وحين تناولنا الفطور، ذهبنا بالسيّارة إلى المقبرة، وركبتْ مريم معنا، وقرأنا الفاتحة على القبر، وجلستْ نادية أمام الشاهدة البسيطة، بينما فضّلت الابتعاد عنها، ودخلتُ بين القبور أتأمّل في الشاهدات، بعضها اندثر، وانمحى، والبعض ما يزال واضحاً، ولاحظتُ أن معظم الشاهدات قبل الثمانينيات زالت عن مكانها، أو مُحيت كتاباتها، بفعل المطر والريح. بعض الأموات رحلوا عن الحياة حين كنتُ أعيش بعيداً عن القرية، وشعرتُ بأن لكل اسم قصّة ما تزال تعيش في داخلي؛ إذ عشتُ مع البعض منذ الطفولة، وظلّتْ أصواتهم تتردّد في مسامعي، والبعض من الشيوخ - بالكاد - أتذكّرهم مثل المرحوم محمود ملا خضر مختار القرية الذي وقفتُ أمامه قبل عشرات السنين في المركز الصحّي، وكان جالساً مع المضمّد عبد، وهو يسألني عن عمّي رشيد.

لا أستطيع تخمين الحديث الذي دار بين نادية وبشير، لكنني لاحظتُ عند رجوعنا أن وجهها يشعّ بالرضى والراحة، ويمكنني أن أتخيّل أنها شرحت له الظروف التي دفعتها لقبول الزواج مني، تحت ضغط عمّي رشيد، والعائلة الكبيرة، ولم تتطرّق إلى أيّ فكرة، لها علاقة بالعاطفة، أو الإعجاب بين ذَكَر وأنثى. لقد مرّ حَدَثُ زواجنا سريعاً، وأصبح جزءاً من يوميات القرية، بل وتلاشى من مجالس النساء، ففي الأسابيع اللاحقة، انشغل الجميع بتكوين مجاميع الصحوة، بما في ذلك عمّي رشيد، وتضامن شيوخ قبائل مع تنظيمات كانت تقاتل الأميركان، باعتبارهم محتلّين، ينبغي طردهم بقوّة السلاح، ووجوه اجتماعية بارزة، بينهم أطبّاء

ومهندسون ومقاولون وتجّار وشيوخ دين، واتّفقوا على تسليح أبناء العشائر، وإدخالهم الشرطة المحلّية، ولم تنقض نهاية السنة حتى تمّ طرد الوحوش الصغار من المدينة وقراها، امتداداً نحو الغرب، وصولاً إلى الحدود الدولية، وأطلق عمّي مقولته الشهيرة التي تداولها الناس حتى اليوم؛ حيث قال: الأميركان يمكن التفاهم معهم، هم محتلّون، وسيرحلون آجلاً أو عاجلاً، أمّا هؤلاء الوحوش؛ فسيقضون علينا جميعاً، لو تمكّنوا من الأرض.

كنتُ أفكّر بذلك كله، وأنا جالس ليلاً في غرفتي، في محاولة هادئة مع نفسي لاستخلاص حكمة ما، ممّا جرى لنا في السنوات الأخيرة. لا يمكن تغيير الماضي، لكنّ؛ يمكن استعادته على شكل ذكريات مَبنية على حوارات، وتعابير، ومشاهد، وأحلام، وقصص، الموت لا ينفصل فيها عن الحياة. عصراً، وحين كنتُ أجلس كعادتي في ساحة النافورة أمام القلعة، توهّمتُ لوهلة أنني رأيتُ أخي مصطفى، يتجوّل بين المارّة، وكأنه يبحث عن شخص ما، الهيئة نفسها، والوجه الدائري السمين، والبنطال الواسع النازل إلى حذائه، ويدلّ على إهمال واضح، وكدتُ أن أنطّ من مكاني؛ لكي ألتقيه، ولكنه، أو الشخص الذي يشبهه، سرعان ما غاب بين الحشد، وأيقنتُ أن الرؤية ليست سوى تهيّؤات وخيالات. لكنّ؛ عند رجوعي إلى البيت، ظلّ مصطفى يخطر في ذهني حتى ساعة متأخّرة من الليل. وأنا في مثل هذه الحالات، أؤمن أن ثمّة شيئاً جرى له، أو أنه يفكّر بي مثلما أفكّر أنا به. هاجسي ذاك لم يخب؛ إذ قبل أن أنام، رنّ هاتفي، وكان مصطفى على الخط: آه، يا أخي، عن ماذا أحدّثك، والدنيا ظلام في عينيّ، وأنا أعدّ الأيام للرجوع إلى داري، اشتقتُ إلى حديقتي الصغيرة التي كنتُ أزرع فيها السلق والبصل والكرفس، وأجلس فيها عصراً على كرسيي ممتصّاً مبسم الناركيلة، كما لو أنني كسرى في إيوانه، الغربة مُذلّة، لكن الوحوش لم يتركوا لنا خياراً، أنا أختنق في هذه المدينة، وأنت تعرف السبب.

واستمرّ يحدّثني بصوت راعش غريب، وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة. نام أهلي، وساد السكون في البيت، ورحتُ أفكّر بأخي، وما الألم الكبير الذي يدفعه للنواح على هذه الشاكلة. كلام غير مترابط، دعاني إلى أن أخمّن أنه سكران، وقد اعتاد شرب البيرة، كلّما وجد إلى ذلك سبيلاً، واستطاع توفير عدد من العلب بصورة سرّيّة دون شك، فالبيرة ممنوعة في تلك المدينة التي يعيش فيها. ما الذي حدث؟ سألتُه، وكنتُ أفكّر بأنه

يمتلك - حتماً - أخباراً مزعجة، دعته للاتصال في هذه الساعة. صوته الراعش، الصمت المتكرّر بين الجمل، ونبرة النواح في كلامه، كلها علامات على أخبار سيئة، وصلته، ولم يعد يطيق كتمانها: ألا تعلم ما الذي حصل؟ كلا، خبّرني، قلبي يشير إلى كارثة. حاولتُ أن يكون صوتي خفيضاً؛ كي لا تفيق نادية من نومها. لم يجلب لنا هؤلاء سوى البؤس. كان لدينا دولة، ولدينا جيش، ولدينا أمان، لكنهم حظموا ذلك كله، أحفاد كولومبس. انظر، أين وصل بنا الحال. لقد فجّروا جسر طارق اليوم، قال لي باكياً. كيف عرفتَ؟ هل تتعاون مع الوحوش؟ ابقَ على هذا الوَهم، الوحوش جزء من هذا الخراب الذي جلبوه لنا. حدّثني بما حصل. لغّموا جسر طارق، وفجّروه، وقد سُمع الانفجار على مسافة عشرات الكيلومترات، يرغبون بعزل القرى بعضها عن بعض؛ كي لا تُباغتهم قوات الجيش. لا يدركون أنه لم يعد هناك جيش، هربوا منذ أن سلّموا القرية دون قتال. لا أستغرب، فهؤلاء لا يتورّعون عن فعل أي شيء. لقد أصاب عمّي كبد الحقيقة حين أطلق عليهم اسم الوحوش.

هناك المزيد، قال بعد فترة صمت، وبدأتْ دقّات قلبي تتسارع، وخشيتُ من ارتفاع الضغط فجأة، ونحن في أزمان، لا ننتظر فيها أي خبر سارّ، لقد تفرّقنا شذر مذر، وتحوّلنا إلى فضيحة عالمية. هل تتذكّر بيت خالي؟ أجل. حوّلوه إلى مستشفى ميداني، وقد قصفت البيتَ طائرةٌ أميركية، فساوته بالأرض. رأى الطيار تجمّعاتهم في ذلك البيت، فظنوا أنه قاعدة عسكرية للوحوش. صمت مصطفى، وأنا أخمّن أن لديه المزيد، فتابع متعتعاً من السُّكْر: بيت أخيك أحمد كتبوا عليه كلمة مسلم. بيت عمّي رشيد كتبوا عليه كلمة مرتدّ، ثمّ أحرقوه. لقد ذهبت تلك الأبّهة، كما لو كانت سراباً. تخيّل بلحظة واحدة، التهمت النيران جهد عمّي وعَرَقه طوال سنوات، السجّاد، التحفيات، الكراسي والطاولات، نضد الفرش، الخزائن الخشبية، وغيرها وغيرها، اختفت من ذلك البيت، ولم يتبقّ سوى الجدران. وهكذا صنّفوا معظم البيوت. المستوصف الصحّي فجّروه أيضاً، ومضافة المختار حسن حوّلوها إلى تراب، جلبوا جزّافة، وصنعوا من المكان ساحة، انتقاماً من المختار أولاً، ولكي يطمسوا - ثانياً - المكان الذي التقى فيه الجنرال الأميركي ديفيد بترايوس مع وجهاء القرية قبل سنوات، هؤلاء الملاعين لديهم ذاكرة شرّيرة، لا تُنسى. وجثمان عمّي، هل لديك فكرة عمّا حصل له؟ مَن يعلم؟! ضاع عمّي، كما ضاع الوطن..... صمت التلفون بغتة، إمّا بسبب انقطاع الشبكة، أو لأن مصطفى لم يعد يستطيع مواصلة الكلام.

تمدّدتُ على سريري القريب من النافذة، وبدأتُ أستعيد صورة مصطفى الملتبسة، وأول ما تبادر إلى ذهني الشك من أنه كان فرحاً لما يجري لنا، أو أنه كان متشفّياً؛ لأن الأحداث التي حصلت لنا لم تكن بعيدة عن توقّعاته. معظم الحوارات التي خضناها سوية، قبل أن يحتلّ الوحوشُ القريةَ، تتلخّص في محاججة مستميتة حول الخطأ الكبير، والجناية الوطنية، للوقوف مع جيش محتلّ، مهما يكن سلوك الحاكم. هل أسقطتُم الحاكم، بجهودكم، كلا، جئتُم مع جيوش أجنبية مدجّجة بآخر ما أنتجته التكنولوجيا الغربية، جئتُم على ظهر دبّابة، وتعتقدون أنكم محرّرون؟ كنتُ عادة ما أجيبه أنني جئتُ من دمشق، بواسطة سيّارة جمسي، فيبادرني بالردّ لا أقصدك أنتَ، إنما أقصد مَن دخلوا مع مئات الآلاف من الجنود ومئات الطائرات ومئات الدبّابات، والآن تتحمّلون مسؤولية تاريخية لما يجري لنا، لقد دُمّر كل شيء، ولم نصل الجنّة الموعودة التي وعدتمونا بها.

استرخي على السرير، في غمرة الصمت؛ لأتأمّل في صوت مصطفى الذي جاءني من بعيد، من مئات الكيلومترات. استرخي في غيبوبة الزمن؛ ليسحبني مثل موجة عاتية في نهرنا الخالد أيام العواصف، إلى تلك المكالمة المفاجئة التي جاءتني بغتة، وأنا أحدّق في شاشة التلفزيون. كانت شبيهة بتلفون مصطفى، مباغتة، قاسية، وتستدعي التأمّل. قبل سنوات طويلة غاصّة بالتحوّلات والانتقالات والأحداث. هل الأرق المستولي عليّ هو ما جلب وجه ريم إلى عقلي من ركام تلك الأحداث البعيدة؟ تجلّت لي مثل واحة في صحراء من الرمل، إلا أنها واحة من سراب. أحياناً يختصر لنا الأرق سنوات غنية، بساعات فقط. الأرق الذي صار جزءاً من وجودي. أحسّ بعض المرّات، وكأن الأرق عقوبة على هناءات سابقة. ولا يحضر في مخيّلتي سوى هناءات ريم. قد تكون هي الهناءات اليتيمة التي عشتُها في حياتي. ذلك الماضي اللعين. تلك السنوات التي كنتُ فيها ممتلئاً بالحيوية والأمل. تلك السنوات التي كان لون شعري فيها أسود مثل جناح الغراب، كما يقولون.

كانت قناة الجزيرة في بثّ مباشر، مرتبك، وصوت المذيع ينتقل من مدينة أميركية إلى أخرى، وتصوير حيّ لناطحات السحاب، والبنتاغون، وسماء نيويورك وواشنطن، وطائرات ترتطم ببناية تكاد تنطح الغيوم. كل شيء كان مفاجئاً، كما لو كان فيلماً، تمّ تصويره في هوليوود. هاتفني ماهر من دمشق. وكنتُ أجلس في بيت ريم، الواقع في منطقة جرمانا، مشدوداً إلى التلفزيون، غير مصدّق ما يُعرَض على الشاشة. ما الذي يجري في هذا

العالم المجنون؟! تعرّفتُ على ريم في نادي الرواق، وهو ناد للفنّانين التشكيليين، في مساء صيفي، قبل سنتين تقريباً، من أحداث برج التجارة العالمي المشتعل على الشاشة. في ذلك المساء، صادف أنني كنتُ أجلس على طاولة، تقع في طرف المكان القريب من الشارع، كنتُ أجلس وحدي منكبّاً على رواية ابنة الضابط لبوشكين، وكانت من إصدارات دار التقدّم، اشتريتُها من كُتُب الرصيف الواقعة تحت جسر الرئيس، وكنتُ - وقتها - منغمراً بقراءة الروايات، الروسية خاصة، وكان صوت فيروز ينتشر في الفضاء، والطاولات حولي مكتظّة بالروّاد، الذين يحتسون البيرة، ويدخلون في نقاشات حادّة حول الفنّ التشكيلي والشعر، وما يجري في العالم، ورائحة ورد الجوري المزروع في الزوايا تفغم الأنوف، وتفتح مسامات الأرواح الحائرة.

وعلى حين غرّة، شعرتُ بظلّ امرأة يخيّم على طاولتي، ثمّ سمعتُ صوتاً ناعماً يخاطبني بابتسامة صغيرة ودودة: هل يمكن الجلوس على الطاولة؟ امرأة طويلة، ترتدي الجينز، شعر ذهبي يتهدّل على وجهها الأبيض النحيف، المضاء بعينين ناعستين صفراوين. ولاحقاً، حين عرفتُها جيداً، كانتا تميلان إلى الزرقة الخفيفة في ضوء الشمس الساطع. ورغم أنني أرتاد المكان مرّة في الأسبوع على الأقلّ، وحدي أو مع بعض الأصدقاء؛ كي أحتسي البيرة، إلا أنني لم أرَ تلك المرأة سابقاً، ولوهلة قصيرة، وسريعة، شعرتُ بالغرابة من طلب امرأة وحيدة الجلوس مع شاب يجلس وحده هو الآخر. قدرّتُ أن عمرها لا يتجاوز الثلاثين، ورغم الابتسامة التي ظلّت على شفتيها الرفيعتين، إلا أن غشاوة من الحزن تترسّب في ملامحها القريبة من الشقرة. وكي تبرّر طلبها الغريب ذاك، واصلت حديثها معي قائلة: الطاولات كلها مشغولة، ووجدتُ أنك تجلس وحيداً، وثمّة كراسٍ شاغرة هنا، ولاحظتُ قليلاً من الارتباك والخجل في عينيها الصفراوين، فقلتُ لها بسرعة، كما لو كنتُ أخشى من تراجعها عن الجلوس على طاولتي، تفضّلي، تفضّلي، وكدتُ أن أنهض من مكاني؛ كي أرتّب لها واحداً من الكراسي المجاورة لي، إلا أنها بادرت إلى سحب كرسي شاغر، وجلست مقابيلي مطلّة على بناية النادي، بشكل موارب - تقريباً - عن وجهي، كما لو كانت توحي لمعارفها أنها تجلس صدفة معي، وليس هناك ما هو خاص بيننا.

سحبتُ كرسياً ثانياً، ووضعتُ عليه حقيبتها النسائية الصغيرة، وهي تنقل عينيها بين الطاولات، فهجستُ أنها تفتّش عن شخص بعينه، لديها

موعد معه. في المساحة الضيّقة بيننا، تسرّبت إلى أنفي رائحة أنثوية ناعمة، تنسج خيوطاً غير مرئية لجَذب الذَّكَر بنعومة إلى جهتها. جلستُ مرتبكاً، ورفعتُ وجهي عن الكتاب، وأمسكتُه نصف مفتوح دون أن أعرف ما هو التصرّف الذي ينبغي عليّ القيام به. هي - أيضاً - جلست بارتباك، تنقل عينيها بيني وبين النادل المنشغل بطاولة أخرى قريبة، ومرّت علينا فترة قصيرة من الصمت، الصمت المربك، فلا أنا أعرف كيف أزيل الصمت، ولا هي، كوننا لا نعرف بعضنا البعض سوى هذا المساء. أنا ريم، صحافية، بادرت هي، بجرأة، لم أتوقّعها. سلام، أنا سلام من العراق الشقيق، قلتُ مازحاً في محاولة لكسر الحواجز بيننا، وشعرتُ بأن لفتتي تلك كانت ناجحة؛ حيث بدأت ريم تضحك بدهشة، وتألّقت عيناها بتعابير جذلة، فواصلتُ أنا قائلاً: لكنني لستُ كاتباً، ولا صحافياً، ولا فناناً، أنا أحبّ قراءة الروايات فقط. لماذا الروايات فقط؟ من هذه اللحظة بادرني شعور أن ريما ترغب في الدخول بحديث عميق معي، ولأنني التقطتُ هذا الخيط، بدأتُ أسهب بتفسير ذلك، مع دسّ كل ما يجذب فضول المرأة حول شخصي ومزاجي وذائقتي، وصولاً إلى دسّ نتف من حياتي الشخصية ضمن ذلك الجواب.

في القرية التي نشأتُ فيها، وتقع على ضفّة الفرات، لم يكن للمزارعين والفلاحين والبدو والعابرين من تسلية سوى الحكايات، ولم يكن من سبيل للتعبير عن الخوف والأمل والحزن سوى الحكايات والأمثال، ترنيتُ في هذا الحيّز، وسَكَنَني، حتى آمنتُ أن الحياة نفسها ما هي إلا حكايات متشابكة، ومترابطة، ومتفرّعة، ومتوالدة مثل ألف ليلة وليلة، قرأتِ ألف ليلة وليلة، يا ريم، أ ليس كذلك؟ طبعاً، طبعاً، كان أبي يمتلك نسخة قديمة لأجزائها كلها، نسخة قديمة صفراء الورق، وحين مات أبي، لا أعرف كيف اختفت من مكتبته، قالت بنبرة حزينة، كما لو كانت تتذكّر أباها البعيد القاطن في مقبرة قرية من قرى الساحل السوري. كما يقول أجدادنا في أمثالهم: الحديث ذو شجون، وتلك الشجون تفرّعت، وتشعّبت في ذلك المساء، مع تعاقب قناني البيرة البردى، ولفافات التبغ، وصوت فيروز الشجي الذي يتنقّل من أغنية إلى أخرى، وانتشار سِحر الرائحة القادمة من بتلات الورد والياسمين القريب في أزقّة المكان المحيط.

تبادلنا، في ذبذبات الأضواء الخافتة المدسوسة في زوايا المكان، وتُحوّل الجالسين إلى مجموعات شمعية متحرّكة، تتبادل الهمس والنداءات والضحكات والقفشات، تبادلنا أنا وريم التلفونات، ووعدتُها

بإعارة رواية ابنة الضابط لبوشكين بعد الانتهاء منها. وصل كلانا إلى قناعة غير معلنة، إلى أن هناك مساحات مشتركة كثيرة بيننا، وأننا نعرف بعضنا البعض منذ أزمان سابقة، كما لو كنّا عبدين مخلصين لدين التقمّص. وريم تسكن في بيت صغير مع ابنتها هيام، وهي في السادسة من العمر. مطلّقة، قالتها بصراحة، وتعيش من الكتابة بالقطعة لبعض الصحف والمجلات، وتقرأ الرواية مثلي، وتطمح إلى كتابة رواية ذات يوم؛ لتصبح مشهورة مثل أحلام مستغانمي، وفرجينيا وولف، وأنانيس نن، وإيزابيل اللندي. كنتُ أسكن - وقتها - في منطقة الدويلعة، لدى امرأة مسيحية عجوز، تؤجّر قسماً من غُرف بيتها للغُرّاب، من أمثالي، تقع الغرفة في الطابق الأول، صغيرة - بالكاد - تكفي لسريري وملابسي وحاجاتي الشخصية القليلة، التي جلبتُ أغلبها من سوق الحرامية الواقع قرب جسر الثورة، ليس بعيداً عن أشهر ساحة في دمشق، ألا وهي ساحة المرجة. منذ أن سكنتُ هذه المدينة، عملتُ في مختلف المهن؛ كي أعيش، عملتُ في بيع الصور والمناظر على رصيف مقهى الهافانا، وعملتُ في ترميم البيوت أجيراً، وحاولتُ مرّة أن أصبح فدائياً في واحد من المعسكرات الفلسطينية في منطقة تلفيتا، فطردوني بعد أسبوعين، بسبب كسلي وآرائي غير المنضبطة، وسجّلتُ نفسي في منظّمة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، كوني معارضاً سياسياً، وشاركت في سفرات للعراقيين المقيمين في هذه المدينة، إلى الزبداني والغوطة ومعلولة وتدمر، ولكن الوقت الأكبر الذي كنتُ أقضيه خلال سنواتي الطويلة هو الجلوس في مقهى الروضة، والتمتّع في شرب الشاي والتدخين وقراءة الصحف، اللبنانية خاصّة، ثمّ الروايات العالمية. صلتي الوحيدة مع العالم حين أؤوب إلى غرفتي، هو تلفون مؤجّرتي الأرضي؛ إذ سمحت لي بإعطائه لمعارفي؛ ليتصلوا بي في الأحوال الطارئة، لكنْ؛ لحدّ الساعة التاسعة ليلاً فقط، وحين دخل التلفون الموبايل، اقتنيتُ واحداً بحجم باكيت السجائر، وظلّ هو الرابط الوحيد بهذا العالم المتحرّك حولي، وظلّ النافذة الوحيدة التي ستزفّ لي خبراً مفرحاً، وهذا ما كنتُ أنتظره، كلّما عدتُ إلى غرفتي، وأطبقتُ على روحي الباب الحديدي الصغير؛ لأعيش في زنزانة مكتظّة بالخيالات والأحلام.

وإذا كان الماضي يشكّل عبئاً على المغتربين عن ديارهم، وهذه حقيقة، عشتُها ردحاً من الزمن، فهذا ما دعاني إلى غلق ذلك الشريان الذي يربطني بأهلي وقريتي، ورحتُ أعيش ليومي فقط، أفتّش عن المسرّات حتّى في التفاصيل الصغيرة والملذّات المتواضعة، كشراء رواية لبوشكين، اسمها ابنة الضابط، على سبيل المثال. التقينا أنا وريم أكثر من مرّة في نادي

الصحافيين، ونادي الفنّانين، ومطعم المحاربين القدماء، ومقهى النوفرة؛ حيث تعلّمتُ منها تدخين الناركيلة، وتجوّلنا في سوق الحميدية، وقضينا أوقاتا سعيدة في أزقّة دمشق القديمة، نترصّد النوافذ المخرّمة، والنقوش الممسوحة، والديكورات العتيقة الموروثة من عهود سابقة، لننتهي بعض الليالي في حانة صغيرة منزوية تحت العقود الطابوقية للأبنية. لكنني وجدتُ أن اللقاء في أماكن مثل تلك مُكلف، ولا يتناسب مع وضعي المادّيّ المزري، وكذلك مع وضعها المادّيّ المرتبك أيضاً، الأمر الذي جعلنا نكتفي - لاحقاً - باللقاء في بيتها، بيتها المُستأجَر في بناية نصف مكتملة، خفّف من تكاليف الإيجار عنها.

أتذكّر جيّداً المرّة الأولى التي زرتُها فيها إلى البيت، تلك الساعة التي لا تُنسى. واعدتني في الليل، بعد العاشرة، وكان الموعد غريباً، لكنها أوضحت لي - لاحقاً - السبب وراء ذلك، فهي تخشى تقوّلات الجيران، إذا ما زارها رجل وحده، ولأن جيرانها معظمهم كادحون وموظّفون صغار، قالت، فهم ينامون باكراً، من أجل النهوض إلى العمل. أعطتني العنوان بدقّة، وحين صعدتُ الدرج غير المَكسي، كون البناية تحت الإنشاء، لم أجد بيتاً مسكوناً سوى بيت ريم. في الوقت المحدّد، وصلتُ باب الشقة الذي وجدتُه مفتوحاً. ريم غائبة، والصمت طاغ، وقلبي يدقّ، ورائحة ريم تملأ البيت، تلك الرائحة ذاتها التي شممتُها في أول يوم لتعارفنا. الأضواء مطفأة، لكن نوراً خفيفاً متأرجحاً يتناوب على عتمة المدخل، وهذا ما شجّعني للدخول، وسمعتُ صوت ريم الخدر، من عمق غرفة داخلية، يطلب مني الدخول، وما أذهلني وجعلني أقف مثل صنم ذلك الممرّ الضوئي المصنوع من شموع، وقد بثّه ريم من فسحة الممر حتّى غرفة النوم. هل أنا في مشهد من قصص ألف ليلة وليلة؟ وهل وقعتُ في حبائل جارية من جواري بغداد، أمضّها العشق، وتاقت إلى لقيا الحبيب؟ أ تكون جناناً، أو حبّابة، أو ميسا، أو ختاما؟! أ يمكن أن أكون أنا الرشيد، وقد تاه في ليل ملكه؟ شموع بيض، تصنع ممزاً خيالياً مفاجئاً لقروي مثلي، يقود إلى سرير موضوع على الأرض؛ حيث وجدتُ ريم مستلقية هناك، وهي تنام على وسادة ملوّنة ذات ألوان متوهّجة. كدتُ أن أغيب عن الوعي. معظم الروايات التي قرأتُها في حياتي لم تخبرني عن مشهد مثل ذاك. مشهد مبتكَر، لا أعرف من أيّ واحة خيالية، جلبته ريم إلى بيتها.

في عمق روحي نبع شعور بالصغار، صغار ذُكُوري، لم يألف طوال حياته هذا الدلّ والغنج والجرأة لأنثى، ترتدي قميصاً طويلاً، بلون وردي، وتكشف

في أثناء استلقائها عن فخذين بضّين أبيضين، كأنهما منحوتان من المرمر. ضوء الشموع أحال اللحم المرسوم على هيئة جسد أنثوي إلى صورة نادرة، إلى جنّية، لا تنتمي إلى هذا العالم. منذ تلك الليلة، منذ ذلك المشهد الشبيه بالحلم، التصقت حياتي بريم، وفهمتُ منها - بعد ذلك - أنها وضعت ابنتها لدى صديقتها؛ كي تُتوّج صداقتنا بليلة العمر، كما سمّتها. أ تعرف، أنا أنسحر بالأشخاص الذين يمتلكون تجربة؟. قالت لي ريم ذات يوم. هل تعتقدين أنك انجذبتي لي؛ لأنني أمتلك تجربة؟ هل يظهر ذلك على وجهي؟ كيف استطعت الوصول إلى هنا؟ باغتتني ريم بذلك السؤال. عن طريق عمّي رشيد. أجبتُها، فلم تفهم جملتي، وظلّت عيناها تحدّقان في وجهي، مما دعاني لأن أكون صريحاً معها. لقد شجّعني عمّي على الخروج، بعد أن وضعتني أجهزة السلطة تحت المجهر، وخفتُ من الاعتقال، أو التصفية. ولأن عمّي يمتلك علاقات واسعة، كونه صار مقاولاً، وله معارف في أغلب المُدُن، أوصلني ذات يوم بسيّارته إلى القائم، وهي بلدة حدودية بين العراق وسورية، وعرّفني على مهرّب، يقيم قريباً من الحدّ، يهرّب الدخان والمواشي والبضائع المرغوبة، ثمّ وضع بيدي منّتي دولار، وقال لي انطلق، دبّر نفسك، وهي قصّة طويلة، لا أرغب بالحديث عن مرارتها، وأحسستُ تلك اللحظة كما لو أن الدموع توشك أن تطفر من عيني، فسكتُّ، ولاحظتُ التأثّر في وجه ريم وعينيها. نحن العراقيين كل واحد فينا رواية، وفي يوم ما، سأقصّ عليكِ رحلة عبوري القائم، ووصولي إلى دمشق بحذافيرها.

لم أعد قصّة هروبي على مسامع ريم مرّة أخرى، وفضّلتُ أن أعيش لحظات المتعة والعلاقة العاطفية الجميلة مع ريم، على استعادة تلك المرحلة المؤلمة من حياتي. انجذابها للرجال الحزانى، ممّن عاشوا تجارب مؤلمة، وعبروا ظروفاً قاسية، فسّرته، وحسب ما عرفتُها بعض المعرفة، بالتجربة القاسية التي مرّت بها هي نفسها، خلال مراهقتها؛ وبعد ذلك الفظاظة التي عاملها بها زوجها بعد ذلك، وسنوات التشرّد التي عاشتها قبل أن تجد طريقها في الحياة، بمساعدة أصدقاء كثيرين، وصديقات، لم تذكر لي أسماءهم. تورد بيوتاً في مخيم اليرموك والزاهرة وباب توما ودمر البلد وغيرها من أماكن، وتقول إنها عاشت مثل شحّاذة في تلك السنوات السود من حياتها. نعم، وسط ذلك العالم المجنون، وفي بيت الأحلام ذاك، بعد سنتين من تعارفنا في نادي الرواق للفنانين، وفي الصالون الصغير الذي وضعت فيه ريم التلفزيون على منضدة من الزجاج، كنّا نحدّق، مذهولين، بالهجوم الصاعق للطائرات على المباني الأميركية، وحسبنا المشاهد واحدة

من خدع هوليوود، لكنها لم تكن خدعة، هناك أمر يدور في العالم، ولا ندرك حجمه، لذلك حين دقّ التلفون وجاء صوت ماهر إلى أذني، حسبتُ أنني لم أزل في الحلم ذاته.

ما أعرفه أن ماهر يعمل في مدينة صبراتة الليبية. كيف وصل إلى دمشق، إذن؟ نعم، لقد كتبتُ له تلفوني في واحدة من رسائلي، لكنني لم أتخيّل مفاجأة بهذا الحجم. قال لي أنا في مقهى، تُسمّى الروضة، وقد سألتُ عنك بعض جماعتنا، ويقصد مَن كان جالساً في المقهى من العراقيين، فأخبروني أنك لم تظهر في المقهى هذا اليوم. وضّحتُ لريم الموقف، وقلتُ لها إنني سأغادر إلى المدينة، ابن خالتي ينتظرني، جاء من عمّان؛ ليراني، فوافقت، وعرفتُ دون كلام أنني لن أنام الليلة في سريرها، كما اتفقنا. وجدتُ ماهر جالساً في الفسحة الداخلية للمقهى. حقيبته الصغيرة جنب الطاولة، ويجلس معه واحد من أصدقائي القدامى، صادف وجوده في المقهى تلك الساعة. آه، لتلك السنين، وآه، لحياتي التي انتهت في هذه المدينة البعيدة عن مسقط رأسي، مَن كان يتصوّر ما حدث لاحقاً؟ ومَن كان يتخيّل ما وصلته بنا الأحداث بعد سنتين فقط لا غير؟ أية مخططات شيطانية أوصلتنا إلى ما نحن فيه، وأيّ سنوات عجاف، كنّا نغذّ إليها الخطى مثل عميان، وسكارى أيضاً، في تلك المتاهة تحت الأرضية؟

لقد فجّر لقاء ماهر كل ينابيع حنيني إلى أهلي، وبعث من سرداب عميق جميع الوجوه التي عرفتُها، الأسماء البعيدة الغافية في تلافيف ذاكرتي، قصص قريتي المتربّعة على كتف النهر، وعلى كتف الصحراء، لا فرق، إزالة آثار الماضي مهمّة مستحيلة، لقد ذهب الجهد الكبير الذي بذلتُه من أجل النسيان إلى الهاوية، ودون أية إرادة مني طفرت الدموع من عيني، وسالت على وجهي، وأنا أعانق ماهر، مرّ أكثر من عشر سنوات على فراقه، عشر سنوات، تركت على ملامحه آثارها الواضحة. من خلال رسائله، قبل لقائه، عرفتُ أنه تخرّج في كلّيّة الهندسة، ولكونه من المغضوب عليهم، كما كنّا نصف اليساريين والشيوعيين وغير المنتمين إلى حزب، خدم ماهر في واحدة من قواطع القتال الجنوبية، نهاية الحرب، وعبّر عن ذلك بجملة بليغة في واحدة من رسائله: وضعوني خلف ساتر القتال، من دون سلاح، كما لو أنهم يدفعونني من ظهري إلى القتل، هم لا يثقون بي مقاتلاً، لذلك حرموني من حمل السلاح، للدفاع عن نفسي. كتب لي من صبراتة التي عمل فيها مدرّساً في واحد من المعاهد الفنية، أنه قضى السنوات الأخيرة في كابوس حقيقي، أينما يذهب، تتسلّط عليه نظرات الاتّهام، وفي كل

مكان، حلّ فيه كان يتوقّع مداهمة رجال السلطة لتصفيته، أو زجّه في السجن، أو على الأقلّ للاستجواب. كبر ماهر، وبان الشيب في فوديه، وترهّل وجهه، وغارت عيناه التي ينطلق منهما شعاع حادّ يمثّل الألم، الخوف العميق، الرعب، رغم أن وجهه ظلّ يعكس تعابير رجل، عانى الكثير، وقاسى من مرارة الحياة، ويعيش في عزلة شخصية صارمة.

قلتُ له لنخرج من هنا، لابد أن تكون جائعاً، أعرف مطعماً صغيراً، يقدّم المشاوي مع العَرَق، نتناول العشاء هناك، ثمّ نرى بعدها ما الذي نعمله، فوافق فوراً. نهضنا، وحملتُ أنا حقيبته الصغيرة، واتّجهنا نحو المحلّ. بدأ المساء يطبق على الأزقّة والواجهات، وحركة السيّارات تكبر في وقت مثل هذا، وبعد زقاقين، انعطفنا إلى اليسار، ودخلنا شارعاً فرعياً، مشينا فيه حوالي خمسين متراً حتى وصلنا المطعم. كان حديث الطائرات الانتحارية طاغياً في كل مكان، وكان موضوع النقاش بين الطاولات القليلة في مطعم بردى. تزوّج ماهر من فتاة اسمها خولة يعيش أهلها في العاصمة، وأبوها قريب بعيد لنا، ولكون خولة لم تستطع العيش في القرية، بنى لها ماهر بيتاً في حي الأندلس وسط المدينة، كان يسمّى حي الروس سابقاً، ولكن الحصار أجبره على الهجرة نحو الأردن بحثاً عن عمل. كان ماهر يحكي لي عن عشر سنوات، تركتُ فيها البلد، والأحداث التي جرت، وأنا بعيد، وسط نقاشات الزبائن في المطعم عن الحَدَث الأبرز هذا اليوم، وهو إسقاط برج التجارة العالمي، وتفاعلات الحَدَث، وما تنتظره منطقتنا من أهوال.

مطعم بردى صغير، فيه أربع طاولات فقط، وزبائنه يعرف بعضهم بعضاً، وهو يقدّم العَرَق والبيرة مع وجبة من الكباب، أو التكّة، كما يقدّم سلطة لذيذة جداً، وفطائر اللحم بعجين التي يسمّيها ماريا، وأعتقد أن سبب التسمية هي أن مالك المطعم مسيحي من باب توما، كنتُ أزوره كلّما حصلتُ على دفعة جيدة من النقود سواء من الأمم المتّحدة، أو من عمل مؤقّت سريع، أو من منحة، يقدّمها لي واحد من أصدقائي. ذات يوم جلبتُ ريم إلى المطعم للغداء، واحتساء كأس من العَرَق، فكان وجودها شاذّاً، وصار معظم الشاربين يرمقونها بشهوة، ممّا جعلنا ننهي غداءنا بسرعة، ونذهب إلى بيتها. ماهر لم يذق العَرَق منذ أكثر من عشر سنوات، لذلك مثّل له احتساء العَرَق الزيّان عودة حقيقية إلى الشباب والتمرّد والشعر، سحبته الهندسة من عالمه ذاك؛ ليكون أكثر عقلانية. رأيتُ ذلك من خلال عينيه اللتين تحدّقان بالموجودين والمطعم غير مصدّق، بل ومندهش هو

نفسه لعودته بعد كل تلك السنوات إلى عالم الخمرة والأدب والشعر والرواية والخيالات.

دخل عازف العود في الثامنة مساء، وجلس قرب البار، وبدأ يعزف، وهذا العازف المجهول طالما رأيته في المطعم قبل ذلك، يأتي مرّة أو مرّتين كل أسبوع، بالاتفاق مع صاحب المطعم، فشدّنا جميعاً إلى معزوفات وأغان لفريد الأطرش وأمّ كلثوم وأسمهان، وهذا ما جعل حديثي مع ماهر ينقطع تماماً؛ إذ لم يعد النغم والصوت يُتيحان فسحة للسماع، عدا عن اندماجنا الكبير، وخاصّة ماهر، مع هذه الأجواء، وكنتُ أرى الدهشة في وجهه لهذا الطرب الصادح في جنبات المطعم، وهذه الوجوه المنشرحة التي غادرت خوفها ممّا حدث اليوم، وحملها العَرَق إلى سماوات الفن. وقتها أحسستُ بحاجة إلى روح ريم وجسدها، إلى شموعها ورائحتها، إلى عينيها العسلتين، بمشحة زرقاء، وشعرها الذهبي، وابتسامتها المواربة الخائفة من الإفصاح عن مشاعرها، وإلى رحلة معها إلى مجهول، يخرج من نطاق هذا المكان الذي أعيش فيه.

ثمّ حملني الصوت إلى القرية، وأحسستُ بحنين إلى سماع أخبار عمّي رشيد، وخالتي سميعة وأخي مصطفى، ومَن مات أو تزوّج من معارفي، ومستجدّات القرية بعد رحيلي، فاقترحتُ على ماهر المغادرة، فوجدتُ شيئاً من المقاومة، لكنني أخبرته أننا سننتقل إلى مكان آخر. أنتَ في دمشق، قلتُ له، في كل زاوية لذّة، وفي كل زقاق أغنية. في تلك الليلة، أعاد لي ماهر كل الخيوط التي قطعها الزمان مع ماضيي. لن تعرفها، قال لي ونحن نجلس في برج المحاربين القدماء، وأنا أحدّق إلى جبل قاسيون، كما لو كنتُ شبحاً من الماضي، فتلك الأضواء المتلامعة من بعيد تجرّني إلى السنوات التي لن تعود، وإلى دكّان عمّي فاضل، بل أبعد من ذلك، إلى دكّان زابط المضحي وحفلات لعب الدومينو، وتُذكّرني بومضات راديو عمّي الفيلبس الذي حملناه ذات يوم في طرقات القرية. لن تعرفها تلك الغافية على النهر المشرفة على الصحراء، جرت مياه كثيرة في سيقان أشجارها، ومرّت طيور مهاجرة في أفقها، ونزلت قطرات مطر وحبّات بَرَد على ترابها، مات منها الكثير، ووُلد فيها الكثير، وتمدّدت بيوتها، وكبر أبناؤها، وتزوّج شبابها، ونمت دكاكين في طرقاتها، وتاهت الصبايا شوقاً إلى الحبيب على أسطحها الفارهة. لن تعرفها، شقّ في الشمال طريق دولي، يربطها بسورية والأردن، هو الأهمّ في المنطقة، ونفّذته شركة يابانية، اليوم يمكنك أن تسافر من بغداد إلى طريبيل، أو الوليد دون أن

تخشى من الحُفر والعوائق، طريق مثل المرايا. اكتمل الجامع، وبُنيت مدرسة متوسطة وإعدادية ألحقت في مدرسة المعرفة الأمّ، وغزت التلفزيونات البيوت، وتوسعت المقبرة.

قلتُ له حدّثني عن عمّي رشيد، عن أخي مصطفى، عن أخي بشير، عن أمّي، عن المدرسة والمستوصف ومكائن المياه المركونة على الضفاف. نحدّق في جبل قاسيون، ونحتسي الزيّان، وندخن السجائر اللكي سترايك، بينما راحت القرية عبر حديث ماهر تتمدّد على الطاولة، وتتطاول حتى تصبح غيمة في الفضاء، وفي ليل دمشق المنير، الملتمع في الآفاق مثل عنقود من المجرّات. اتصلتُ بالعجوز صاحبة البيت، وطلبتُ منها الإذن بجلب ماهر؛ كي يقضي الليلة في غرفتي، رفضتْ في البداية، لكنني شرحتُ لها ظروف وصوله، وكيف أنه جاء من عمّان إلى دمشق لرؤيتي، وبيّنتُ لها أنني ملتزم معها بالاتفاق بيننا حول عدم جلب الضيوف، وخاصّة الفتيات، والحالة هذه طارئة، ولن تتكرر مرّة أخرى، وفي النهاية وافقتْ، فشكرتُها بكلمات رقيقة، داعبتْ وحدتها هي التي ورثت البيت عن زوجها المتوفى، وزوّجت أولادها بنيناً وبنات منذ سنوات طويلة ماضية. لليلتين متواليتين، كنتُ أسأل عن تفاصيل ما حدث في القرية، وهو يجيبني بإسهاب، ويُعجب - بعض الأحيان - من سؤالي عن أشياء تافهة من وجهة نظره، مثل عدد الطرق التي تمّ تبليطها داخل القرية، وبدالة التلفون المركزية الموضوعة في غرفة جانبية داخل سياج الجامع، وأسماء مَن ماتوا وسبب الوفاة، إلا أن استفساراتي تركّزت - أغلب الأحيان - على أخي مصطفى وحياته بعد الزواج. فهمتُ منه أن مصطفى نُسب بعد تخرّجه إلى مدينة الناصرية؛ ليدرّس اللغة العربية في ثانوية الصناعة، وهناك تعرّف على زوجته القادمة، وبعد أن أتمّ سنتين في تلك المدينة، قدّم طلب نقل إلى مدينتنا، هو وزوجته، فحصلت الموافقة، ووُظّفا في ثانوية الصناعة التي تقع قريباً من سوق البزازين على أطراف المركز، واستأجرا بيتاً صغيراً وسط المدينة، في منطقة القطانة تحديداً، وعاشا هناك.

كيف أمضى سنوات الحصار؟ ذات يوم، فوجئتُ به يتّصل بي على تلفوني الأرضي طالباً النقود، لكنني كنتُ في وضع مُزرٍ، فلم أستطع تزويده بشيء. أظنه اتصل بي من عمّان. الحصار هو الذي دفعني للسفر إلى ليبيا، قال ماهر، ودفع مئات الآلاف للهجرة عن طريق الأردن، وكما سمعت، أو قرأتُ في الصحف، أصبحتْ رواتب الموظفين لا تساوي قيمة بنطلون، ممّا دفع كثير من الموظّفين إلى ممارسة مهنة ثانية، إمّا ترك وظائفهم مثلي أنا،

أو مزاولة المهنة بعد الدوام. هل تعرف ما الذي زاوله مصطفى وزوجته؛ لكي يوفّرا الإيجار؟ لقد تفتّق ذهنهما عن الدخول في سوق السجائر، حتّى السجائر شُحّت في الأسواق، وأصبح الحصول على علبة سجائر سواء كانت وطنية، أو أجنبية، تكلّف المدخّن أموالاً، لا يستطيع توفيرها، مما أجبر الناس على تدخين سجائر يدوية، يشتري الشخص دزّينة من الأوراق الجاهزة، ثمّ يعبئها بالتبغ من أردأ الأنواع، وهكذا بدأ مصطفى وزوجته العمل في هذا المجال، يربحون قليلاً من الدنانير لتمشية الأمور. مارسا - أيضاً - بيع الأكياس الورقية؛ حيث يُلصقون الورق؛ ليحوّلوه إلى أكياس، ثمّ يبيعونها للمحلات، مارس بيع الجوارب في شارع الأطباء على بسطة صغيرة، هذه المهن كلها، من أجل البقاء على قيد الحياة. حين يقف على البسطة، كما أخبرني يتمنّى لو يتحوّل إلى ذبابة، كلّما مرّ واحد من طَلَبَته، ورآه على هذا الحال. في ذات الفترة، قدّمتُ أنا طلب استقالة من الدائرة، لم أعد أطيق البقاء كموظّف، الحصار حولي كان قاتلاً، من قِبل المنظمة الحزبية، ومن قِبل عيون الأمن، قلتُ لنفسي أفضل شيء أقوم به هو الاستقالة، والاعتماد على النفس بعيداً عن المراقبة، لكنْ؛ أين هي الأعمال التي يمكن لي مزاولتها؟ اضطررتُ - في النهاية - إلى وضع ميزان يدوي لقياس الوزن جنب بسطة مصطفى، كل من يزن نفسه يدفع لي قليلاً من النقود، هل تصدّق ذلك؟ مهندس مَدَني، ويعمل وزّاناً للبشر؟ هذا ما أوصلنا إليه رئيسُنا. وبمساعدة أبي زوجتي، وكان مقاولاً في بغداد، استطعتُ أن أعيش أنا وزوجتي خولة، هذا قبل أن أشدّ الرحال إلى عمّان، ثمّ بالصدفة المحضة، استطعتُ الحصول على عمل في ليبيا. أوصلتُ ملفّي إلى السفارة الليبية في عمّان، وكنتُ فاقداً أي أمل بالقبول، لكنني فوجئتُ ذات يوم حين راجعتُ السفارة، فقالوا لي تمّت الموافقة، عملك سيكون في معهد هندسي، بمدينة صبراتة، وسأحدّثك في يوم آخر عن الحياة التي عشتُها هناك بعيداً عن زوجتي، ولم أزرهم منذ ثلاث سنوات، لكنني جمعتُ ما يكفي لشراء بيت لي. هكذا مضى الحال بنا طوال عقد التسعينيات، ولولا مساعدة أبيك وعمّك رشيد لمصطفى وزوجته بعض الأوقات، لماتا من الجوع، خاصّة، وأنهما تبنّيا ذلك الصبي أحمد، وأصبحوا عائلة من ثلاثة أشخاص، هل تتخيّل كيف يعيش ثلاثة أشخاص في ظلّ الحصار دون مورد حقيقي، ويدفعان الإيجار كل نهاية شهر؟ وهو خلال هذه المدّة ظلّ يكتب الشعر، ويقرأ في أوقات فراغه، وحين شاعت قصائد المدح للرئيس في الصحافة والمهرجانات، وتلقّف الفكرة، وأقنع نفسه أنها ستكون الحلّ لمشاكله كلها، وصل سعر القصيدة في ذلك الوقت خمسمائة ألف دينار

للناجحة جداً، ومليون للقصيدة الممتازة التي ينوّه بها القصر الجمهوري، وظلّ أياماً، وهو يتردّد في الدخول بهذه المعركة، لكن تلك الأوقات كانت أوقاتاً، بلا أي رادع أو قِيَم أخلاقية، لقد باع الناس أبواب البيوت والشبابيك والملابس والسياجات الحديدية لبيوتهم، من أجل توفير العيش لأسرهم. كانوا يتضوّرون جوعاً، بمعنى الكلمة، وشاعت الرشوة والمحسوبية والولاءات الحزبية والوساطات وحتى بيع الأعراض، تكالب علينا الخارج، بإصداره قرارات الحصار، والداخل المتمثّل بالسلطة والحزب للهيمنة، وإفساد البشر، واستنزاف آخر قطرة من الرفض والتمرّد. على أية حال، قذف نفسه في المعمعة، ووظّف قلمه لكتابة قصائد مدح للرئيس، وهو - دون شك - يمتلك شاعرية غريبة، وموهبة، لا يمكن إغفالها، ونجح في نشر قصيدة في واحدة من أهمّ الجرائد، سرعان ما لاقت إعجاباً من المثقّفين الموالين للسلطة، فقبض عليها ربع مليون دينار، وكان المبلغ يعادل عمله الوظيفي كمدرّس لأكثر من سنة. ثمّ توالت قصائده في الجرائد، للحدّ الذي نوّه بواحدة منها مكتب القصر الجمهوري ذاته، فوهبه مليون دينار، وكان يجمع تلك المبالغ سنة بعد سنة، دون أن ينقطع عن أعماله خارج الوظيفة، حتى استطاع شراء شقّة صغيرة في حي الشقق الصفر، وهو حيّ، بُني بعد رحيلك قريباً من معمل الزجاج، على أطراف المدينة الغربية. شقّة في الطابق الثاني، تتكوّن من غرفتين ومطبخ وحمّام صغير، أعتقد أن مساحتها لا تتجاوز الخمسين متراً مربّعاً، لكنه كان سعيداً بها، فقد تخلّص - في النهاية - من دفع الإيجار، فترك أعماله الإضافية، وظلّ ملتصقاً بوظيفته كمدرّس في ثانوية الصناعة. الطبقة الوسطى سُحقت في عقد الحصار تماماً، المدرّسون والمعلّمون والموظّفون الصغار والمهندسون والمزارعون، وحتى الضبّاط الصغار، تحوّلوا إلى طبقة مسحوقة، بالكاد تعيش، فيما أصبح الجنود شحّاذين، وساءت الحال، بشكل لم يمرّ على البلد، منذ قرون، فترة مظلمة مثلها. الطبقة الوحيدة التي استفادت من الحصار هم المقاولون والتجّار والضبّاط الكبار والحزبيون، وكان عمّك رشيد من بين هؤلاء المستفيدين، بعد أن امتلك حفّارتين وساحبة وعلاقات مع رجال أعمال وحزبيين في مُدُن بعيدة. كان يجلب النقود بأكياس الخيش، ويقيم مآدب لأشخاص مهمّين متنفّذين، يركبون آخر الموديلات. وخلال فترة قصيرة، هدّ بيته السابق، وبنى بيتاً جديداً، يشبه قصراً حقيقياً. سمّته تلك الطبقة المترفة الدبل فاليوم، يتكوّن من طابقين مع شرفتين؛ إحداهما في الأسفل، والثانية في الأعلى، شبابيك واسعة، أبواب من الخشب الصاج، مرافق صحية للنساء والرجال، ومضافة

واسعة، أثثها بالأرائك الثقيلة الضخمة، وستائر مزدوجة الأولى شفّافة، والثانية ثقيلة، تعطيها خشبة كبيرة، تمتد من الطرف إلى الطرف، والأرضيات من المرمر الإيطالي، ويحيط بالقصر ممرّات مَكسوة بالمرمر، طبعاً تخيّل هذا مع الفاقة التي ضربت الباقين، الذين يعتمدون في عيشهم على الحصّة التموينية، الحصّة البائسة من الطحين السيئ والحليب والعدس المدوّد والرزّ العتيق المجلوب من بلدان جنوب شرق آسيا، الطبقة المسحوقة التي لم تعد تأكل اللحم إلا في المآتم، أو الأعراس. أولاد عمّك تركوا المدارس، والتحقوا بأعمال رشيد، فلم تعد الدراسة مجدية، والشهادة العلمية أصبحت محطّ سخرية من الجميع. وتزوّج أخوك بشير من ابنة سليمان البنّا، بعد توسّط عمّك رشيد في الموضوع، إن كنتَ تذكر، فبيتهم كان ملاصقاً لبيت أبيك الذي قضينا فيه سنوات الدراسة الإعدادية.

كان ماهر يخبرني بهذه التفاصيل، ووجهه معتصر بالألم، والخيبة من الحياة، فيما كان الليل في المنطقة يتقدّم نحو الفجر، وقد نامت العجوز منذ فترة طويلة، وكذلك المؤجّران اللذان يقطنان في البيت، وأحدهما عسكري، والثاني طالب جامعي، قدم من مدينة القامشلي، ويبادلني الودّ، كوني أتعاطف مع الأكراد ونضالهم. لم يلبث ماهر سوى يومين في دمشق، وقد أحسستُ بأنني عبر أحاديثه استعدتُ ما انقطع من وشائج مع القرية، ولم أتوقّف عن سؤاله عن أدقّ التفاصيل حول ما جرى خلال غيبتي، ولكن أكثر ما آلمني من أخبار هو موت عمّي فاضل الذي لحقته زوجته بعد ستة أشهر؛ إذ لم تطق البقاء وحيدة في البيت، وهذا ما دعا أبي إلى إزالة بيته بالجرّافة بعد شهر من موتها، وحوّل المكان إلى حديقة كبيرة، سوّرها بالبلوك، وضعتْ أمّي التنّور في نهايتها البعيدة المقابلة لجامع الزبير. وبعد سنتين من ذلك، رحل أبي - أيضاً - بالسرطان. لم أزر ريم خلال هذين اليومين، وانشغلتُ بماهر؛ حيث أطلعتُه على أهمّ المعالم في دمشق، سوق الحميدية والبزورية وباب توما ومنطقة دمّر وساحة المرجة وجبل قاسيون، وفي الكراج القريب من وكالة سانا، ودّعتُ ماهر، وأنا أشعر بألم من أنني قد لا أراه مرّة ثانية، لكنني بعد سنتين من الهجوم على مركز التجارة العالمي الذي رأيتُه على شاشة قناة الجزيرة في بيت ريم، وجدتُ نفسي أنا الآخر أستقلّ سيّارة تاكسي عائداً إلى القرية، بعد أن رتّبتُ مع أخي بشير؛ كي يلاقيني في الطريق السريع مقابل القرية. علاقتي مع ريم انتهت - وقتها - نهاية محزنة. فذات ليلة، أمضيتُ سهرة ممتعة مع عدد من الأصدقاء في مطعم بردى، وقد أبدع عازف العود في عزفه وغنائه، لدرجة أنني نسيتُ - تماماً - شحن هاتفي، حتّى انطفأ، وكانت الكؤوس

تتعاقب على المائدة دون حساب، ونحن منغمرون بتساقط الأنغام في فضاء المطعم حتّى شكّلنا جوقة كومبارس، تردّد خلف المغني لازمات طربية لأغنيات فريد الأطرش ومحمّد عبد الوهاب وأمّ كلثوم، وهي الأغاني التي كان المطرب يغنّيها للزبائن عادة كل أسبوع. دارت الخمرة في رأسي، وتذكّرتُ ريم بشوق، فقرّرتُ مع نفسي أن أمضي إلى بيتها، وهو ما فعلتُه في حدود الساعة العاشرة.

صعدتُ الدرج، وسط عتمة البناية، وشعرتُ للهدوء وطأة ثقيلة أكثر ممّا ينبغي، وأنا - بالكاد - أجد الدرجات للصعود من شدّة السُكْر، لكنني وجدتُ ضوءاً ناعماً، يتسرّب من الباب، فرحتُ لأن ريم لم تنم حتّى الآن. طرقتُ الباب الخشب بخفّة، وتخيّلتُ السعادة التي سترتسم على وجهها حين تراني، وستفسّر زيارتي المباغتة على أنها من شدّة الوجد والحبّ، لكنني كنتُ واهماً. فما إن فتحت ريم الباب حتّى رأيتُ صفحة وجهها شاحبة، ولمستُ خيطاً من الرعب في نظراتها، وبقيتُ أحدّق بها صامتاً، للحظات، حتّى قالت لي بصوت كأنه قادم من بئر عميق، آسفة، يا سلام، لديّ ضيف. وقفتُ مشلولاً، وضربات قلبي تكاد تهزّ البناية، وتلعثمتُ، ولم أعرف كيف أمضي في الحوار، وبدأتْ شفتاي ترتجفان، بغضب، بخجل، باستغراب، ولبثتُ واقفاً مثل عمود من الطين. قالت إن لديها صديقها الصحافي تيم، وهما مشغولان بكتابة تحقيق عن ساحة المرجة، وينبغي تسليمه غداً للجريدة، ثمّ صمتتْ، وهي ما تزال واقفة في الباب الموارب.

تحت ضياء النجوم الغائرة في سماء دمشق، ووسط وحشة البيوت النائمة، بواجهاتها المظلمة، ولزوجة الطين في الشوارع الفارغة، شعرتُ أن علاقتي مع ريم قد انتهتْ، وأنني مهزوم، ومشرّد، وغريب، ومقطوع من شجرة، وما لي سوى أن أبدأ حياتي من الصفر، في مكان ما، وشعرتُ - وأنا أتجوّل في أزقّة جرمانا متّجهاً إلى بيتي في منطقة الدويلعة - أنني لستُ أكثر من دودة سكرانة في طريقها إلى الظلام. تلك قضمة من عمري السائر نحو الاندثار، وتلك حياة، أخالها تنتمي إلى عصور سحيقة.

المفاجأة التي لم أتوقّعها أن بشير استقبلني مع زوجته نادية في سيارته الستيشن الحمراء، الأوبل، وقد وجدتُ نادية تشبه ريم تماماً، فآمنتُ أن الحياة تحتوي على مفاجآت غير مفهومة. وحين أقارن اليوم بين زوجتي نادية وريم التي أحببتُها لثلاث سنين، منذ تلك الأمسية البعيدة في نادي الرواق الدمشقي، أجد أن تشابه الأشكال لا يعني تشابه الشخصيات. نادية لا تمتلك توهّج الأنثى الذي كانت تمتلكه ريم، ريم

متمزدة، متعلّمة، تطمح إلى الوصول إلى حياة أخرى غير الحياة التي تعيشها، بينما نادية غير متعلّمة، كان أكثر ما تطمح له في الحياة هو الأسرة، تربية الأبناء، والحفاظ على الزوج، وتعيش أيامها دون أية محاولة لتغييرها. زوجتي نادية تخاف الرجل، بمعنى آخر، هي تريد أن تُرضيه؛ لتكون زوجة مثالية، وهذا ما لم أجده في ريم رغم أنني لم أتزوّجها، لكنني لمستُ أنها تضع حُرّيتها الشخصية فوق مفهوم الأسرة، ولم أستطع هَضْم ذلك في وقتها، أنا القادم من تقاليد فلاحية، تضع الرجل فوق المرأة دائماً حتى لو كانت زوجة جميلة.

بهذه الهواجس وغيرها، في حمأة الغربة التي تلفّني في هذه المدينة، بقيتُ أتقلّب في سريري حتى تناهى لسمعي صوت الأذان، من جامع بعيد، وشعرتُ بخطوات نادية، وهي تتّجه نحو الصالون؛ لتؤذي صلاة الفجر.

# الفصل العاشر

منذ نشأته، وهو مدلّل، تقول جدّتي ميّاسة عنه، أنا لا أمتلك سواه في هذه الدنيا، لكنّ؛ كما يقول المثل قلبي على قلب ولدي، وقلب ولدي من صخر، يحب - دائماً - أن يتصدّر المجلس، روحه عزيزة، نظيف الملبس وذوّاقة في الأكل، وأظنّ ذلك ينطبق على عمّي طوال حياته، هناك أشخاص لا يرضون إلا بالواجهة، سواء أخطؤوا، أو أصابوا، ليس غروراً، فعمّي ليس مغروراً بنفسه، إنما معجب بها، وكأن الحياة خُلقت من أجله. ولأن القرية شهدت تحوّلات هائلة خلال حياة عمّي، فهو ضحية لها، وفي الوقت ذاته، استفاد منها. لم يستطع ممارسة رغباته، بشكل صريح، لذلك أصبحت العاصمة متنفّساً له، في كسر الممنوعات التي تعيشها القرية كشرب الخمر، وزيارة دور السينما والعاهرات، ولبس الألبسة الحديثة من بنطلون وقميص، وسترة، وحذاء على آخر موديل، وهناك في العاصمة يجد عشرات من معارفه، يشاركونه هذه الأهواء، أمّا في القرية؛ فلم يكن هناك سوى نفر ضئيل، يحمل بذرة التمرّد مثله. حين انتقل مصطفى إلى الجامعة، راح يجلب لنا قصصا عن عمّي، لا نعرف كيف يحصل عليها. يقول: تعزف عمّي على امرأة، وبدأ يلاحقها أسابيع، يتمشّى معها في سوق النهر بعد أن ينتهي من عمله، أو يعزمها على مطعم للسمك المسكوف في أبي نؤاس، وكان عمّي يسكن في فندق محمود الواقع في علاوي الحلّة مقابل المتحف الوطني، لذلك ظلّ وجود مكان يختلي بها واحداً من هواجسه ومعاناته. قريب لنا يسكن في منطقة العامرية مع زوجته وأولاده، صديق عمّي، يتردّد معه على البارات ودور البغاء، أراد أن يقدّم له خدمة، ونسّق مع عمّي يوماً من أيام الجمع لترتيب اللقاء. ارتدى عمّي ملابس عصرية أنيقة، وحمل حقيبة دبلوماسية من الجلد، ووضع على عينيه نظّارات شمسية فاخرة، ورافقته صديقته التي لبست هي الأخرى ملابس أنيقة، وتفوح العطور منها، ورتّب الصديق الأمر أمام زوجته والأولاد على أنه سيستقبل أحد أصدقائه الأطبّاء مع زوجته، وهما قادمان من البصرة، سيرتاحان الظهيرة في البيت، ثمّ يغادران في القطار، وهكذا استطاع صديق عمّي توفير سويعات من الخلوة، له وصديقته، الأمر الذي جعل عمّي لا ينسى تلك الوقفة له، وكثيراً ما دعاه في الأعياد والعطل

لزيارة بيته في القرية لقضاء بعض الأيام. وتلك الجلسة أيضاً، وكان مصطفى حاضراً فيها، دعاهم واحد من المقاولين لوجبة سمك في أبي نؤاس؛ حيث امتلأت الطاولة بالقناني والمازات، من كل شكل ولون، وفُوجئ مصطفى بيد عمّي، وهي تمتدّ إلى الكأس، ترفعه إلى فمه، يزيح الرغوة البيضاء من الكأس، يتذوّقه بلسانه، يمتص السائل الأصفر، ويأخذ الكأس يفرغ لحظة بعد أخرى دون أن يزيح عمّي فمه. يعبّ البيرة الفريدة بلذّة فائقة، حتّى إن مصطفى كما ذكر، شعر بالقشعريرة، وهو يراه مقبلاً على المشروب بحماسة الشباب، يراه يتناول الخمور أول مزة، فهو رغم الإشاعات التي كانت تؤكّد تناول عمّي للخمور، إلا أنه لم يره عَيَاناً. ينقل مصطفى هذه القصص في جلساتنا الخاصّة، ويطلب عدم نشرها داخل الأسرة. هناك قصص كثيرة، رواها لنا مصطفى عن حياة عمّي في بغداد. ظهرت أمام عمّي صورتان، كما أستعيد اليوم شخصيّته القلقة، وعليه أن يختار بينهما، أو على الأقلّ، يوفّق بينهما، الأولى صورة القرية في بداية حياته، وتتمثّل بخضوع الحياة إلى الدين، المحرّمات والمُحَلّات، وحجب المرأة عن الحياة العامّة، واختفاء أية فسحة لإمتاع النفس كالرياضة ومخالطة النساء ومجالس الغناء، والتقاليد الجماعية التي ترفض أية تفرّد للشخص خارج هذا الإطار، هو لم يكن مختاراً أو شيخاً من شيوخ العشائر، وأسرته أسرة فلاحية، وتعليمه لا يتجاوز الكتاتيب، رغم أنه كثيراً ما حاول قراءة الجرائد والتملّي في كُتُب أبنائه وأبناء أخيه وأقربائه، لكنه ظلّ أسير ضآلة التعليم الذي هُيّئ له. متناغم مع محيطه لدرجة معينة في القرية، ومتمرّد في العاصمة، وحين أسّس جامع الزبير، وكبر عمّي، وأصبح لديه أولاد، ظلّ يحاول إمساك العصا من المنتصف، يصلّي الجمعة في الجامع، وينقطع عن الصلاة في الأيام الباقية، يصوم رمضان حين يكون في البيت؛ لكي يتمتّع بلذّة الإفطار مع العائلة، ويفطر حين يكون في العاصمة، وسمعه البعض يقول عن الصيام كيف يُقنعني أحد بأن الامتناع عن الطعام والشراب أكثر من عشر ساعات، خاصّة في الصيف أمر مفيد للصحّة، العقل لا يتقبّل ذلك.

متناقضات. يحبّ خالتي سميعة لجمالها، لكنه لا يرفض مغازلة امرأة جميلة، أو محاولة غزوها إذا ما توافرت له الفرصة، يقول: العيون خُلقت لكي تتأمّل بالجمال، بالعيون الساحرة والشعر الذهبي والخدّين المكوّرين على صفحتي الخدّ مثل تفّاحتين. خلق الله المرأة للرجل، وخلق الرجلَ للمرأة، عدا ذلك كله، يأتي في أوان آخر، وهذا ما جعله يندفع في علاقات مع نساء ذوات سمعة سيئة، أو يبعنّ أنفسهنّ بالمال، لكن فرصاً مثل هذه لا

تتوافر إلا نادراً في القرية والمدينة. هي - فقط - في بغداد، وهذا ما جعل زياراته جدّ بعيدة للقرية، وحين يأتي كان كَمَن يؤدّي واجباً. ننتظره كل خميس عند المساء، ننتظره على السطح، قبل أن يتحوّل إلى بيته الجديد، المنعزل عنّا، ما إن نلمح ضوءاً من بعيد قادماً من الغرب، من الجسر، حتى نصيح بصوت عال، تسمعه خالتي سميعة: جاء عمّي، جاء عمّي رشيد، وفعلاً، تنعطف التاكسي من السدّة نحو بيتنا، نقف في الفسحة أمام بيت عمّي فاضل، ويتبيّن لنا أن القادم هو عمّي فعلاً.

نستقبل صناديق العنب من شهربان، أكياس الرمّان من بعقوبة، الرقي من منطقة النباعي، الجكليت من بغداد، الحلقوم من الرمادي، وذلك تبعاً للمدينة التي يعمل بها عمّي، وهو بهذه الهدايا والمأكولات اللذيذة ينقلنا إلى مُدُن العراق كلها رغم أننا لم نخرج من مدينتنا. أبي، وجدّي قبل وفاته، وعمّي فاضل، ورجال القرية الآخرون، كانوا يهجسون بموبقات عمّي، لكنْ؛ لا أحد منهم تذمّر منه، بشكل جدّيّ، بالعكس ينظرون له كما لو أنه يحقّ له ما لا يحقّ لغيره، بما في ذلك عيناه الزائغتان دائماً نحو النساء في أعراس القرية وطرقها ومناسباتها كقصاص التمر والحصاد والأعراس وحفلات الطهور. بغداد تمنحه المتعة والحُرّيّة، أنت بين ملايين البشر، نكرة من نكرات شارع الرشيد وباب المعظّم ومحلّة الذهب والكاظمية وأبي نؤاس، أمّا القرية؛ فهي الخيط الذي يربطه بمكان أليف وآمن، وكان يعرف محلاتها وشوارعها وشواخصها أفضل من معرفته لشوارع وحارات المدينة التي ينتمي إليها. في ليالي السمر الشتوية، يكون في مزاج رائق للحديث مع أبي وأخوالي ورجال الجيران، يسترسل في حكاية القصص والأحداث عن شارع الرشيد والجمهورية والمشجر وحارات الكرّادة والوزيرية والثورة والكاظمية والعلاوي ومنطقة البتاوين وقصص منتزه أبي نؤاس وحافظ القاضي، قصصه عادة ما تدور عن أشخاص، يلتقيهم في مكاتب العمل، وفي محلات تصليح السيّارات والرافعات والمطاعم الشهيرة، وآخر الشائعات حول الحكومة والمؤامرات التي تُحاك والانقلابات التي حدثت في نصف القرن المنصرم، وعَدَذتُه مع نفسي مثل بطل شعبي، لم يرد اسمه في الصحافة والكُتُب والأخبار، لكنه موجود، يلعب دوره كاملاً، ويعيش حياته بعمق، إلى أن يسافر نحو قبره المظلم.

وفي بعض الأحيان، كنتُ أفكّر أن موت عمّي وبقاء جثّته في العراء يحتوي على حكمة سرّيّة، لم يدركها أحد. كان يخشى العتمة، عتمة الوجود والأرواح والجدران المغلقة، ويعشق الفضاء والنور والطبيعة، وهو

ما سيحققه جسده بعد موته، فهو لن يُحجر عليه في ذلك الشق المظلم، ولن يُهال عليه التراب الضاغط على الروح، وستتقاسم الدواب الأرضية والكواسر والديدان لحمه، مما يعني أنه سيعيش بعد موته من خلال كائنات أخرى، ليس من الضرورة أن تكون كائنات، تنتمي إلى عالم البشر الفاني. هي حكاية البشر الذين اختفوا عن الحياة دون قبور، وكأنهم تحوّلوا إلى حكاية من الحكايات المتوارثة في عقل البشرية، وبما أنه لا شيء يحدث صدفة، حسب تفكيري أنا، فبقاء عمّي بلا قبر، يعني تحوّله إلى أمثولة، إلى طيف لامع، سيروي ذات يوم تفاصيل حياته التي عاشها خلال السبعين سنة من تاريخنا الحديث.

أخبرني أخي مصطفى في التلفون، قبل أسابيع، أنه كتب قصيدة رثاء عمودية لعمّي، لكنني لم أقرأها، وبين الجدّ والهزل، قال لي إنها أبلغ من قصيدة الخنساء في رثاء أخيها صخر، وخالدة مثل إلياذة هوميروس، هذا يعني أنه يعيش - أيضاً - في وجدان شاعر، وإلا لمَ لمْ يكتب أخي قصيدة في رثاء بشير، بينما هو أخوه، ويحبّه كثيراً؟ عمّي موضوع شائق ومؤثّر لكتابة القصائد، وربّما القصص، والسبب - في ظنّي - ارتباطه بالقرية ارتباطاً وثيقاً، ارتبط بطفولتنا نحن، وارتبط بذلك التحوّل الواضح في حياة القرية، وهي تعبر مرحلة الطين نحو مرحلة الصخر، ومن مرحلة الصخر، إلى مرحلة النور، ثمّ - أخيراً - مرحلتها الإلكترونية التي حلّلتها، وأزالتها من الوجود. حقيقة، لا يمكنني رسم صورة واضحة لعمّي، فهو يمتلك تفاصيل كثيرة، ولرسم صورة دقيقة له كإنسان، ينبغي معرفة الأشخاص الذين خالطوه، والنساء اللواتي عاشرهنّ، والنفاذ إلى سريرة خالتي سميعة، والتفتيش في عقول أبنائه الذين تربّوا تحت جناحيه حتّى كبروا، وتزوّجوا، وينبغي - وهذا هو الأهمّ - إخراج جدّي وجدّتي من القبر؛ كي يقصّوا تفاصيل شخصية عمّي عندما كان طفلاً، ثمّ صبياً، ثمّ مراهقاً؛ إذ كانا الأكثر التصاقاً به في تلك السنوات البعيدة، والسعيدة. هو - أيضاً - لم يذكر شيئاً عن محاوراته مع الجنرال بترايوس بعد الاحتلال، والأسرار التي تبادلها مع الشيوخ والوجهاء أيام تأسيس الصحوات، والزيارات السرّيّة له حين بدأ بتجميع الرجال والسلاح، من أجل الانقضاض على الوحوش الصغار قبل أن يتحوّلوا إلى وحوش كبار، في تلك السنوات التي كان يتغنّى بها قبل موته، ويفخر. حين كنتُ أجلس إلى خالتي سميعة، في بيتهم الدبل فاليوم، بعد رجوعي من دمشق، أحاول سبر غورها عن السبب الذي يجعل عمّي مفتوناً بمغامراته النسائية، أقول لها بين الجدّ والهزل: أنت امرأة جميلة، وتعشقين عمّي، وتحافظين على بيته، وخلّفتِ له دزّينة

من الشباب والبنات، فَلِمَ دأب على مطاردة النساء، خاصّة والبعض منهنّ لا يمتلكنّ جزءاً ضئيلاً من جمالكِ؟ تصمتُ خالتي، ويتضرّج وجهها بالحمرة، وتُسبل عينيها، ولا تجيب، وأفكّر أنها إمّا تعرف شيئاً عن عمّي، لا ترغب في البوح به، أو إنها - أيضاً - حائرة في ايجاد السبب، حيرة الأنثى أمام نزوات الرجل وغرائب سلوكه، ونزوعات الذّكَر غير المفسّرة.

سرت إشاعة ناعمة في وقتها توحي بأن علاقة عمّي بسليمان البنّا ليس مردّها الصداقة التي ربطتهما منذ قيام البنّا ببناء بيتنا الصخري قبل عشرات السنين، بل بسبب علاقة ما مع زوجته علية، لكنني - وكما أتذكّر - حين قطنّا بجوار بيت سليمان البنّا، لم تكن امرأته ذات حُسن أخّاذ؛ كي يستقتل عمّي على الحفاظ على تلك العلاقة، المميّز فيها - حسب رأيي - عيناها الزرقاوان فقط. كانت إشاعة في الأحوال كلها، ماتت في وقتها، لكنها بقيت تعيش في داخلي، وحين سكنتُ في بيت أخي بشير كانت الشائعة تمدّ رأسها بعض الأيام، فأبدأ بمقارنة ملامح نادية ابنتها مع ملامح عمّي، ورغم أنني دقيق الملاحظة، لكنني - بعض الأحيان - لا أجد أيّ سمات مشتركة، لكنّ؛ في ساعات أخرى، ألمح - مثل حلم خاطف - استدارة عيني نادية الواسعتين مثل قوس، الشبيهتين باستدارة عيني عمّي رشيد، لكنني حين أصل إلى هذا القناعة، أدقّق النظر أكثر، فيختفي الشبه مثل اختفاء برق فوق أجمة من النخيل. أطرد هذا الهاجس، بسرعة، لكنّ؛ ليس كل ما يطرده المرء من رأسه يختفي، وإلى الأبد.

الرواية الرسمية لعلاقته مع سليمان هي أنهما يذهبان، كلّما جاء عمّي لزيارتهم، إلى نادي الموظّفين المقابل للسينما؛ ليحتسيا العَرَق، ويتناولا الكباب بعده، ثمّ يدخلا في متاهة عشرات السنين، قضياها معاً، وعرفا خلالها عشرات الأصدقاء المشتركين. ويقال إن سليمان في جلسات مثل تلك، لا يكفّ عن التدخين، فيما يضع عمّي سيجارة في فمه دون أن يشعلها، فهو لا يدخّن، هي للسلطنة، يقول بوجه ضاحك وشارباه يتراقصان من البهجة. تلك البنت ذات العينين الزرقاوين مثل مياه الفرات في الصيف، والوجه الأبيض المنتهي بحنك صغير في نهايته حفرة صغيرة، بشعرها الكثيف، جذبت نظر عمّي، فقرّر أن يخطبها لأخي بشير، وهو مَن هندس الزواج، بتفاصيله كلها، ورغم أنها قبلت بالزواج من بشير، لكنها ظلّت تحنّ إلى عيشة المدينة حتّى حين تزوّجتُها أنا باقتراح عمّي، وإصراره. الواحدة منّا موضوعة - دائماً - تحت رصد العيون في القرية، تستثير الشكوك، إذا ما لبست ثوباً جميلاً، أو وضعت على وجهها شيئاً من

الحمرة، إذا ما نزلت إلى الحقل، تتابعها عشرات العيون، إذا ما ألقت السلام على رجل، تستثير من حولها الإشاعات، في المدينة، يغلق المرء الباب على نفسه، وليس لأحد من الجيران علاقة بما يفعله، هنا في القرية حتى حين يجلس الواحد في بيته، سيتوقّع زيارة مفاجئة بأي لحظة، وإذا ما جلب غرضاً جديداً للبيت، ستعرف به البيوت خلال ساعات فقط. الجميع يعرف بالطبخة التي ستقدّم في الغداء، أو العشاء، وكأننا لا نمتلك جدراناً، بل جالسون في العراء. مثل الحقيبة النسائية الشفّافة تقول نادية، يمكن للآخرين رؤية كل شيء في داخلها، هكذا نحن في القرية. وهذا ما كان يقلق بشير فيها، فهي لا ترضى عن شيء، ما دامت تعيش خارج المدينة. وظلّ عمّي حتى مماته، يعاملها مثل ابنة له، يقف معها على التنّور؛ لكي تناوله رغيف خبز ساخن، ويتكلّم معها طويلاً دون مَلَل، وكأنه يتذكّر عبرها علاقة الصداقة السرّيّة والخاصّة مع أبيها ومع أمّها، والزيارات التي لا تنقطع لبيتهم الواقع على أطراف المدينة.

أنتم أموات متحرّكون، يقول ممازحاً لجلاسه حين يكون في القرية، انظروا أين وصلت البشرية، ذهبوا إلى القمر، زرعوا الصحاري، أقاموا مُدُناً تحت البحار، حوّلوا النساء إلى رجال، والرجال إلى نساء، وأنتم ما تزالون تتلهّون بـ قال فلان، وقال فلان، وهذا مسموح وذاك ممنوع. وحين بدأ أحمد يلقي خطبه في الجامع كثيراً ما سمعته يعنّفه بخشونة عن بعض الأفكار التي يطرحها في الخطبة، كالبيرة الإسلامية، على سبيل المثال. بعد أن احتلّنا الأميركان، وتكاثرت المحلات على السّدّة، وتنوّعت، بدأ بعض التجّار يجلبون بيرة إسلامية إلى المحلات، يضعونها معروضة في الثلاجات صيفاً مع البيبسي، والكولا، والراني، والعصائر الأخرى، وبدأ بعض الأشخاص يتناولونها إمّا في المحلات، أو في البيوت، خاصّة مَن يشكو من أمراض الكِلى، أو ضعف في الجسد، وباعتبارها مصنوعة من الشعير دون كحول، فهي تبثّ الطاقة في الجسد، وتريح المعدة. ما أغاظ أحمد هو الإقبال الكبير للنساء على تلك البيرة، تناولتها زوجة المختار وأمّي وخالتي سميعة ونادية، وصار عدد من الشباب يشتريها؛ كي يخلطها بالويسكي؛ لتزيد من مفعول الكحول، وتكسر حدّة الويسكي، ممّا حدا بأحمد إلى فتح النار ذات جمعة على البيرة الإسلامية، وعَدّها مشروبا محرّماً، يحتوي على نسبة ضئيلة من الكحول.

بعد عودة أحمد من الصلاة إلى البيت، كان عمّي حاضراً في الغداء، فقال له غاضباً: أتمنّى أن لا تغازل الوحوش بخطبك، هذه البيرة مُحلّلة في

السعودية وإيران ومصر وعدد من البلدان الإسلامية، وهي مشروب لا يختلف عن الراني وعصير الليمون. يا أخي، تكلّموا عن تبليط الطرق، عن مشكلة الكهرباء، عن الرشوة المتفشّية في دوائر الحكومة، عن النصب والاحتيال، لا تضعوا عيونكم على ما ترتديه النساء، أو يشربه الرجال، فهذه مداخل، يلجّ منها الوحوش، وقد جزبناها، فقادتنا إلى التهلكة. وقتها انتهت القرية والقرى المجاورة من التنظيم الذي كاد يستولي على المدينة، وبفضل الصحوات، تمّ طرد الوحوش الصغار، وإبادتهم من المناطق الغربية كلها، وشاعت موجة من التمزد بين الناس على الأفكار المتطزفة في كل شيء، سواء الدينية، أو الاجتماعية، ومن ذلك، تناول الخمور. بعض الأحيان، أفكّر أن عمّي لا بد أن يكون قرأ كُتُباً كثيرة؛ لكي يصل إلى هذه الآراء والمعتقدات، وبعض الأحيان، أصل إلى قناعة أن القضية تكمن في حكمة بعض البشر التي وُهبت لهم منذ الولادة، وإلا كيف فكّر عمّي ذات سنة في تشجير المقبرة؛ لكي تشبه مقابر أوربا؟ أو كيف دلّه حَدسه الناضج؛ لكي يرتاد السينمات سواء في المدينة، أو العاصمة، وينحاز إلى إيقاع الحياة أكثر ممّا ينحاز إلى الأفكار المسبقة والضوابط المتوارثة، سواء كانت دينية، أو اجتماعية؟ الأمور هكذا يجب أن تكون، دون أن يسأل، أو يبحث عن الأسباب، وهذا يتطلّب حكمة عميقة، أو حدساً أصيلاً، وُلد، ونما مع الشخص، من خلال تجربته في الحياة.

يفيق صباحاً، ويخرج إلى الحديقة، يحمل منجلاً لتهليز النخلات الراكدات جنب السياج مثل صبايا باكرات، يفجّ حول شجرات البرتقال حوضاً لسقي العروق، يزيل الأغصان اليابسة من الورود الجوري التي زرعها حول المماشي، كما لو كان يروم خلق جنّة على الأرض، أو كأنه لا يريد أن يموت، زرع حديقته الواسعة، المسيّجة بالبلوك، في عزّ المعارك مع الوحوش، ويقول الجميع إنه يعمل، كما لو أن الموت غائب عن ذهنه، ويردّ عليهم بالقول ما دمتُ حياً، سأعيش الحياة كما يجب، لن يأخذ الروح سوى واهبها. ظلّ عمّي رشيد يحبّ الجمال حتّى في شيخوخته. لقد شغل القرية في أثناء حياته، وفي موته الملتبس، حين تصالب على أرض المقبرة بجسده الذي تفتّق عنه الكفن، وانزاح مثل قشرة الرحم، كما لو أنه يبعث لنا برسالة موجزة: لن يمرّوا إلا على جثّتي، وهذا ما حصل. كان عليه أن يزول، هكذا حكمت الأحداث التي عشناها. عليه أن يزول؛ لأن الموجة المتطامنة أكبر منه، ومن نخلاته وبيته ومقبرته ونهره القادم من راسيات الجبال. حكم قاس، صدر عليه منذ أن دخلت الدبّابات الأميركية إلى بساتيننا وحقولنا، وعبرت فوق جسورنا، وتملّت بسمائنا باستغراب،

واستقبلها بذهول غير عارف ما الذي عليه أن يفعل. هل يصفّق؟ أم يحزن؟ يضحك؟ أم يبكي؟ وهذه المشاعر المتعارضة هي التي انتهت به إلى مصير مثل ذاك.

لكن المهمّة التي تركها لي كانت مهمّة ثقيلة، مهمّة أن أكون شاهداً على هذا الزمن الذي جفاه، ورحل. سأكون شاهداً على جسر طارق، وشارع الملعب، والمدينة السياحية، وجسر بزيبز، وقصر الرئيس على أكتاف الجسر، وتلّة المشيهد التي رقد فيها الشيخ الذي كتب له الحجب؛ كي يعيش، كما روت جدّتي ميّاسة قبل أربعين سنة، والدروب المتغلغلة بين البيوت، وعدد المراحات قبل أن أولَدَ، ومضخّة المياه، وزهور الجوري وشجرة اليوكالبتوس المنتصبة في المقبرة والطريق السريع الذي بنته الشركة اليابانية، وشاهداً على المطبخ الإلكتروني الذي نسبح فيه شاهداً على أرشيف ضخم من الذين ماتوا طوال خمسين سنة، والذين ترعرعوا تحت أجنحة الحروب، وشاهداً على الطائرات من دون طيار، والقنابل المصنوعة من اليورانيوم غير المخضب، وزنازين التعذيب، وأسوار أبو غريب. أنا الوريث لأصداء حكايات جدّي. يمتلئ رأسي بحداء البدو، وغزلان الصحاري، ورائحة العرفج والنفل والخباز، وقصص الجنّ والغيلان في الليالي الهندس، وعطن المراحات، وزفير الغنم، والطين المديوف بالتبن، وحبّ المحلب وهو يهبّ من ثياب القرويات، وعواء الثعالب في أجمات الحقول، مثلما يمتلئ بأريج الزهور في حدائق المُدُن، وعطر النساء، ودقّات الأحذية العالية، وهي تخطر على الإسفلت، وباعة الملابس المستعملة، وأزيز الطائرات، وطعم المستكي في العَرَق، وغناء المقام الساحر بأصوات محمّد العاشق والقبانجي ويوسف عمر، وضوضاء الفنادق الرخيصة.

عمّي نتاج مرحلة ماضية، لم يستطع عبورها بسلام إلى ضفّة جديدة، فالعُمر، عُمر الإنسان، محدود، كما كان يردّد، ولكل حيّ نهاية. فكّرتُ فيما حصل لنا، لعمّي وللقرية، حين وقفتُ محدّقاً في ذلك الفجر البعيد على ضفّة العاصمة من جسر بزيبز، أن ثمّة ضيقاً في رؤية ما جرى لنا. لم نمتلك أفقاً أوسع لرؤية الأحداث، منذ دخول القوّات الأميركية، وحتّى الآن، منذ نشاط الوحوش الصغار في بدء الأحداث وحتّى اللحظة، لم نكن نرى سوى الجزء الضيق من الأرض التي نقف عليها، فيما كان الآخرون يخطّطون لكل خطوة، يخطونها، ابتلعنا طعم الوحوش الصغار في البداية، اعتقدنا أن الحلّ للخلاص من الوحل الذي نحن فيه هو بالتشدّد في كل شيء، ابتداء

من الإيمان بالله، وانتهاء بدخول الغرباء القادمين من خلف البحار، إلى القرية. أبناء كولومبوس، كما دأب مصطفى على تسميتهم. كان الوحوش الصغار - في أول تغلغلهم في نسيجنا - يحاججون بأنهم يجاهدون ضد الغزاة، يقيمون لهم قواعد صغيرة في الحقول النائية، والشواطئ المكتظة بالطرفاء والغرب، ويهرّبون الصواريخ والسلاح من مكان إلى آخر تحت جنح الظلام حين تكون البشر نائمة، وتحلم بالسلام. يصنعون متفجرات، ويبتكرون خططاً للهجوم، لكن؛ في النهاية، يقصفون المستشفيات، ويُغلقون المدارس، ويقطعون الطرق، ويغتالون أيّ شخص لا ينسجم معهم، وفي الجانب الآخر، كان أشخاص مثل عمّي يسعون إلى ترتيب حياتهم اليومية، من مأكل وملبس وطبابة ودراسة وعمل، إلا أنهم يتقرّبون إلى المحتلّين بهذا الشكل، أو ذاك. مثلاً، قيس ابن عمّي رشيد، اتّفق معه الأميركان على مقاولة ناجحة، وهي صنع صبات كونكريتية للجيش الأميركي، بأسعار خيالية، وسرعان ما جهّز قيس مكاناً في الصحراء، وجلب المواد الضرورية من ماء وإسمنت وحصى ورمل وقوالب، وراح يُنتج لهم الصبّات التي تحيط بالمعسكرات والدوائر الحكومية والأبنية المهمة خوفاً من العمليات الانتحارية التي كان ينفّذها الوحوش الصغار في السنوات القليلة التي أعقبت الحرب، بل وأخذوا السلاح من المحتلّين لمقاومة الوحوش، وهي متناقضات، تعيش في الفرد الواحد منّا، حتى وصل وجوده إلى درجة أن المرء لم يعد يعرف - بالضبط - إلى أية جهة ينتمي، ومع مَن يتعاطف، أو يسير. قبل الأحداث، كان الناس منسجمين مع أنفسهم، سوى حالات قليلة من الشذوذ الذي يؤكّد القاعدة، اليوم أصبح الشذوذ هو السائد، ليس هناك طريق واضح أمامنا. لقد فقدنا البوصلة، كما يقول المثقّفون. وهذا هو الحصاد الذي جنيناه.

# الفصل الحادي عشر

في الصباح، أخبرتني نادية، كالعادة، بحلم آخر من أحلامها. قالت إنها رأت نفسها تحمل مريم في حضنها، وتقود عليّ من شعره، وتعبر جسر بزيبز، لكنْ؛ ليس إلى العاصمة، بل في الاتجاه المعاكس، نحو المدينة، لكنك لم تكن معنا، قالت. ورغم أنني كنتُ سعيدة بالعود، لكنني بقيتُ أتلفّتُ يميناً وشمالاً، علّني أراك، وبغتة شاهدتُ بشير يقف في الضفّة الثانية. وجهه مبتسم، وعيناه ترقصان، ويشير لنا بالإسراع، للوصول إلى الضفة الثانية، فيما كان الجسر خالياً، وهو ما نال استغرابي الشديد. أين اختفى البشر الذين رأيناهم؟ الأغرب من ذلك أننا فتحنا باب البيت، ووجدناه على حاله تقريباً، النضد مُتربّ، والأرضيات وُضعت عليها أفرشة للنوم، وأدركتُ أن عائلة ما استخدمت بيتنا خلال الفترة التي غبناها، الثيل في الحديقة لم يقصّه أحد، وأشجار التين والبرتقال ذبُلت، وكان التنّور مهدّماً، وسرق شخص ما المولّد الكهربائي، وسمعتُ بشير يقول في أثناء ما كان يقف في الصالون: وحوش، إنهم فعلاً وحوش، خرّبوا البيت. ثمّ فقتُ على صوت عليّ، وهو يفتح التلفزيون.

أوضحتُ لنادية أن الحلم تعبير عن شوقكِ للرجوع إلى القرية، ورغم أنني لا أرى علامة على ذلك، لكنني أظلّ في شوق، مثلكِ، إلى ذلك اليوم. حلم نادية بقي يدور في عقلي طوال النهار، ذهبتُ إلى قيصرية المدينة المواجهة للقلعة، واشتريتُ بعض الأغراض للبيت وجلستُ أمام النافورات، وشربتُ شاياً في المقهى الواقعة تحت جدران القلعة، لكن ذلك الحلم لم يفارق خيالي. بعد العشاء، صعدتُ باكراً إلى صومعتي، وقرّرتُ أن أستعيد بقية الرحلة على الورق، علّني أتخلّص من وَهْم العودة الذي عاشته نادية في حلمها. نعم، العودة وَهْم، بعد ما عانيناه في أثناء مغادرتنا جسر طارق، والتوجّه نحو المدينة. كنّا مثل مَن يمشي إلى الموت بخطوات ثابتة. لكنه موت يختلف عن الموت الذي جاء ركضاً خلفنا، الموت المؤكّد. نعم، كنّا نتّجه نحو موت غير مؤكّد، وهذا ما دفع خيط الأمل بالخلاص من الظهور أمامنا.

ما إن غادرنا جسر طارق متّجهين نحو المدينة حتّى دخلنا في جحيم

حقيقي. منذ جدّي حميد، بل منذ جدّه وأولاده، عيث وحامض وعبيد وملحم وبالي، الذين استوطنوا ضفاف النهر قبل مائة سنة، أو يزيد، لم تشهد القرية هجرة جماعية مثل هذه. وأتخيّل أخي مصطفى، وهو يقول هذا ما جلبه لنا أحفاد كولومبوس، ويعني بهم الأميركان. صحيح أن القرية شهدت كوارث طبيعية، هاجر إثرها عدد من أبنائها إلى مُدُن أخرى، كالفيضانات التي كانت تحدث كل سنة، قبل تشييد السدود على أعالي النهر، لكنها تشهد للمرة الأولى نزوحاً، لا رجعة منه في هذا الزمن. نزوح ترك أهلها في حيرة عمّا يجري لهم، فعقولهم وأفكارهم لم تصل إلى إدراك حقيقة ما يُخطَّط، أو يُنفَّذ على هذه الخارطة. البعض نسب ما يجري لنا على أنه غضب إلهي، والبعض قال بوجود مؤامرة لتهديم مُدُننا، وتشريد ناسنا.

لقد أخبرني ماهر بعد رجوعي إلى أهلي، أن كثيراً من الناس هنا فرحوا حين رأوا تلك الطائرات الغريبة، وهي تنقضّ على برج التجارة العالمي في نيويورك، وتحمّسوا للخراب الذي ذاقته أميركا، وعدّوه عقوبة إلهية على الحصار الذي فرضته على العراقيين طوال عقد كامل من الزمن. ذوقوا من السّمّ الذي شربناه نحن قبلكم، كان البعض يردّد، هكذا قال لي ناقلاً ما خطر في عقول الناس الذين التقاهم بعد رجوعه إلى البلد. لقد دبّج أخي مصطفى قصيدة عمودية، يشيد بها بالهجوم، ويستحضر عبره معركة عمورية التي قادها المعتصم في الزمن الغابر. كما دبّجت شاعرة عراقية، يعرفها، قصيدة حماسية، وجدت لها عنواناً مثيراً فاضحاً، هو: سأتزوّج ابن لادن، نالت عليها مكافأة، مقدارها مليون دينار عراقي من القصر الجمهوري، بعد أن نشرتها في صحيفة الحزب.

استغرق الأمر منّا أسبوعاً لإكمال نزوحنا، والوصول إلى جسر بزيبز؛ إذ أطبق الوحوش على المدينة من ثلاث جهات، ولم يتبقّ سوى منفذ واحد للهروب. الفضاء الجنوبي للمدينة. كنّا خائفين، والموت كان يرفرف على الجهات كلها، على شكل قذائف بعيدة، وانفجارات، ودخان يرتفع في الفضاء، دخان بعيد لحرائق مصحوبة، بِدَوِيّ، بعضه قريب، وبعضه - بالكاد - يُسمع. الحرب الحقيقية هي حين تفقد البوصلة، ولا يعود عدوّك واضحاً، كما لو أن الجميع يحارب الجميع. هكذا بدأتُ أقتنع في تلك اللحظة من الزمن، وأنا أشاهد الفوضى المنتشرة في المنطقة. كنّا نصادف عوائل هاربة مثلنا، منهم مَن يمشي وعلامات الذهول بادية عليه، ومنهم مَن يستقلّ سيّارة، فيما جهّز البعض تراكتورات الحراثة، وربط وراءها عربة لحمل

الأثاث، والجميع اتّجه إلى المركز. جاءت نساء ببقراتهنّ، وهنّ غير عارفات ما سيعملنَ بهنّ، فقلوبهنّ لم تطاوعهنّ بترك تلك المخلوقات، دون وجود أحد يعلفهنّ، أو يسقيهنّ. كما سحب شخص ما خروفاً، خمّنتُ أنه سيحاول بيعه؛ لكي يستفيد من النقود في قادم الأيام. قرى الجهة الثانية، قرانا كلها سقطت بيد الوحوش، تقول الأخبار، بينما شاعت أخبار أخرى، تُنبئ بِنِيّة الوحوش التقدّم نحو المدينة، ويمكن تصديق ذلك من صوت الانفجارات الذي بدأ يقترب من الأطراف. هناك مَن يحمل سلاحه، ويسير متراجعاً مثل بقية المَدَنيين، وهناك مَن راح يندب حظّه العاثر، كونه لا يمتلك وسيلة للنقل السريع، فرضي بقدره، وسار في الطريق الريفي الذي يخترق القرى، ويحاذي النهر متّجهاً نحو طرف المدينة الشرقي، وهو ذات الطريق الذي نسير فيه بسيّارة البيك أب مع نادية وعلي ومريم.

ذهني ينحصر في الوصول سالمين إلى بيت ماهر، أو بيت أخي مصطفى، فمن هناك، علينا اتّخاذ القرار، وبدأتُ أفكّر بالرحيل باتجاه العاصمة. المظاهر كلها توحي بسقوط المدينة الوشيك، فمعظم السيطرات التي كانت غاصة بالشرطة وعناصر الجيش وجدناها مهجورة، أو تسبح في ارتباك عال، وسط إشاعات، تصل بين دقيقة وأخرى عن انسحاب الجيش، وتقدّم الوحوش في معظم المناطق. بل سرت إشاعة كريهة، مرعبة، سمعتُها في واحدة من نقاط التفتيش، تقول إن الوحوش يجهّزون قنابل كيمياوية لضرب المدينة، وقدّرتُ مع نفسي أنها لا تعدو أن تكون حرباً نفسية على السكّان، لكنْ؛ مَن يستطيع ردّ الإشاعة بعد طيرانها؟ وسط هذه الفوضى لا يعدم المرء من ملاحظة ظواهر نافرة، تستدعي التأمّل، صادفناها خلال الطريق، مثل جندي بلباس مهلهل، يرسم علامة النصر للهاربين، حتّى كدتُ أن أقتنع أنه مسرور بنجاح الهجوم الذي شنّه الوحوش، أو امرأة، وضعت زينتها كاملة من أصباغ الوجه والذهب في يديها وشعرها المتطاير من وراء غطاء الرأس الملوّن، وذلك الشيخ الذي يتناول رغيفاً من الخبز بلذّة، فيما هو سائر مع عائلته مشياً نحو المدينة. وصادفنا - أيضاً - شخص ملتح، يقرأ القرآن، وهو سائر في وسط الطريق، دون أن يلتفت للفوضى المحيطة به.

الطيور في أشجار النخيل والبساتين، وعلى ضفاف النهر، وفوق الجزر الصغيرة المكتظّة بأشجار الغرب والطرفاء، هي الوحيدة التي لم يعنها كل ما يجري حولها، ظلّت تهدل في الهواء، وتطير من مكان إلى آخر، أو تتسلّل بين النباتات مفتّشة عن الغذاء. فكّرت أنها كانت موجودة قبلنا، وستظلّ

بعدنا، مهما تغيّرت أحوال، وبادت أقوام، وحكمت دول. من بعيد، من أعالي النهر، كنتُ أرى الجسر الكبير يقف شاحباً، مهجوراً، ينتظر وصول البرابرة، وأشعّة الشمس تتلاصف على المياه في منظر حالم، لا يتناسب مع ما كنّا نعيشه من واقع جارح. شاحباً، خرباً، بدا قصر الرئيس، على كتف الجسر، وقد غادره الأميركان قبل بضع سنوات. تناهى لأسماعنا أن جيشنا انسحب من تلك الثكنة، وبأوامر غامضة، ما إن هجم الوحوش على المدينة. وكنتُ أقرأ هواجس نادية الصامتة مثل صفحة مفتوحة، وهي تدير عينيها في الطرق، والنازحين، والبساتين البعيدة، والجسر الشاحب، مثل حمامة مهزومة، وتخمّن بحدسها الصادق أنها لن تعود إلى هذه الديار، ولن تزور قبر أبيها سليمان البنّا الراقد في مقبرة المستودع منذ سنوات طويلة.

دخلنا المدينة من جانب حديقة الألعاب، ووجدناها في فوضى عارمة، فسيّارات الهاربين تتقدّم دون وجهة محدّدة، مرّة إلى الشرق، ومرّة إلى الغرب حسب ما تقودها الأخبار عن فتح طريق الخالدية، أو طريق الكيلو ١٨، أو معبر بزيبز. حتّى السيّارات العسكرية وسيّارات الشرطة تسير في الاتجاهات كافّة، كما لو كانت حائرة في الهدف الذي تريد الوصول إليه، وشاهدنا مرضى المستشفى العامّ، يتجمّعون أمام الباب الرئيس، وهم في حيرة من أمرهم، وهم مترددون بين البقاء، أو الرحيل. أغلب المحلات كانت مقفلة، وذبذبة الهواء تُنبئ أن الجميع يحزم أمره للرحيل، مثلنا تماماً، لا فرق بين الأغنياء والفقراء، بين المتعلّم والجاهل، خاصّة وأن الأخبار تقول بِنيّة الوحوش معاقبة أهل المدينة ثأراً لسنوات طويلة من الرفض لهم، والقتال ضدّهم، ومناصرتهم لحكومة العاصمة التي عدّوها كافرة، وتابعة للمحتلّين الأميركان. قبل أسبوع، جاءني المرحوم بشير في الحلم، قالت نادية بصوت باك، ونحن نثجه إلى بيت ماهر، في حي الأندلس، عبر الطرق الفرعية، جاءني، وقال لي ستتركون البيت بعد أيام، وستمضون إلى مدينة بعيدة، لكنّ؛ لا تنسوني، أنا سأبقى هنا، أحرس الحديقة ومولد الكهرباء، وأسقي التينة وأشجار النخيل، وأصلّي في الجامع حتّى لو كنتُ وحدي. كان يقف تحت النخلة الخستاوية القريبة من التنّور، وجهه كان مضيئاً، ويشعّ بنور خفيف. الحلم يتحقّق، أخشى أن ينبشوا حتّى القبور. حلمك مثل علمك، قلتُ لها، لا أظنّ أن وحشيتهم تصل إلى نبش القبور، ما الذي يجنونه من ذلك؟ المهمّ الخروج من المدينة، الأحداث لا تبشّر بخير، الذلّ فرض نفسه على الجميع، قد تكون ثمّة حكمة في ما يجري. أنا أفكّر بالوصول إلى العاصمة، يقولون إن جسر بزيبز ما يزال في يد الحكومة. مَن لنا في العاصمة؟ سألت. سنذهب إلى بيت قيس ابن عمّي رشيد، ثمّ

نرى بعد ذلك ما الذي نقوم به، وأنا أفكّر بالرحيل إلى مدينة أربيل. سمعتُ أنها توفّر تسهيلات للنازحين. لم تردّ نادية على كلامي، وظلّت صامتة، ورأيتُ قليلاً من الدموع تتراقص بين رموشها، ومن ثمّ؛ دخلنا الزقاق الذي يقع فيه بيت ماهر. وجدناهم - أيضاً - جاهزين للرحيل، ينتظرون ساعة الصفر. ما خفّ حمله، وغلا ثمنه، كان ماهر يصيح بخولة وابنه أسامة وابنته مها، مستعجلاً تخليص ما يعتقد أنه نفيس من أيد الوحوش القادمين.

بقيتْ غرف النوم كما هي، الفرش والأواني في المطبخ، الستائر، السكّر والشاي والبطاطا في المخزن، وأباريق الزجاج في الخزانة الخشبية الموضوعة في المدخل، وكذلك التلفزيون والكُتُب التي اعتمدها ماهر لمشروعه الذي سمّاه مختارات من عيون الشعر. ماهر سيترك البحتري والشنفرى وامرؤ القيس والحطيئة وعنترة العبسي وأبي العلاء المعري نائمين في بطون الكُتُب، فهو غير محتاج لهم بعد هذه الساعة. الطوفان قادم، يقول لي بين حين وآخر، وهو يتنقّل من الغرف إلى الصالون الذي كنتُ أجلس فيه، ووجهه مربد أسود، وعيناه قلقتان، حتى إنني خفتُ أن يعاوده مرض الصرع الذي شُفي منه قبل عقود، فتحويشة العمر ستضيع، حَرّ ليبيا ومعاناتي ستضيع هباء، كان يقول لي بعض الأحيان، ولا أعرف كيف أردّ عليه. مَن يتخيّل ذلك؟! مَن يتخيّل ذلك؟! يسأل مع نفسه بصوت عال، وينظر حوله في موجودات البيت، وكأنه يتحسّر أنه سيترك كل شيء لمصير مجهول.

نمنا ليلة هناك، ثمّ ليلة أخرى، حتى استطاعت خولة لملمة نفسها، وتلفنا إلى مصطفى، وأخبرنا أنه سيرحل أيضاً، لكنه يفضّل الذهاب إلى الناصرية، زوجته من هناك، وستساعده عائلتها في ترتيب وضعه، واقترح علينا مرافقته، وقد وافق ماهر، لكنني عارضتُ، وفضّلتُ الذهاب إلى العاصمة. قضينا ليلة أخرى في بيت علي، ثمّ توجّهنا صباحاً نحو الكيلو ١٨، الطريق الذي سيقودنا نحو الضياع، فمن هناك، مضى مصطفى وماهر نحو النخيب؛ كي يدخلو كربلاء، بينما مضيتُ أنا إلى جسر بزيبز التفافاً حول بحيرة الحبانية. في كل خطوة، يمكن لنا أن نتعرّض إلى الموت. رغم أنه لم يعد مخيفاً، منذ سنوات، ونحن نعيش مع الموت، لا يمرّ يوم دون أن ندفن واحداً منّا، أو نُلملم أشلاءه نتيجة انفجار، أو عبوة ناسفة. هذه الحقيقة تآلفنا معها. هي مسألة وقت، لا أكثر. الساعات القادمة ستشهد دخول الوحوش إلى المدينة، اتّفقت معظم الشائعات على هذه الحقيقة، الأمر

الذي كان يدفع الجميع للهروب. جثة عمّي رشيد التي تركناها في العراء، أصبحت ذكرى بسيطة أمام الهجرة الجماعية للمدينة، بل وأصبحت حَدَثاً نائياً وشاحباً، أمام ما عشتُه خلال هذه الأيام.

البثّ الحيّ الذي شاهدناه في التلفزيونات العربية والعالمية كان لعبة أمام ما عشناه، حقيقة، نحن أبناء المنطقة المنكوبة، فـ السي إن إن لا تستطيع عبر تقاريرها عن جسر بزيبز والجيش الجزار من الهاربين أن تصوّر الكآبة المرتسمة على الوجوه التي كانت تحيط بنا، ولا تستطيع رصد الألم العميق الكامن في صدورنا، ونحن نفارق البيوت والحدائق والشجر والطيور والفضاء الرحب الذي كان لنا منذ الفجر، وحتّى غياب القمر في ليالي القرية الداجية. تخيّلتُه فيلماً مرعباً، يُعرَض في الهواء الطلق، ونحن الممثّلون الذين يؤدّون أدوارهم؛ ليحصلوا، لا على مكافأة، أو نقود، إنما على خسارة كل ما يمتلكون. خسارة المقابر والقصص القديمة والنكات الساذجة وبصمات الأيادي التي تركتها على الجدران، وسواقي المياه، وتربة الأرض المزروعة بالقمح والشعير والذرة، وبقايا الأغاني الريفية التي كانت النسوة يرددنها في الأعراس والأعياد، وملفّات الطلاب في المدارس، وحتّى سجلات الولادات والوفيات.

إنه يوم الحشر، هكذا وصفت نادية الوضع على كتف الجسر. آلاف، وربّما عشرات الآلاف من البشر، يحتلّون كتف الجسر من جانب المدينة. تحت النخيل المبعثر على ضفّة النهر تناثرت أجساد الهاربين احتماء من الشمس، يسيطر على وجوههم تعبير الرعب واليأس واستعجال العبور إلى الضفّة الثانية، نساء وأطفال ورجال يجلسون على الأرض، وعيونهم مشدودة إلى فم الجسر الذي يسيطر عليه حرّاس مدجّجون بالسلاح، يُمسكون هواتفهم بقلق، ولا ينقطعون عن الحديث مع أشخاص ما في الطرف الآخر، خمّنتُ أنهم الحرّاس في الجهة الثانية، جهة العاصمة. والجسر مدّ على عشرات الدوب الشبيهة بالسفن المسطّحة، ذات ألوان حمر، وقد وضع على الجانبين حاجز من الحديد، يربط المرس بينها منعاً من انزلاق العابرين نحو النهر، وينحني في منتصفه حتّى يصعب على السيّارات والعربات اجتيازه بعض الأحيان.

وكانت الضفاف توحي بالطمأنينة، بسبب غابات البردي النابت بكثافة، وهو يهتزّ مع كل نسمة تهبّ بغتة على المكان، ورغم هذا الحشد والفوضى لمحتُ طيور أبو الزعر تتنقل من أجمة إلى أخرى، وكأنها غير عابئة بما يجري حولها للبشر. كما لمحتُ سرباً من القطى، يطير في السماء نحو

المجهول، وحضر في ذهني البيت الشهير لقيس ابن الملوّح، الملقّب بمجنون ليلى: أ سرب القطا هل من معير جناحه.....الكل يروم العبور نحو الضفّة الثانية بأي ثمن، بعض الأحيان يوصد الجسر أمام البشر، فيجلسون منتظرين ساعة الفجر، وحين تأتي الأوامر بفتح الجسر، يهرول الجميع بموجة صاخبة نحو البداية، وسط تدافع العناصر، وخشيتهم من انفلات النظام، أو تمزّق الجسر القديم تحت ثقل العابرين.

كنتُ أتفاوض مع واحد من حماية الجسر حول عبورنا مع السيّارة، صادف أنه كان قريباً لنا قرابة بعيدة، أوضحتُ له أن زوجتي مصابة بالسكّر، ولا يمكنها المشي، أو تحمّل الانتظار فترة أطول، ورأيتُ التعاطف يرتسم في عينيه، وتعابير وجهه، وأخبرني أنه سينقل طلبي إلى الضابط المكلّف بقيادة نقطة الحرَس، وحتى لو سمحنا لكم بالعبور، فربّما ترجعكم سيطرة الضفّة الثانية، قال لي بارتباك، يخافون من المندسّين، الوحوش يتزيّون بزيّ اللاجئين؛ كي ينفّذوا عمليات داخل العاصمة. إنني أتفهّم ذلك، لقد اختلطت الأوراق في هذه المحنة التي نمرّ بها، القاتل يلبس لبوس الشرطي، والفاسد يتشدّق بالنزاهة، والجبان يرتدي رداء الشجاع، إذا ما عرفنا أن المقاييس كلها تلاشت من حياتنا خلال السنوات السابقة. قلتُ له سهّلْ لي الأمر مع الضابط، وسأتكفّل بالباقي. تركني ومضى إلى السيطرة.

هذه هي المرّة الأولى التي تطأ فيها قدماي جسر بزيبز. لم أسمع به سابقاً على الإطلاق، رغم أنني نشأتُ في هذه المنطقة. على مقربة منّا، جلس رجل عجوز وابنه على بطّانية متربة، وكان العجوز ينظر لي باستغراب غير مفهوم، خمّنتُ أنه يعرفني ربّما، أو يشبه ملامحي بملامح واحد من أقاربنا، كما فعل ذلك مختار القرية محمود الملا خضر معي وسط غرفة المضمّد عبد، قبل خمسين سنة، حين قرأ ملامح عمّي في وجهي.

يا عمّ، أنت عشتَ طويلاً، هل تعرف متى أُنشئ جسر بزيبز؟ سألتُه. أنا الذي أعرف، قال لي، وانتصب ظهره على البطّانية بفرح، وراح يخبرني حكاية الجسر: قبل زمن طويل، قبل أن أولد أنا، حكم بغداد والٍ عثماني، اسمه داود باشا. في ذلك الوقت، لم تكن هناك مُدُن مثل مُدُننا اليوم، فلاحون وعشائر وبدو، والطرق ترابية، وهناك خانات لمبيت التجّار والمسافرين، أ تسمع بخان ضاري؟ شيخ ضاري الذي قتل الـ(زابط) الإنكليزي لجمن، في ثورة العشرين، هو لا يبعد كثيراً من هنا، كان خاناً مزدهراً في عهد العثمانيين، كثيراً ما بات به الجندرمة حين يمرّون بهذه المناطق. في تلك الفترة، كثرت غارات البدو والعشائر على الخانات،

وقوافل المكارية، الذين كانوا ينقلون الصابون والتبغ والشاي والسكّر والتمر بين القرى والمُدُن الصغيرة، ممّا جعل داود باشا يجهّز جندرمته لمطاردة البدو، فقام بوضع عشرات السفن، وربطها مع بعضها بالحبال، وهكذا صنع هذا الجسر، أو جدّه، إذا ما تكلّمنا بدقّة. جسر لعبور الجندرمة، والمزارعين المسالمين والمرضى المتّجهين إلى مستشفيات العاصمة، والتسمية بزيبز جاءت من كون المنطقة تنفر من ضفاف الصحراء الشامية، فتشبه البزّ؛ أي الديس، ولكن العثمانين ذهبوا، ومات السلطان عبد الحميد كمداً، وجاء اليهود إلى فلسطين، وأحرق البدو ذلك الجسر في الفترة التي دخل فيها الإنكليز إلى المنطقة، وراحوا يسيّرون سفنهم بين دير الزور والفلّوجة محمّلة بالجنود، وقرّروا إقامة جسر جديد في المنطقة ذاتها. أقامه الجيش الإنكليزي لحماية قاعدتهم في الحبّانية، وكانت تسمّى في ذلك الوقت سنّ الذبان، ومعهم رأينا - لأول مرّة - السيّارة والطيّارة. سنّ الذبان قصفته الطائرات الإنكليزية في حركة رشيد عالي الكيلاني، قبل ثورة الزعيم عبد الكريم قاسم، وخلال عقود الجمهورية رُمّم الجسر، وهو يُجدَّد كلّما جاء رئيس إلى الحكم. هذه هي قصّة جسر بزيبز.

صمت العجوز، ومال على جنبه، واتكأ على يده، وبدأ يحدّق في الثكنة الواقعة على ضفّة الجسر، مبحراً في سنواته العتيقة الضاربة جذورها على ضفاف النهر، وعدتُ أنا إلى هواجسي، وقلقي، فيما لاحث ابتسامة خفيفة على وجه الشاب الذي يجلس جنبه، وعلى غفلة من جليسه، رسم لي إشارة سريعة، تخبرني أن العجوز مختلّ العقل، أو مجنون، وينبغي أن لا أصدّق حديثه.

الثكنة بناء موحش من عدّة غرف، تحاذي النهر، يحيط بها من جوانبها كلها ساتر عال من البراميل الكونكريتية المغطّاة بالتراب تحسّباً لأي قصف، أو هجوم انتحاري، بسيّارة مفخّخة. وخلال انتظار الموافقة، رحتُ أتطلّع إلى الجسر، وأكاد أن لا أصدّق ما يجري هناك. شاب يرتدي قبّعة ورداء ملوّناً على بيجاما رياضية وحذاء رياضي، يقود بقرة ضخمة مبقّعة الجلد بالأسود والأبيض، من نوع البقر الذي أطلقنا عليه في السبعينيات بالبقر المحسّن، وقيل وقتها إنه بقر هولندي، وأتذكّر فِرَق التلقيح لتحسين النسل، وكانت تجوب القرية لتلقيح البقر المحلّي، وها هو الشابّ يعبر الجسر بفرح مع بقرته، وكأنه وصل إلى ضفّة الأمان، وراودني إحساس أنه فرح بنهاية البقرة السعيدة أكثر ممّا هو فرح بوصوله الآمن هو ذاته. رجلان يدفعان امرأة عجوزاً، تجلس في عربة ثلاثية العجلات، وتضع جنبها كيساً معبّأ

بالأغراض، كانا يجاهدان لدفع العربة إلى المرتقي الذي يقود إلى ضفّة العاصمة، أحد الرجلين هو صاحب العربة، أمّا الثاني؛ فلا بد أن يكون ابن العجوز، يبدو ذلك من الحرص الشديد على العربة؛ كي لا تسقط إلى الماء. فكّرتُ بالقصص الكثيرة والعجيبة التي تحفظها المرأة في رأسها، وسترويها - لاحقاً - لصديقاتها عن المعاناة التي عاشتها حتى تصل إلى واحة الأمان. بشر مثل النمل، يدبّون على ذلك الخيط الرفيع الواصل بين ضفّتين، وتحتهم المياه تسافر نحو الجنوب، غير عابئة بعجينة التعاسة هذه. أشخاص يحملون حقائب مختلفة الأحجام، نساء يضعن أبناءهنّ على الأكتاف، شيوخ يرتدون العبي رغم الحرّ والغبار، شباب كالحو الوجوه، يرتدون ملابس غير لائقة للسفر، فيما ينتشر الجنود على زوايا الجسر، وعند النهايتين، وبين العابرين، حاملين أسلحتهم متأهّبين لأيّ طارئ. وبمضي الساعات، كان الحشد يتسع، فينفرش على مساحات واسعة حول مدخل الجسر، تحت النخيل، على حافات الشاطئ المعشب، قريباً من السواقي المتروكة، تنفرش البسط، وتُمدّ الموائد، ويتبادل الجالسون والواقفون أرغفة الخبز، والصمّون، وحبّات الخيار والطماطم، وقناني الماء، ويمكن سماع صراخ طفل رضيع، أو امرأة تبكي على عزيز، غادر هذه الحياة، فيما يتناقل القريبون من المدخل، الذين يحتكّون بالحرَس، إشاعات حول غلق الجسر، أو فتحه، وفي أثناء ذلك، عاد الجندي الذي أعرفه، وأعرف عائلته؛ ليخبرني أن الضابط وافق على دخولي الجسر، لكنْ؛ عند الفجر؛ كي لا يثير لغطاً حول الأمر.

قطعنا طريق النخيب، وها نحن ندخل كربلاء، أخبرني أخي مصطفى، ورغم أن المغامرة تكلّلت بالنجاح، إلا أنهم كادوا يُقتلون أكثر من مرّة، بعض الأحيان، لا يمكن التفريق بين سيطرات الوحوش وسيطرات الجيش أو المتطوّعين. ما نزال عالقين لدى جسر بزيبز، وننتظر أوامر فتح الجسر، أخبرتُه بسرعة قبل أن يصمت التلفون.

في منظر ليلي فريد، لم تشهد له ضفاف النهر مثيلاً منذ عهود طويلة، آلاف العائلات تفترش الأرض، تهيئ أرواحها للنوم، وتهدأ الحركة قليلاً قليلاً، وتبدأ ذبالات الضوأ تنطفئ واحدة بعد أخرى، ذبالات لقدّاحات غازية، ومصابيح يدوية، تشتغل على البطاريات، وأعواد ثقاب، تلتهب لحظة، ثمّ تخبو، فيما تتلاشى الأضواء تحت ليلة مظلمة، بعيدة، تسفر عن نجوم غائرة في الفضاء، تتغامز قادمة من مسافات ضوئية، لا متناهية. مصائرنا معلّقة هناك، أحياؤنا وأمواتنا، أفراحنا وأحزاننا، بيوتنا وطرقنا،

وقد كُتبت النهاية هناك أيضاً قبل أن يُولَد كوكبنا من رحم العماء. الطيور تصمت، مع أن المرء يمكنه سماع قرقعة أسلحة، ونداءات قادمة من نقطة السيطرة، تهمد السيّارات، وينقطع الهاربون عن الوصول، بينما تظلّ المياه تُبقبق تحت الأجراف، محتفلة، بحُرّيّة لا تُحدّ، للسفر نحو المجهول، هي وسمكها وديدانها وخشبها وأغصانها التي قُصفت في مكان ناء، وتحدّرت مع مسيل المياه.

كدتُ أفقد الأمل في الخلاص من بقعة الرعب هذه. نامت نادية ومريم وعلي بعد أن سوّيتُ لهم محلاً على الأرض قرب ساق نخلة عالية، والتحفوا ببطّانية واحدة، وراودني شعور بأننا لا نعدو أن نكون أشباحاً في هذه الليلة السُخرية. ترى مَن سيسجّل ما حلّ بنا؟ وكيف يمكن تدوين قصص الألم المختزنة في الصدور؟ تستطيع الكاميرات أن تصوّر مناظر خارجية لهؤلاء الهاربين، ولكنْ؛ كيف يمكن تحويل المشاعر إلى صور تلفزيونية؟ كانت هذه الأسئلة تفد إلى ذهني، كما لو كانت أضواء نجوم بعيدة سريعة الانطفاء. من عمق الليل تتسرّب إلى أذني أصوات طلقات بعيدة، وأستطيع أن ألمح التماعات خاطفة لقذائف تُطلَق، أو لسيّارات تُفجّر، وأعادني إلى الواقع تهاوي مذنّب صغير على أطراف مدينة الفلّوجة، فحضر في ذهني جذي الذي أخبرني ذات يوم أن تلك المذنّبات يرسلها الله لحَرق الشياطين كلّما شرعت بالصعود نحو السماء. سيصفّق يداً بيد، وهي الحركة التي يقوم بها كلّما شعر بالأسف الشديد على حَدَث جَلَل، وفكّرتُ بما سيفعله جذي لو رآنا مشرّدين هاربين في هذا الخلاء بعيداً عن القرية التي أسّسها هو وأخوته وأقرباؤه قبل قرن من الزمان.

أين أنتَ، أيها الفجر؟ أدمدم مع نفسي، وأنا أتطلّع جهة الشرق، إلى تلك الضفاف المقابلة لنا، وألمح فيها أضواء لسيّارات، تأتي وتذهب، وفكّرتُ أنها سيّارات للشرطة والجيش بلا شك، وكانت هناك أبعد من ذلك، هالة ضوئية، خمّنتُ أنها وهج العاصمة، وقد هيّأت نفسها لنهار جديد، وموت جديد، وأحداث جسام، لم يعد أحد يتكهّن بنوعها، غير أنها لا تخرج عن إطارها الموضوع لها. جفاني النوم تماماً، وسبحتُ في بحر الهواجس والأفكار، يحضر لي جسد عمّي الذي تركناه في المقبرة، وأتخيّل حيوانات الليل، وقد هجمت عليه، ممزّقة أعضاءه عضواً عضواً، ساحبة قوائمه نحو شجرة اليوكالبتوس التي زرعها ذات يوم، ثمّ أهزّ رأسي رعباً، وأنتقل نحو ريم التي خلّفتها في تلك المدينة البعيدة، وقد صارت حلماً، دخلتُ - بكل تأكيد - في قصة عشق أخرى مع رجل آخر، أو أترقّب تلفون مصطفى أو

ماهر؛ كي يطمئناني على المكان الذي وصلا إليه، ولا تكفّ عيناي عن مراقبة بوّابة المعسكر آملاً بانبثاق قريبي، الجنديّ الذي سيعطيني الأمر بالعبور. طلع الفجر على الأرض، وودّعنا آخر عائق أمامنا، ما إن اجتزنا الجسر.

ترجّلتُ من السيّارة، ووقفتُ أحدّق في الجهة الثانية التي قدمنا منها، كانت الحشود قد بدأت بالعبور على الجسر، نحو العاصمة، ولمّا تهطل أشعّة الشمس بعد. المشهد ذاته الذي رأيتُه عصر اليوم السابق. أحسستُ وكأن العابرين هم ذاتهم، وإن اختلفت السحنات والملابس والعدد، الحقائب المكتظّة بالملابس، العربات الخشبية الناقلة للمقعدين والشيوخ، الأطفال الصغار المعلّقون على أكتاف آبائهم وأقاربهم. وقفتُ أتأمّل بخشوع، بألم، بحزن، بعجز، أرض الضفّة الأخرى التي فقدناها، وربّما لن أراها مرّة أخرى، وسأستعيدها على شكل ذكريات فقط، أمّا جسدها المحسوس، من شجر وبيوت وسواقي ونساء وحقول وطيور؛ فتوارت خلف صحراء قاحلة. لوّنت أشعّة الشمس نهايات سعف نخلة، تنتصب في الأفق مثل كائن بشري عملاق، تبع ذلك نهوض جماعي لطيور النوارس واليمام والقبر، وهي تدور في الفضاء، وقد لاحظتُ كم كانت تلك الطيور فرحة بطلوع النهار، وفي مكان بعيد، ثارت دوّامة ريح صغيرة، أخذت تدور على نفسها محمّلة بالورق الجافّ والريش والتراب، تتحوّل إلى لون أصفر، كلّما توغّلت في الفضاء، وبدأت مويجات النهر تشارك الخليقة بفرحة صعود الشمس من جهة العاصمة، وراحت السيّارات تتحرّك يميناً ويساراً، في طرق متوغّلة إلى المجهول، وداخلني شعور هو أننا سنتوه في دهاليز هذه الحياة لسنوات قادمة.

اليوم وأنا أتذكّر تلك الدقائق القصيرة التي كنتُ فيها أودّع ببصري قريتنا اللامرئية، ومدينتنا العتيقة، وجسورها وقصصها، أتساءل مع نفسي هل كنتُ متنبّئاً، رائياً، في لحظة عجيبة من الانخطاف؟ كم مضى على تلك الرحلة التي قطعنا فيها جسر بزيبز نحو العاصمة؟ أكثر من سنة، سنتين، ثلاث، لم يعد يهمّني الزمن، أو الوقت، كل ما أعرفه أنني أقطن في هذه الشقّة مع زوجتي وابنيها، في هذه المدينة الغريبة. منذ شهور، أصبحت متعتي الوحيدة هي استعادة تلك الحياة، لكنني أشعر بالغضب، والحزن، وأنا أصبّها على الورق للأجيال القادمة؛ كي لا يكرّروا الأخطاء التي وقعنا فيها، إلا أن ما يحزّ في نفسي أنني فقدتُ الأمل تماماً، لا في قضية رجوعنا إلى القرية فقط، بل فقدتُ الأمل بكل شيء من حولي. عند كل نهار جديد،

صرتُ أتساءل مع روحي حول ما جرى، وهل أن كل ما مرّ بنا كان - حقاً - مقدّمة واضحة، وكثيفة المعنى، لدخول عالم الموت، وفتنته؟